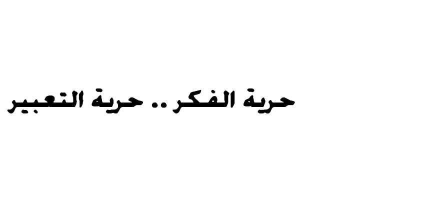
مصر ليست أمي..

دي مرات أبويا

الطبعة الخامسة

أسامة غريب



حرية الفكر .. حرية التعبير

مصر ليست أمي..
دي مرات أبويا

أسامة غريب

مصر ليست أمي...
دي مرات أبويا

أسامة غريب

الطبعة الأولى يناير 2008
الطبعة الثانية مارس 2008
الطبعة الثالثة إبريل 2008
الطبعة الرابعة إبريل 2008
الطبعة الخامسة مايو 2008

محمول: 0123415179

رقم الإيداع: 2007/27394

الغلاف إهداء من
الفنان أحمد مراد

إهداء

إلي "أبو حازم"

فنان الإخراج الصحفي

صديقي الجميل..أحمد محمود

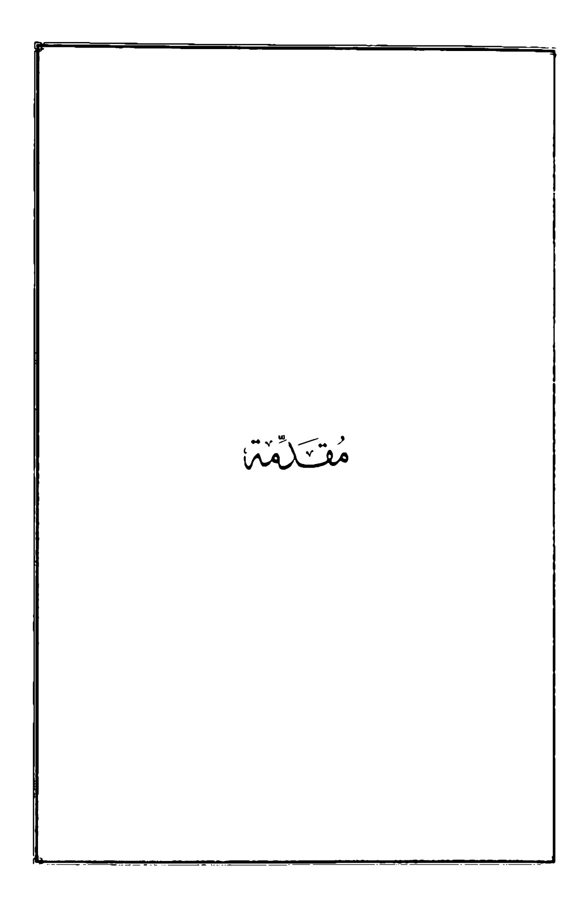
يا صابحة متعطرة

من حلفا للقنطرة

أنا اللي دمعي اشترى

أغلـــى منـــاديـــلك

هاني شحاتة



مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

المسألة بدأت بهزار..

كنت أجلس مع صديق لي على دكة خشبية تطل على النيل في أحد أيام شهر مارس ٢٠٠٥ عندما بادرني قائلاً: الآن وقد صار لك ثلاثة شهور بالقاهرة بعد عودتك من سفرية كندا التي امتدت لخمس سنوات، ما رأيك في الحالة السياسية والإجتماعية التي أصبحت عليها مصر الآن؟ قلت له: إني أري مصر وكأنما قد تعرضت في وقت واحد لضربة إعصار من ماركة تسونامي، مع زلزال بأقوي ما يستطيع الأخ ريختر أن يسجل، علاوة على ضربة كيماوية ساحقة أنزلها بها الأعداء!

هتف صديقي مفزوعاً: إعصار وزلزال وضربة كيماوية في وقت واحد، كيف هذا؟ قلت: هذا هو ما أراه.. ملايين المصريين يعيشون داخل عشش صفيح على امتداد نهر النيل من أسوان حتي دمياط، كما يعيشون في المقابر. هل يمكن أن يحدث هذا إلا عقب الزلازل والأعاصير التي تقتلع بيوت الناس وتلجئهم لسكني العشش والمقابر؟

قال صاحبي: وماذا عن الضربة الكيماوية؟ **قلت:** هل يمكن لوطن في حالة سلم أن يصاب أهله بالسرطان على هذا النحو المخيف حتي صار أقرب إلى مرض وبائي؟ هل لاحظت تلوث مياه الشرب وتلوث الهواء والسحابة السوداء؟ هل لاحظت حجم مرضي التهاب الكبد ومرضي الفشل الكلوي؟ هذه كلها أمراض التلوث ولا تحدث أبداً لأبناء دولة تعيش حالة سلم، هذا كله نتاج ضربة كيماوية تعرضت لها مصر على يد أعدائها.

قال صديقي: إذاً هذه هي مصر كما تراها؟ **قلت:** بكل أسف نعم. **قال:** وما رأيك في حالة الحراك السياسي التي يشهدها المجتمع المصري الآن؟ **قلت:** مجرد سراب يحسبه الحرمان.. بانجو!! **سألني:** وما رأيك في الحالة الصحفية حالياً؟ **قلت له:** إن صحف الحزب الوطني كالأخبار والأهرام والجمهورية تصيبني بالضجر وتكاد تقتلني، والأنكى أنها تفعل هذا على حساب شعب مصر وليس من فلوس أعضاء الحزب الوطني، أما الصحف المستقلة فبعضها يبشر بالخير وبعضها مستقل على مبادئ الحزب الوطني!

قال صديقي ضاحكاً: الحمد لله أن هناك شيئاً يعجبك، فبادرته قبل أن يطلق لتفاؤله العنان: إنما قصدت إنها أفضل من صحف الحكومة من حيث أنها تنشر الأخبار ولا تعتم عليها، أما من حيث المقالات والأعمدة فهي تنشر الملل والسأم والضجر كغيرها، وإن كنت ألمح في جريدة جديدة اسمها "**المصري اليوم**" اختلافاً عن السائد، ذلك أن حجم المقالات والأعمدة المملة بها أقل من المعتاد ومساحة الأفكار الجديدة والطازجة بها أكبر، وهنا بادرني صديقي: ما رأيك والأمر كذلك أن تكتب بالمصري اليوم مقالاً اسبوعياً؟ فأجبته: الحقيقة أنني غير معتاد على الكتابة المنتظمة، ولعلك تعرف عني حالة الكسل التاريخي التي أسفرت عن كتابة قصة قصيرة كل عدة سنوات! قال: إبدأ وربما أغرتك التجربة بالاستمرار.

و هكذا قد كان. . أرسلت للمصري اليوم مقالاً بعنوان: "**تداول السلطة والانسان المحترم**" تم نشره بتاريخ ١٦ يونيو ٢٠٠٥، ولا أنكر أن رد فعل أصدقائي كان مفاجئاً ومشجعاً، كذلك الأصدقاء الأعزاء بالمصري اليوم رحبوا بي وأفسحوا لي مكاناً بينهم، فبدأت أغالب الكسل وأكتب أسبوعاً بعد أسبوع، وكان ذلك يضفي سخونة على الجلسة بالمقهي يوم الخميس ويمنح أصحابي مادة للشجار وهم يأخذون ما أكتب بحماس وجدية غير مدركين إني "باهزَر!" ولكن الأمر الذي ساهم في تورطي على نحو كبير كان رسائل القراء التي أدهشتني وغمرتني بثناء لا أستحقه وصوبت جموحي أحياناً، وأمدتني بأفكار عجيبة. ومن هذه الرسائل اكتشفت أن هناك قراء يفوقون كثيرا ممن يملأون الدنيا كتابة ويطرطشون حبرهم في وجوهنا، وتأكدت أن معظم السادة الكتّاب لا يصلحون أن يكونوا قراءاً.

و بقدر ما أغضب ما كتبت بعض الناس أو من كنت أحسبهم كذلك! بقدر ما أكسبتني الكتابة أصدقاء من حيث لا أحتسب، وأنا أعترف أنني أدين لهذه المقالات بصداقات لم أكن أحلم بها لأناس يُشرفون بلداً بأكمله.

و عندما كنت أراجع المقالات لاختيار ما أظنه يصلح لهذا الكتاب تذكرت أن بعضها قد أضحكني عندما كنت أكتبه مثل "**البشبوري**" و"**الحمّام جاهز يا باشا**" و"**المسمط الكبير**"، وتذكرت أن بعضها الأخر كتبته دامع العينين مثل "**فولكلور**" و"**أطباء وقتلة**".

لكن صادفتني مشكلة عند الشروع في تقسيم وتبويب فصول الكتاب، لأنني على مدي عامين ونصف كتبت عن كل ما خطر على بالي بدون تحفظات. . فهل يا تري أضع المقالات طبقا لتتابعها

تزعجني أم أهتم أكثر بتجانس الموضوعات؟ . وجدتني منحازاً للحل الثاني كما وجدتني أنظر لمقالاتي بعين جديدة كما لو لم أكن كاتبها واكتشفت أنني كتبت عن عدد من أولاد البلد المصريين الذين عرفتهم طوال حياتي، ورأيت أن يجمعهم فصل واحد بعنوان : "**أصدقائي**" وفي هذا ترجمة لشعوري الحقيقي نحوهم . و لا أنسى أن أحد هؤلاء الأصدقاء وهو "**أباظة**" قد وصلني بشأنه عدد كبير من رسائل القراء تطلب عنوانه أو نمرة تليفونه، الأمر الذي أذهلني لأن أباظه هذا كان يدير مكتبا لتحصيل الديون المعدومة . . و عندما كتبت عنه فإن الهزار كان دافعي، لكن أهل مصر الطيبين اليائسين من العدل وجدوا في أباظة الملاذ والملجأ!

و رأيت أنني تناولت في بعض الكتابات بعضاً من أصدقائي المتقفين الذين كشفت لي الأيام أنهم أصدقاء فالصو أو عيرة أو قشرة، فرأيت دمجهم في باب تحت عنوان : "**أصدقاء كلة وكدة**" .

نفس وحدة الموضوع دفعتني لتخصيص فصل اسمه : "**سكافوللي**" وضعت به السكافوللية من البشر إلى جوار بعضهم! أما عن "**وكن الطبيخ**" فقد كان لازماً لجمع المقالات الحلوة والحادقة والحريفة التي علقت فيها على أصحاب "**طشة الملوخية**" و"**الأوزي والبعرور**" وعشاق البُفتيك والفيليه المشوي الذين أضحكوني وسرّوا عني، هذا إلى جوار مقال - كشري **أبو طارق ومهلبية هاني سرور** - الذي وصلني يوم نشره ما يزيد على مائتي رسالة من القراء مما جعلني لا أنام ليلتها من السعادة .

كذلك رجحت أن أخصص فصلاً يضم المقالات السوداء، على غرار السينما السوداء أو **Cinema noir** المعروفة في هوليود والتي تناولت موضوعات ثقيلة وقاتمة، فقمت بوضعها معاً في فصل تحت اسم "**الهولوكوست**" اشارة إلى المحرقة اليومية التي تشوي المصريين! . هذا إلى جانب فصل "**العبث اللذيذ**" وفصل "**الجدية التي لا تطاق**" . . والعنوانان معاً يشكلان اسم أحد المقالات العابثة!

و رأيت من المناسب أيضاً أن أخصص فصلاً بعنوان "**حواديت**" جمعت فيه مجموعة من الحواديت التي رويتها للقراء، وكلها رغم غرابتها . . حقيقية، ومن أكثرها طرافة حدوتة "**كاوتشا والأنتيخ**" وبطلاها اليوم يشار اليهما بالبنان . . . (**الوسطي**) .

كما أني ختمت هذا الفصل بحدوتة رومانسية على نحو مغاير لما ألفه القراء مني .

و بنفس الطريقة فقد اصطفت معاً مجموعة المقالات التي رصدت بعض تجليات "الوكسة" في حياتنا في فصل واحد اختار لنفسه اسم: "سفر الوكسة" يتصدره مقال "يا أمة ضحكت من وكستها الأمم" يتحدث عن البرنامج المصري لإنتاج الرغيف الطباقي، في مواجهة البرنامج النووي الإسرائيلي!!

و لم يفتني وقد كتبت عن جانب من مشاهداتي التي رأيت فيها بأم عيني أناس يأكلون لحم مصر ويتمصمصون عظامها في شهية غريبة . . لم يفتني أن أقدم لهم فصلاً من بطولتهم بعنوان: "السُحت" ويتصدره مقال: "موسم السُحت الكبير".

أما الحرب العربية الاسرائيلية التي خاض غمارها ببسالة حزب الله في مواجهة الوحش الاسرائيلي صيف ٢٠٠٦، فقد وضعت ما كتبته عنها معاً في فصل: "آه يا لبنان" وفيه سجلت تبرؤي من العقلاء العرب الذين كانوا وسيظلوا دائماً "مع الرصين"!

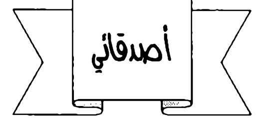
و كانت هناك كلمات اعتدت أن أختم بها بعض المقالات أحياناً تحت عنوان جانبي "كلمة أخيرة" . . هذه الكلمات الأخيرة تضمها آخر صفحات الكتاب طبقاً لنصيحة العقلاء من أصدقائي!

أما عن الدافع الحقيقي الذي دعاني إلى تجميع هذه المقالات في كتاب فهو استجابتي لأصدقائي الذين لا أدري لماذا يحسنون الظن بي وعلي رأسهم صديقي وحيد عنابي وصديقي أشرف ابراهيم وكانت هذه فكرتهما.

و مع هذا فأحيانا يخيل إلى أن أصدقائي لو عرفوا حقيقة الأمر وأنني كنت طول الوقت أضحك عليهم لما سامحوني. فهم يتصورون أنني كنت أكتب طوال هذه الأسابيع من أجلهم، ولا يدركون السبب الحقيقي الذي اكتشفته أنا نفسي متأخراً، وهو أنني كنت طوال هذه المدة أكتب لأعالج نفسي . . . أو لعلهم كانوا يعرفون منذ البداية . . ولأجل هذا شجعوني!

أسامة غريب

المقطم – ٨ ديسمبر ٢٠٠٧


أصدقائي

أباظة.. لتحصيل الديون المعدومة!

قرأت في الصحف منذ أيام أن تعليمات سيادية قد صدرت للسيد محافظ البنك المركزي تمهله حتي نهاية ٢٠٠٧ ليتمكن من عقد تسوية لمديونيات الهاربين بأموال البنوك والتي تقدر بالمليارات، حيث أن نتيجة جهوده في هذا المضمار عام ٢٠٠٦ لم تكن مُرضية بالمرة وأسفرت عن استرداد حوالي ١٧٦ مليون جنيه فقط.

و بقدر ما أحسست بصعوبة موقف الرجل وأشفقت عليه من المهمة، بقدر ما فرحت أن هناك من لا يزال يأمل في إمكانية عودة المال المسروق مع أن الفأر القابع في "عبي" وخزني بسؤاله: كيف يريدون استرداد الفلوس بعد أن تركوا اللصوص يخرجوا بها من صالة كبار الزوار؟!

و على الرغم من أنني لم أعتبر أبدا أن مصر هي أمي، ودائما ما أنظر اليها بحسبانها "مرات أبويا" التي عذبتني وكوتني بالنار، إلا أني كمواطن صالح من نفس الفصيلة الواردة في كتاب التربية الوطنية بتاع سنة خامسة لا أملك سوي أن أضع معلوماتي عن السوبر لصوص بين يدي من يطلبها.

و الحكاية أنني أثناء إقامتي في كندا قد تعرفت على أغلب اللصوص الهاربين بأموال مصر الذين استقروا في مونتريال. وكنت أراهم بشكل دائم يتسكعون في واحد من أشهر شوارع المدينة – شارع "سانت كاترين" – حيث المتاجر والمقاهي والملاهي والسهر.. ثم يعودون آخر الليل إلى قصورهم التي اشتروها في أشيك وأرقى أحياء المدينة – حي "ويست ماونت" – الذي صار معروفا بأن سكانه ينقسمون إلى قسمين: الأغنياء اليهود.. واللصوص المصريين! والحق أننا من كثرة من كنا نصادفهم في غدونا ورواحنا منهم في هذا الشارع فقد أطلق عليه المصريون: شارع الحرامية!

و لا أتمالك نفسي من الضحك كلما تذكرت يوما كنت أسير فيه بالشارع أحمل في يدي كوبا من القهوة الساخنة وأغني، عندما التقيت بأحد القطط السمان الذي بادرني بإلقاء التحية وقال: مساء الخير يا أستاذ فلان.. فوجدتني لدهشتي أنا نفسي أقول له: مساء الخير يا حرامي! وعندها علت الدهشة وجه الرجل واحتقن بالغضب، غير أني لم أكترث ومضيت في طريقي وضحكاتي

المتواصلة تشق الفضاء . والحق أنني أقدّر دهشة الرجل وغضبه ، فمن ناحية لم يسبق لي أن شتمته هو أو أي لص آخر ، ومن ناحية أخري فقد اعتاد هو وأصحابه أن يلقوا من المصريين الاحترام اللائق بأصحاب الملايين حتي لو كانت مسروقة !

و لا يشذ عن هذا الكثير من السادة المسؤولين الذين يترددون على كندا طول الوقت لأنهم كنديو الجنسية وقد حسموا مسألة الوطن البديل تحسبا ليوم الطوفان ، ودائما ما تكون إقامتهم أثناء الزيارة في معية نهّابي البنوك وعلي حسابهم .

وأعتقد أن ما دفعني إلى هذا التصرف النزق مع الرجل هو حالة النشوة التي كنت عليها ذلك اليوم بعد أن سمعت ما فعله الروائي الأديب صنع الله ابراهيم بالأمس عندما وجه صفعة للقبح والنطاعة وأعلن على الهواء رفضه قبول جائزة قيمتها المالية ١٠٠ الف جنيه من جهة فاقدة للمصداقية على حد تعبيره ! كنت أسير يملؤني شعور بالزهو والكبرياء كما لو كنت أنا صاحب الموقف المدهش . ومع هذا فكرت أن أسرع وراء اللص وأعتذر عن خطأي في حقه ، و أحكي له عن صنع الله . . لكني استبعدت الفكرة .

خلاصة هذا الحديث أنني على أتم استعداد أن آخذ أي مسؤول من يده وأذهب به إلى محل إقامة كل من نهب البنوك المصرية واختبأ في كندا ، ومستعد أن أريه المقاهي التي يجلسون بها والكازينو الذي يقامرون فيه بفلوس المصريين إذا كانوا يجهلون أماكنهم ، أو إذا كان المُحضر الحكومي الذي يرسلونه يعود دائما دون أن يستدل على العنوان !

غير أن ثمة مسألة أخري تثير قلقي ، صحيح هي مسألة إجرائية ، لكن القوم في بلاد الفرنجة يهتمون بهذه الأشياء التافهة ، ومنها أننا لكي نسترد أي لص ممن سرقوا فقراء مصر وطاروا للخارج لابد أن تكون قد صدرت بحقهم أحكام قضائية ، ولكي يعترف الغرب بهذه الأحكام القضائية لابد أن تكون صدرت عن القاضي الطبيعي الجالس على منصة قضاء طبيعية . يعني المحاكم التي تضم موظفين حكومة لا أحد يعترف بها . . ومن هنا فإني أدرك صعوبة الموقف و أدرك حرج الحكومة المصرية التي بعد أن أدلها على أماكن الحرامية . . تقف عاجزة عن الإمساك بهم .

غير أن الأقدمين قالوا أن كل عقدة ولها حلال ، وبما أنني أخذت على عاتقي أن أتولي الموضوع من بابه . فحلال هذه العقدة عندي وأعرفه جيدا وأثق في قدراته ، وهو رجل طبقت شهرته

الأفاق . . ولو قُدر لك أن تتجول بشارع القبيسي بالظاهر ستطالعك لافتة مكتوبة على شقة بأحد بيوت الشارع القديمة . . اللافتة تقول بالخط العريض : (أباظة . . لتحصيل الديون المعدومة) وأباظة هذا هو مجرم سابق ، تاب عن الطريق البطّال ونذر نفسه لفعل الخير واسترداد الحقوق الضائعة والديون الميؤوس من عودتها . ومن هنا فإن كل من له حق وعجز عن تحصيله إما بسبب أن الجاني واصل أو بسبب أن الطريق القانوني وعر وحباله طويلة – موظفون ، رجال أعمال ، صنايعية ، ستات بيوت – كل هؤلاء ذهبوا لأباظة صاحب الحلول الأكثر نجاعة وحسما . ومن المعروف عن أباظة أنه تأثر في طفولته بفيلم "الأب الروحي" وأعجبته أساليب "دون كورليوني" ورجاله في الإقناع عندما كانوا يقدمون للرجل المستهدف عرضا لا يمكنه رفضه . . إما الفلوس وإما طلقة في الرأس !

و لم يحدث أبدا أن فشل أباظة في مهمة أوكلت اليه ، ولم يحدث أن عاد خالي الوفاض . إلا أن الأمانة تقتضي أن أذكر نقطة عارضة ، على الحكومة أن تضعها في الحسبان إذا فكرت في الاستعانة بجهود أباظة لأستعادة أموال البنوك المنهوبة ، ذلك أن أباظة يسترد الفلوس دائما وهذا ليس محل شك ، لكن هذه ليست نهاية القصة . يتبقى السؤال الوجودي الحارق : من ذا الذي يستطيع أن يسترد لك فلوسك من أباظة ؟ ! غير أن هذا حديث آخر .

بلوتونيوم الحاج عاشور

في مثل هذه الأيام المفترجة من العام الماضي أعلن الحزب الوطني عن دخول مصر إلى العصر النووي. وتقديراً مني للعلم ونسب الفضل إلى أهله فقد قمت حينئذ بتذكير القراء باسهامات الحزب الوطني العلمية على مدى السنين، وخصصت بالذكر الإستجابة الفورية للتحدي الإسرائيلي عندما قامت تل أبيب بإطلاق قمرها الصناعي عام ٨٨.. وقتها لم تقف القاهرة مكتوفة الأيدي، ففي نفس الأسبوع قامت مصر بإطلاق الرغيف الطباقي المحسّن مما أخرس الألسنة التي تحدثت عن تخلفنا العلمي!

و هذا العام بعد أن جدد الرئيس مبارك الدعوة إلى انطلاق البرنامج النووي أكاد أسمع نفس الأصوات المنكرة تقول أن هذا هو الموعد السنوي للتصريحات النووية، وأن موعدنا العام القادم في نفس التوقيت للإعلان عن دخول العصر النووي وبناء مفاعلات لتوليد الطاقة!

و هكذا أجد نفسي مضطرا للتدخل مرة أخري للذود عن سمعة الحزب العلمية ولو اقتضى الأمر أن أكشف سراً لا أعتقد أوان كشفه قد حان.. لكن للضرورة أحكام.

بعد إعلان العام الماضي مرت الأيام دون اتخاذ أي اجراءات عملية للبدء في بناء المفاعلات ولهذا فقد تصور الناس أن الأمر كان مجرد مزحة من أجل الفرفشة ورفع الروح المعنوية. كان من الممكن أن أتأثر بهذا الكلام لولا أن ساقتني الأقدار إلى زيارة الحاج عاشور بصحبة أحد أصدقائي.

أخذني الصديق في مشوار إلى "عطفة كلاوي" عند سفح جبل الزبالة، وهناك قابلنا الحاج عاشور جالساً داخل الكشك الصغير، وبعد التحية والذي منه وجدت صديقي يطلب واحد شوكولاتة صاروخ ماركة "أقبل الليل" وصاروخ آخر ماركة "هذه ليلتي".. انحني عاشور على صندوق صغير وأخرج منه منتجاً مغلفاً و قدمه لصديقي وهو يهمس: هذا آخر اختراعاتي، لم أقدمه لأحد قبلك وهو خلاصة تجارب سنين قضيتها في المعمل. ثم أردف: واسم صاروخ الشوكولاتة الجديد هو: بلوتونيوم.

نقلت بصري بينهما في دهشة وتساءلت: ما حكاية البلوتونيوم هذه؟ فانتفض عاشور محذرا ويده على فمه: اسكتوا.. تعالوا معي وسأشرح لكم كل شيء. انتقلنا إلى بيت عاشور المجاور

وهناك أحضر لنا شاباً وقال: سأطلعكما على سر لا يعرفه أحد . . تعرفون أنني أعمل في هذه الخلطات منذ أن ورثت الصنعة عن أبي رحمه الله، وتعرفون كذلك أن منتجاتي حازت ثقة الجمهور في المحيط القريب، ثم انتشرت بعد ذلك وذاعت شهرتي وأصبح الرجال يأتون لي من أقاصي البلاد فأعطيهم الإكسير الذي يمدهم بالطاقة ويرفع رؤوسهم عالياً ويجعلهم منفوشي الريش أثناء قيامهم بالجولة تلو الجولة. قال صديقي: نعلم كل هذا ولكن ما الجديد في الموضوع؟ أجاب عاشور: الجديد أنني وبينما كنت في المعمل أجرب مقادير جديدة ومواد لم أستخدمها من قبل وصلت دون أن أدري إلى تصنيع البلوتونيوم!!

قلت له: بلوتونيوم ايه يا عاشور . . واضح انك بتضرب حاجات قوية . . عارف ايه هو البلوتونيوم؟ قال: عارفه يا ناصح وعندي في هذا الكشكول جميع الخلطات التي تركها لي المرحوم ومن بينها كيفية تصنيع البلوتونيوم وكذلك اليورانيوم! ثم أضاف منفعلاً: ولكن لأنني رجل ملتزم بالشرعية الدولية وأعلم أن الوكالة عينيها مفتحة وأن الدكتور البرادعي لا يتسامح أبداً مع تجارب التخصيب التي تجري بعيدا عن اشراف الوكالة إلا لو كانت تقوم بها اسرائيل، كما لا يتسامح أيضاً مع تجارب التخصيب التي تجري تحت رقابة الوكالة لو كانت تضايق اسرائيل! لهذا كله فقد آثرت الابتعاد عن سكة اليورانيوم . . أما البلوتونيوم فمسألة أخري . . لم أسمع طوال حياتي عن أي جهة تحدثت عن البلوتونيوم أو عن دولة ضربت أخرى واحتلت أراضيها بناء على مزاعم بتخصيب البلوتونيوم . .

ثم لتأكيد نظريته قال: الفرق بين اليورانيوم والبلوتونيوم هو نفس الفرق بين الخمرة والحشيش، الخمرة حرام لكن ممكن نشتريها من عند البقال، أما الحشيش فممنوع بقوة القانون . . وأنا لا أعمل في الممنوع مهما كانت الإغراءات، وأحب أن أضيف لمعلوماتكم أنني لا أقوم بتجاربي هذه من تلقاء نفسي، فقد حضر إلى أحد زبائني القدامى وهو عضمة كبيرة في الحزب ولما علم بمحاولاتي شجعني وساعدني بإحضار مواد كانت ناقصة من السوق وقال لي: إن مصر كلها تنتظر نتيجة شغلك .

سألته: أي مواد هذه التي أحضرها اليك . أجاب: بردقوش وعين العفريت . قلت له وقد شغلتني المسألة: وكيف علمت أن ما توصلت اليه هو البلوتونيوم بعينه وليس شيئاً آخر؟ قال في فخر: عرفت من خلال شيئين، الأول هو هذا الكشكول، فقد وضعت المقادير كما هي مسجلة هنا: بيضة حنش و٤٠ جرام زعفران مع ٥ بلحات جوزة الطيب ونبات اليبروح وجاوي وزر عود

ولبان دكر بالإضافة إلى ملعقة زيت حار مع لحسة عنبر وبابريكا ناعمة، وبعدها لا تسألوني ما اسمه حبيبي . . لأنكم ستسمعون استغاثته بأنفسكم! الشيء الثاني أن كل هذه المقادير تحت درجة ضغط معينة ممكن أن تصل بكم إلى الكتلة الحرجة . . هل تعرفون معنى هذا؟ قلت له : البرنامج المصري سلمي يا عاشور، لا تدخلنا في مشاكل . قال : لهذا أنا لن أصل إلى الكتلة الحرجة . . قبلها بمحطتين أكون قد وصلت إلى المنتج الجديد : "بلوتونيوم الحاج عاشور"

خرجت من عند عاشور وأنا أشعر بالخجل من نفسي . . لقد كذبت أصدق الشائعات المغرضة، بينما الحزب طوال عام كامل يعمل في صمت من أجل مصر ويحاول مع الحاج عاشور أن يستولد البلوتونيوم من أضلع . . الحوافريت!

منصور شجرة ونظرية خشبة المكب!

تابعنا على مدى الأسابيع الماضية بعضا من الأخبار المريعة عن التعذيب الوحشي الذي اقترفه فريق من المنحرفين من أفراد الشرطة ضد مواطنين أبرياء دون سند من قانون أو عُرف أو دين. وشاهدنا فصولا من الجرائم بالصوت والصورة بعد أن قام المجرمون أنفسهم بتصويرها ونشرها على الانترنت وإرسالها الى الموبايلات عبر خاصية "البلوتوث" حتى يكون لها أثرا ترويعيا في طول البلاد وعرضها. حدث ذلك بعد أن أصبح الجناة من الجبروت والثقة بأنهم في مأمن من العقاب مهما فعلوا ومهما اقترفوا من جنايات، حتى لو جعلوا من مصر أمام الدنيا كلها وطنا للعار!

أحد هذه الكليبات المصورة يحوي صورة رجل شرطة ضخم في حجم باب زويلة، يتضح من هيئته أن أصحابه يقومون بتغذيته بشكل جيد. وفي الصورة يظهر مواطن بائس وقع في يد الوحش الذي رسم الرعب على وجه ضحيته وراح يسدد اليه صفعات قوية متتالية بشكل سريع جدا. ومن الواضح أن حيوانا كان يمسك بالكاميرا يسجل المأساة الانسانية وهو في قمة السعادة بدليل ضحكاته هو وبقية فريق الشاهدين المنحرفين الذين حاولوا استعادة الرجولة المهدرة مع أسير فاقد الحيلة!

أما الضحية الآخر الذي شاهدنا على النت الكليب المصور الخاص به فقد نشرت الصحف قصته المؤلمة مع بعض النفايات البشرية الذين اختطفوه ومارسوا ضده اعتداء بربريا وهتكوا عرضه وقاموا بإدخال خشبة في مؤخرته مع تصوير الجريمة لحظة بلحظة وتوزيع نسخ من الفيلم على الدنيا كلها.

قرأنا أيضا عن الجريمة البشعة التي وقعت على طريق البحر الأحمر ضد مهندس شاب كان بصحبة أسرته في طريقه لقضاء أجازة بالغردقة، عندما أوقفه كمين برئاسة ضابط شرطة اسمه سيد الكازاماني أو شئ من هذا القبيل، وقد قام هذا الكازاماني بطرح المواطن أرضا وجعل قواته تخلع ملابس الرجل وهمَّ باغتصابه في الشارع لولا أن الرجل افتدى نفسه بتقبيل أحذية قطيع المجرمين استجابة لطلب زعيمهم الكازاماني به! ولم نشاهد هذه الجريمة على الانترنت لأن القوم على ما يبدو لم يكونوا مستعدين للتسجيل وقد باغتهم الضحية وأسرته على حين غرة وجعلهم يضربونه ويطرحونه أمامهم على الأض مجردا من ملابسه دون أن يكون فريق التصوير جاهزا!

و قد نشطت الصحف في تغطية هذه الجرائم وفي عمل التحقيقات الصحفية التي شملت استطلاع آراء علماء النفس والاجتماع عن الرأي العلمي في مقترفي هذا النوع من الجرائم التي تختلط فيها السادية بالجنون.

و مع كل الاحترام لآراء السادة الأساتذة، إلا أن أستاذا من نوع آخر وجدتني أشد الرحال اليه ليفيدني بالرأي فيما هو به عليم. ذلك هو " منصور شجرة" الفتوة المتقاعد . . صاحب أقوي "روسية" في الشرق الأوسط، الرجل الذي عرفته كل سجون مصر وتعامل مع كل أنواع المجرمين كما تعامل مع رجال الشرطة وله عنهم حكايات تصلح للدراسة الأكاديمية، وقد رأيته في سنوات الصبا يجندل كتيبة من الرجال بذراعيه العاريتين. جلست مع نفر من أصدقائي بصحبة عم منصور في بيته بوكالة بندقة وطفق يحكي عن ذكرياته أيام الشقاوة، ثم انعطف إلى جرائم الترويع التي يرتكبها بعض المنحرفين من رجال الأمن، وكان له بشأنها تفسير غريب لم أتوقعه.

قال عم شجرة: أنتم أيها المتعلمون تستريحون إلى التفسيرات الجاهزة التي تتفق مع حالة الكسل العقلي التي تأنسوا اليها، وأظنكم تعتقدون أن أفراد الشرطة الذين ينتهكون أعراض الضحايا ويضعون العصي في أدبارهم . . تظنونهم وحوشا آدمية فقدت الانسانية والضمير والشرف، وتتصورون أن من يفعل هذا لابد وأن يكون معقدا نفسيا، كارها للبشر ومحتقرا للنفس الإنسانية. كما لابد أنكم تعتقدون أنه لا يمكن أن يكون مؤمنا بالله أو يتوقع وجود آخرة وحساب وعقاب . . صح؟ هكذا تساءل منصور شجرة. قلت: صح يا أبو الأشجار. قال: غلطان يا صاحبي . . هؤلاء الناس ليسوا أبدا كما تعتقدون، هم ليسوا وحوشا . . هم فقط مختلفون، والحكاية أن هناك من الناس نوع تطلقون عليه اسم الشواذ، أي أنهم استثناء في الخروج على الفطرة السوية، يعني بلغة السياسيين قلة منحرفة أو شرذمة ضالة . . هؤلاء الناس يا أستاذ قد قويت شوكتهم واكتسبوا شرعية بعد أن صار منهم رجال كبار يسافرون لحضور مظاهرات الشواذ في إيطاليا وغيرها ومؤازرة الرفاق . . صح؟ لم يعلق أحد فاستطرد: ولا تنسي أيضا أن هناك قبائل عربية في دول مجاورة لا يري كثير من أبنائها في الشذوذ عيبا ولا يعتبرونه فعلا ينال من كرامة المرء أو شرفه. ولعلك لاحظت أن من يسافر إلى هذه البلاد يرجع ومعه زاد من الحكايات عن هذا الأمر . . صح؟ وبعض هؤلاء نزح واستقر في مصر وجلب معه عاداته وطقوسه الخاصة، وسوف أفاجئك وأزيد بأن هؤلاء الناس يعتبرون مضاجعة الرجال محبة!

قلت له وأنا مصدوم: انت شارب حاجة يا منصور؟ ما هذا الذي تقوله؟ قال: باكيتة بانجو

واحدة وحياتك. لكن ليس للبانجو علاقة بما أحكيه. . إسمع يا أستاذ أنت وهو: إن من يقوم بتعرية جسم إنسان وإدخال خشبة في دبره لا يفعل هذا عن غل أو عدوانية أو رغبة في الإيذاء، أغلب الظن أنه إنما يفعل ما شاهده في بيته وبين أهله، يفعل ما فُطر عليه وتعلّم أنه أمر طبيعي ودليل على المودة حيث الأب والأم والأبناء يتداولون العصا. . وأردف: هذه نظريتي وأنا حر فيها، إذا شئتم استفيدوا منها أو اعتبروني مجنونا ولا تروني وجوهكم مرة أخرى، ثم قام وفتح الباب وأغلقه خلفنا في عنف وهو يسب ويلعن. . في الوقت الذي كنا نبادله السباب وأصواتنا تعلو: الله يلعنك يا شجرة ويلعن نظرياتك!

رؤوف وزة ومناسبته الاجتماعية الخاصة

قرأت ما كتبه الأستاذ مجدي مهنا في عموده "في الممنوع" عن صديقه الذي طلب منه التوسط لدي المسؤولين من أجل أن يفتحوا له قصر عابدين لإقامة فرح ابنته، مثلما تم فتح قصر محمد على من أجل خطوبة الدكتور محمد كمال عضو الأمانة العامة بالحزب الوطني ومسؤول التثقيف والتدريب.

كذلك قرأت رد الدكتور كمال، وتبينت حقيقة الأمر، وعرفت أن الموضوع لم يكن به أفراح أو ليال ملاح، وإنما كان عبارة عن حفل استقبال بسيط لمناسبة خاصة تمت إقامته في أحد ممرات القصر وليس في قاعة من قاعاته التاريخية، وأن الأمر اقتصر على المأكولات والمشروبات الخفيفة لمدة ثلاث ساعات فقط.

عرفت كذلك أن الأمر تم وفقا للقواعد المتبعة في هذا الشأن والتي تتضمن تقديم طلب لإقامة حفل الاستقبال في القصر، وأن الطلب أخذ الإجراءات العادية والقانونية، والموافقة قد تمت بدون تدخل أي جهات عليا، لأن القصر مفتوح للمؤسسات والأفراد لإقامة بعض الاحتفالات الخاصة وفقا لسياسة وزارة الثقافة.

من المؤكد أن كثيرين غيري قد قرأوا هذا الكلام، وأنه قد وقع من نفوسهم موقعا طيبا، خاصة بعد أن طمأنهم الدكتور كمال أن المصريين سواسية كأسنان المشط، وأن أي مصري يستطيع أن يتقدم إلى وزارة الثقافة بطلب لإقامة مناسبته الاجتماعية الخاصة.

لكن تبقى مشكلة.. أن من ضمن من قرأوا هذا الكلام وسعدوا به هو الأخ رؤوف وزة، ورغم أن الطابور الواقف على باب وزارة الثقافة لحجز قاعة بقصر محمد على لا شك طويل ويضم كل ألوان الطيف بالمجتمع المصري بعد أن اطمأنوا لعدم الكيل بمكيالين، إلا أن رؤوف وزة له خصوصية تميزه لأنه أولا أحد رجال الحزب المخلصين، وقد وقف معهم في الانتخابات الأخيرة وقفة مشرفة لدرجة أنه يفتخر أن قام بالتزوير كسياسي مخضرم! وثانيا لأنه وإن كان اسطورجياً يقوم بدهان الموبيليا إلا أنه رجل مطلع ومتنور وعارف لحقوقه، ويقرأ أحيانا في كتب أولاد أخته المدرسية، ثم يطلع على أصدقائه الاسطورجية فيعيد على مسامعهم ما قرأه خاصة الأشعار مع

فاصل من التوبيخ والشتائم لمن يسمعون فلا يعون شيئا .

قرر الأسطي وزة أنه سيقيم حفل طهور ابنه شوكت في قصر محمد علي ، وعرض الأمر على أصدقائه ، فلما سخروا منه ، توعدهم غاضباً وقال أنه سيلقاهم ذات يوم بمنعرج اللوي ، أو بحومانة الدرّاج . . ويومها لن يرحمهم . . فلما عقدت الدهشة ألسنتهم أوضح لهم : دي أسماء أماكن يا غجر ، فناوشه أحدهم : يبدو أنها أماكن شرحة وترد الروح يا وزة ! !

و الحقيقة أن تعلق رؤوف بالطقوس الملكية وعشقه للفخامة والأبهة قد بدأ يوم أن دخل قصر أحد الباشوات لدهان بعض قطع الموبيليا ، فخرج من هناك ممسوسا بعد أن عانقت أفكاره الصور المعلقة على الحوائط لرجال ذوي فخامة ومهابة وشوارب أرستقراطية ، يرتدون حللا مزركشة وتبدو على سيماهم ملامح المجد والفخار . . من يومها لم يعد وزة هو نفسه الرجل الذي عرفه أهالي كفر الزغاري بالدرّاسة ، صار إنسانا آخر ، ملأ غرفته فوق السطوح بصور الملك فاروق وأمراء العائلة المالكة حتى محمد على الكبير ، وصار ملكيا أكثر من الملوك .

و لإثبات ولائه للفكر الجديد الذي آمن به ولتأكيد النزعة العثمانلي التي تلبسته قام بتسمية إبنه شوكت على إسم شوكت الأناضولي صاحب القصر الذي سحره ، وفي السجل المدني طلب من الموظف أن يكتب الاسم في شهادة الميلاد شوكت الأناضولي ، لكن الموظف الغتيت كتبه شوكت رؤوف !

و مع الاستعداد لتقديم الطلب سأل أصدقاءه إن كان الفيش والتشبيه مطلوبا ضمن الأوراق المطلوبة فقال أحدهم : وهل تنوي التقديم في كلية الشرطة؟ انت قلت إن كل المطلوب هو دفع "المؤذن" وحجز القاعة ، فرد ثالث بأنه لا يعتقد بأن الأمر بهذه البساطة ويخشى أن موضوع الفازة التي أخذها رؤوف من منزل الأناضولي قد تعرقل الموضوع . . فاحتد وزة : قلت لكم أكثر من مرة أن الفازة كانت تذكارا من الأناضولي ، فسألوه في سخرية : وهل التليفزيون الملون الذي ضبطوه لديك كان أيضا تذكارا من الباشا؟ ! فقال لهم : خستم يا حوش . . ذات يوم سيعلمكم شوكت ابني معنى الاحتشام بعد أن يصير عضمة كبيرة في الحزب . ورغم التوجس فإن وزة يستعد لتقديم الطلب وينوي أن يحجز قاعة بأكملها وهو لن يكتفي بعمل الحفلة في أحد الممرات مثل الدكتور كمال لأنه يخشى على الواد شوكت أن "يتلط" في الممر ، وسيطلب من أم شوكت أن تجهز سندوتشات اللانشون وصناديق الكازوزة وعلب الملبس .

و لـئن كـان الدكـتور كمال قد أكد على أن حفله كان بسيطا ولم يكن به أفراح أو ليال ملاح ، فـإن الأخ وزة يعتقد أن كـل واحـد حر في مناسبته ، وإلا لماذا هي خاصة؟ كان ممكن أن يصدر بها منـشور ويـتم تعميمه على الجمـيع ، لكن حلاوتها أنها مناسبة خاصة سيدعو فيها الحبايب الذين يـريدون مجاملـته ، ولـه في أعـناقهم نقـوطا لا يقل عن ٣٠٠ جنيه ، وسيصخب ويمرح ما شاءت له الشقاوة والسعادة بولي العهد وأول فرحته .

لنتركه لأحلامه واستعداداته ونتساءل عن مأزق الحكومة مع رؤوف وزة الرجل الذي قرأ كلام السيد عضو الأمانـة العامـة ومسؤول التثقيف بالحزب الوطني فاقتنع به وصار يملأه العشم ويمني نفسه بليلة سلطاني في حفـل طهور ولده شوكت بقصر محمد على أسوة بالدكتور محمد كمال في مناسبته الإجتماعية الخاصة .

شهادة هند رستم وشهادة مأمون عجمية

أتابع بإعجاب ما يكتبه الأستاذ أحمد المسلماني من خلال حواراته لتدشين حركة المؤرخين الجدد، وتدهشني اختياراته لشخصيات قريبة من قلب الجمهور المصري، وتتسم في الوقت ذاته بالتلقائية والبعد عن التقعر أو ادعاء ما لا يعتقدون . . هذا بصرف النظر عن رأيي في شهاداتهم.

في الوقت نفسه تحظى هذه الشهادات بمتابعة دقيقة من رجل حرفته الأساسية هي التاريخ، ونكبته أيضا جلبها له هوسه بالتاريخ . ذلك هو الأستاذ مأمون عجمية مدرس التاريخ السابق. وقد صار الرجل سابقاً بعد أن دأب على تنحية منهج الوزارة جانباً وتدريس ما يحلو له على غير ما يذكر الكتاب المدرسي. الأمر الذي دفع بالوزارة إلى فصله نهائياً.

أخبرني الأستاذ مأمون أنه علّم تلاميذه أن التاريخ هو الحكايات الكاذبة المسلية التي تجعل سافل الناس أبطالاً من خلال التواطؤ على إخفاء الحقيقة من جانب أعوان المجرم، في ظل صمت الشهود الحقيقيين وكتمانهم للشهادة، وقال لي أن أحداً لا يمكنه أبداً أن يعرف حقيقة ما جرى في أي عصر من العصور، حتى الأحداث التي تقع أمامنا ونحن على القهوة جلوس، سوف تتعدد الروايات بشأنها ولن يبقى منها سوى رواية أشدنا بأساً وأوسعنا نفوذاً.

و بناء على هذا التصور أخذ الأستاذ مأمون يروي للأولاد في حصة التاريخ عن أخبار دولة المماليك الجوية التي حكمت مصر في العصر الحديث تمييزاً لها عن دولة المماليك البحرية التي عرفت سلاطين عظام خاضوا أعظم المعارك مثل السلطان "وحشُمُر البندقداري" صاحب الضربة البحرية الذي انتصر على السلطان "البيكيكي" وأغرق أسطوله في موقعة "متشخرمين" . . هذا وقد حاول مفتش المادة أن يفهم من الأستاذ عجمية أين قرأ عن موقعة متشخرمين هذه، وأي المراجع استند اليها . . فلم يصل إلى شيء، مما عجل بقرار الرفت والجلوس الأبدي على القهوة.

و لهذا كانت سعادته بالغة عندما بدأ يقرأ شهادات أناس بعيدين عن منهج الوزارة عما حدث في مصر خلال الخمسين سنة الماضية. وقد أسرّ لي بعد قراءته لشهادة السيدة فاتن حمامة والسيدة هند رستم أنه سعيد بما قرأه لأنهما خرجتا على الكتاب وأدلتا برأيهما الحقيقي (رغم اختلافه التام مع مجمل شهادتيهما) لكن نبرة حزينة تبدت في صوته وهو يقول: هند رستم ابنة باشوات كانت

تـذهب إلى العـزبة وتـستمتع بفـرحة الفلاحـين لظهور الباشـوات بطلعتهم البهية ، وفاتن حمامة ابنة بكـوات يتبرأون من مصر عند الهزيمة ويدّعون أنهم أتراك . سألته وما الذي يحزنك إلى هذه الدرجة فقال لي بحدة : يعني ماحدّش أمه غسّالة غيري؟! قلت له : بلي هم كُثر ولكن لا يعترفون . . .

و لمـن لا يعـرف الأسـتاذ مأمـون ، هـو أحد أبناء ثورة يوليو المخلصين الذين استفادوا من أهم إنجازاتهـا وهـو إشـاعة التعليـم علـى نطاق واسع وإتاحته بالمجان ، الأمر الذي مكنه من الالتحاق بالجامعـة والحـصول علـى ليـسانس التاريخ . وقد ظل على ولائه للثورة ولم ينتقص من هذا الولاء إدراكـه أن بعـض رجالهـا كانت لهم أهداف أخري علاوة على الأهداف الست المعلنة . . من بينها الحـصول علـى شـاليهات المنتـزه ، وشـقق في عمارات الإيموبيليا ويعقوبيان واستراند ، والإستيلاء علـى نـسـاء الطبـقة الـراقية ، كمـا أن بعـض الـثوار تفـرغ للحـصول علـى نـصيبه من الراقصات والمغنيات .

و إذا كانت السيدة هند رستم تنفي أن أحداً قد حاول استغلال الفنانين على نحو سيء كما ورد في مذكـرات الـبعض ، فـإن الأسـتاذ عجمـية يري أن الثورة التي كرمت الفن والفنانين ، قد أوغل بعـض رجالها في التكريم إلى درجة أن الفنان محمد عبد الوهاب الذي مدح الحكام من أول السلطان حسين كامل حتي الرئيس مبارك كان يغني في منزل أحد الثوار وفرائصه ترتعد من الخوف!

كـل هـذا غفـره لهم قياساً بالإنجازات التي تحققت والتحديات التي واجهتها الثورة في الداخل والخـارج . لكـن مـا لم يغفـره أبـداً هـو رحلة صعود الواد "شولح" الذي كان زميلاً له بالمدرسة وكانـت أمـه الـست مُحبات تبيع نبوت الغفير على باب المدرسة ، ولأنه كان متوسط المستوي فلم يـستطع سـوي الالـتحاق بكلية الشرطة أيام أن كانت تقبل أبناء المصريين – على حد قوله – تخرج شولح وصار ضابطاً ولكنه لم يستطع أن يشعر بالسيادة إلا على حساب الفقراء من أمثاله ، وماتت الست محبات وهي تدعو على البطن التي أنجبت جاحداً مثله ، ثم ترقي شولح وصار محافظاً فجعل الناس تتحسر على أيام السلطان" بشاميل " حيث كانت السرقة بالمعقول!

مـشكلة الأسـتاذ مأمـون الوجـودية هـي : أيهمـا أشد فتكاً بالمصريين . . حكم الباشوات ذوي الأصـول الأرسـتوقراطية الـذين لا يعرفون عن مصر سوى أنها منجم للعمالة والخدم بأجر بخس ، أولـئك الـذين تـرى السيدة هند رستم أنهم كانوا محبوبين من أقنان الأرض . . . أم حكم المصريين أبـناء مـن كان يسرح بقرد ، ومن كان يبيع أم الخلول فلما أوصلته تضحيات المصريين لأعلي السلم

ركن السلم بقدمه ليمنع صعود غيره وصار أشد غلظة على أهله من الأعداء.. والدليل أن كل الذين يعادون مجانية التعليم اليوم هم الذين تعلموا حتي الدكتوراة من كندا وأمريكا على حساب فقراء المصريين، وهم أمثال شولح زميل الأستاذ مأمون الذي عصف بما تبقي للرجل من عقل وجعله يدرك أن كل تضحيات مصر بلا مرجوع!

عبدان شوماخر العنتبلي "التحرير سابقاً"

كانت جلستنا بالمقهى هذا الأسبوع شائقةً للغاية . . التقيت بعد غياب طويل بصديقنا القديم شوماخر العنتبلي فيلسوف وحكيم قهوة طوطح بالسكاكيني ، كان قديماً يحرس مرمى فريق ميمي عبد القوي بأرض الجميل ، وأطلق عليه أصدقاؤه اسم حارس مرمى المنتخب الألماني القديم ، لم يكر أبداً في السؤال عن اسمه الحقيقي ، له آراء في الحب والفن والحياة . . ومن أكثر مواقفه تكتلية إيمانه بأن الثورة في ٢٣ يوليو ما قامت إلا لأن الضباط وجدوا البرنسيسات ونساء الطبقة عسيا لا يجدن رجالاً حقيقيين يقومون على شؤونهن العاطفية ويلبون احتياجاتهن ، وأن هؤلاء الضباط إستكثروا على الشبان "البسكويت" الذين تربوا في السرايات أن يحوزوا كل هذه الأصناف الفاخرة من الملبن والقشطة والمهلبية ، فقرروا أن يقوموا بالثورة وأن يستولوا – إلى جانب الحكم – على هؤلاء النساء اللاتي كُن الهدف الحقيقي من الحركة المباركة .

عندما قابلته هذه المرة حاولت أن أختبر إخلاصه لأفكاره القديمة في هذا الشأن فأكد لي بيقين عقيدي أن التاريخ سوف يعيد نفسه وأن حركة مباركة أخرى في الطريق للإندلاع ، وذلك نتيجة وجود قوى عديدة "محتقنة" بالمجتمع تتلمظ وتستعد للإنقضاض على الساحل الشمالي من العجمي حتى السلوم لصيانة نساءه "الحلويات" ممن وصفهم شوماخر بالشباب "الحمضان" الذين ينعمون بما لا يستحقون من "المُزز" الفاخرة .

علق أحد الأصدقاء بأن شوماخر العنتبلي يتمثل المعتقد الشعبي الموروث عن المستعمر الأوروبي الذي طالما ظن أبناء الشعوب المحتلة أو أقنعوا أنفسهم بأن رجاله باردون ، وأن نساءه تتوق للتعرف على "البلدي الأصيل" .

ما رأيك يا عم شوماخر فيما يحدث هذه الأيام؟ قال : لاتحدثوني عن الإنتخابات ، فنحن نعلم أنها سواء رئاسية أو برلمانية كلها في "البكلويز" . . يعني تقول لي لجنة مرعي . . لجنة أبو الليل أقول لك في البكلويز ، تقول لي يعني ايه في البكلويز أقول لك يعني في الكلتش . سأله أحد الحضور : هل تقصد أنها . . . فبادره شوماخر : نعم أقصد أنها في الحمبلاظ!

قلت له : مفرداتك مُعبرة تماما وخصوصاً . . الحمبلاظ . أردف : هل تعلمون ما يؤلمني ويعذبني

هذه الأيام؟

قلنا : ماذا؟

قال : إنهم الشباب الذين صرعهم الولد القطري الصابع وأسكن الحسرة والألم في قلوب أهاليهم . . هل تريدون أن تعرفوا لماذا تركت الحكومة الشاب الرقيع يهرب بعد أن دهس مصر بسيارته وتركها تنزف على الرصيف؟

ـ نعم نريد أن نعرف . .

قال : حكومتنا وجدت بين أيديها صيداً ثميناً فساومت قطر وقالت لها : سيب وأنا اسيب . . . سنترك الولد يعود في الأمان وأنتم تقومون بتكتيف قناة الجزيرة بالحبال حتى لا تكشف جرائمنا في حق شعب مصر أمام العالم .

سألته : يعني حكامنا الحلوين وجدوا في هذه المأساة التي أوجعت قلب كل مصري فرصة ذهبية تمنحهم أوراقاً جيدة للتفاوض مع العدو القطري!

قال : بالضبط .

"منك لله يا شوماخر . . نكدت علينا يا بعيد" علت الهمهمات . فقال الرجل : دعكم من حديث الكوارث والمصائب ، سأحكي لكم عن آخر أعمالي ، سأله أحدنا : أعمالك الأدبية؟ قال : لا . . أعمالي السفلية التي يعجز الجن عن الإتيان بها . . أنتم تعرفون طبعاً أنني أمتلك حارة بإسمي وضعت على بابها لافتة معدنية تقول : حارة شوماخر العتبلي في منطقة المطبعة بدار السلام . . عندما انتقلت إلى المرج حيث أسكن الآن وجدت الأمر لا يختلف ، أرض زراعية صعدت بها الأبنية الإسمنتية ، وأصحاب البيوت يطلقون اسماءهم على الشوارع التي ظهرت فجأة . . كانت المسألة هي من يضع يده أو يدق لافتته أولاً ، ذهبت إلى محسن الخطاط وكتب لي لافتتين من الصاج وضعتهما على أول الحارة وآخرها ، وبعد فترة امتدت أحلامي إلى الشارع الذي تقع على ناصيته حارتنا وكانت تتصدره لافتة كُتب عليها "شارع زعتر قاسم" ولما كان زعتر قاسم هذا مجرد بواب تحول إلى مقاول يملك عدة بيوت في الشارع فقد وجدت أن إسمي أكثر واقعية وتأثيراً ، فجهزتُ لافتتين وضعتهما مكان القديمتين ، وعندما غضب زعتر صالحته بتمسيرة من الصنف العالي ، وأنوي في خطوتي القادمة أن أخرج إلى الشارع العمومي . . انزع لافتاته وأضع لافتاتي بهدوء .

قال صديق لنا: وهل المسألة بهذه البساطة؟ أي واحد ينزع إسم الشارع ويضع لافتة باسمه ثم تتحول إلى أمر واقع.. أين تظننا نعيش؟ تغير وجه شوماخر وقال: هل تظنني أكذب يا أستاذ؟ أقسم لكم بصدق ما أقول، وتعالوا لتروا بأنفسكم، إن مصر هي بلد الحريات.. أي إنسان يستطيع أن يفعل أي شيء.. الجميع في غيبوبة، وإذا انتبه لك أحد بالمصادفة سواء مخبر أو من البلدية أو من السكان يمكنك أن تمنحه تعميرة، أو ثلاث برايز على الأكثر.. ثم استطرد.. سأقول لكم سراً لم أكن أنوي التصريح به الآن: إنني أضع خطة على مراحل للتوغل في المدينة، وليس صعباً أبدا أن ترصدوا معدل سريان الغيبوبة وملاحظة آثارها بين الناس، و في غضون عدة سنوات سنكون قد وصلنا لأزهي عصور الرز بلبن، وأستطيع أن أضمن لكم أن المرء إذا صفع أحدا على قفاه في الشارع فلن يلتفت حتي بداعي الفضول ليري من ضربه، في هذه الأثناء سأكون قد وصلت إلى شارع رمسيس وسمرت حوائطه بإسمي، ثم سأقتحم التاريخ بعبور ميدان عبد المنعم رياض والوصول للمجد في ميدان التحرير وسترون الميدان الشهير ـ لو أحيانا ربنا ـ وقد تحول إلى ميدان شوماخر المتبلي "التحرير سابقاً".

في الليلة الظلماء يُفتقد البشبوري

في عام ٩٠ وبينما الاستعدادات تجري على قدم وساق من أجل تدمير العراق بعد غزوه الكويت أرسل الرئيس مبارك حوالي ٣٥ نداء للرئيس صدام حسين يطلب منه أن يستجيب لصوت العقل ويسحب قواته حتى يتجنب المصير الذي أُعد له، غير أنه أبى واستكبر. في الوقت نفسه قام عدد من الزعماء العرب بإرسال كما هائلا من الرسائل والنداءات للرئيس العراقي تحمل نفس المعنى وتنذر الرجل بسوء العاقبة.

في ذلك الوقت وفي خضم المعمعة لم يتنبه أحد للنداءات التي أطلقها ابراهيم البشبوري والتي بلغ عددها المائة واربعون نداء لحاكم العراق وكانت تحمل كل أنواع الترغيب والترهيب والإغراء والوعيد من أجل إنقاذ العراق وشعبه من الدمار.

كان أشد ما أحزن البشبوري وآلمه أن وسائل الإعلام من صحف ومجلات وقنوات راديو وتليفزيون وقد أفردت لنداءات الزعماء العرب مساحات كبيرة.. لم تعط لنداءاته ما تستحق من اهتمام وتقدير، بالرغم من أنه -على حد قوله- قام بجهد عشرة زعماء عرب على الأقل!.

و ابراهيم البشبوري لمن لا يعرفه هو رجل صناعة قديم، كان يقوم بتصنيع المفتقة وتعبئتها في برطمانات وصفائح من داخل غرفته التي يسكنها بحارة" صاري جُلة" في باب الشعرية منذ عشرات السنين، ولئن كانت صناعته وتجارته قد كسدت في السنوات الأخيرة فإنه قد ظل على ولائه للمهنة حتى في ظل تحذير الشباب العابث له من أن معمله موضوع على جدول الخصخصة وأن محمود محيي الدين يتلمظ في انتظار الوقت المناسب للتنفيذ، فلما أخبرهم أن معمله للمفتقة هو قطاع خاص بالفعل فكيف تتم خصخصته.. لم يجبه أحد!

حكي لي عم ابراهيم - وكنت أقصده من وقت لأخر للإئتناس برأيه - أن زبائنه القدامي كانوا من الأكابر وعلية القوم لدرجة أن الملك كامل لم يكن يأكل المفتقة إلا من يديه.. لم أشأ طبعا أن أسأل عمن يكون الملك كامل لأنني خشيت أن يسؤوني الأمر إن ما بدا لي، لكني توجست أن تصل المعلومات للأستاذ ممتاز القط الذي يتصور أن الملوك والرؤساء يصعب عليهم تسقية رغيفين في الملوخية.. فماذا لو علم أن الرجل ينسب للملك كامل أنه يفطر مفتقة.. إذن لربما سلط عليه من لا يخاف الله ولا يرحم البشبوري!

في زيارتي الأخيرة له وجدته غارقاً في الحزن والاكتئاب وقد التف حوله شباب المنطقة يطلبون منه أن يعود لسالف مجده السياسي ويقوم بارسال نداءات بمناسبة العدوان الاسرائيلي على لبنان، فلم يجدوا منه أدنى استعداد. . حاولت إغراءه بالقول بأن الزعماء العرب هذه المرة لم يتوجهوا بنداءات، وبالتالي فالملعب خال وقد يكون هو اللاعب الوحيد. . فلم يتحمس وقال لي أن هذه الحرب لا تعجبه. . لماذا يا عم ابراهيم؟ هل بسبب الوحشية الشديدة وعدد القتلى من الأطفال؟ فأجاب ليس هذا فقط وإنما أيضا لغياب البُعد الكوميدي والروح الفكاهية

ثم استطرد: هل نسيتم حرب الخليج الثانية عندم كان يظهر علينا كل نصف ساعة العقيد أحمد الربيعان المتحدث الرسمي باسم التحالف لإذاعة بيان جديد عن العمليات؟ هل نسيتم كيف كان يضحكنا عندما يلقي بيانا يخلو من أي معلومات لأنه بالفعل لم يكن يعرف أي شيء، لكنه كان يظهر باعتباره الكفيل المعتمد لكل المراسلين وممثلي وسائل الإعلام في المملكة، ثم يحيلنا إلى الجنرال شوارتسكوف الذي لديه كل الأخبار. . أين هذا مما يحدث الان. . أصبحنا نري كاتيا ناصر وغسان بن جدو وعباس ناصر بأدائهم الجاد الخالي من الفكاهة. . ثم أردف: دعوني في حالي فقد أقسمت ألا أعود إلى السياسة.

لم أيأس من مداعبته فقلت له وما رأيك يا عم بشبوري في الموقف المصري من الأحداث؟ . . فغرق في الضحك الممزوج بالسعال وقال: الموقف المصري من أي شيء يمكن أن تعرفه إذاتوجهت إلى ميدان ابن سندر بالقاهرة، هناك ستري لافتة مكتوب عليها شارع سليم الأول، تجاورها لافتة للشارع الذي يليه مكتوب عليها شارع طومان باي. . قلت له: وماذا في هذا يا عم ابراهيم؟ فأجاب في حدة: يا بني إن سليم الأول هذا هو الذي قتل طومان باي وعلق جثته على باب زويلة لتنهشها الطيور، وهذا لا يختلف عن أن تُسمي شارعا باسم الإمام الحسين والشارع المجاور له باسم قاتله يزيد بن معاوية أو أن تسمي ميدانا باسم حسن نصر الله وبجواره ميدان ايهود أولمرت. .فهمت يا أستاذ؟ إن الموقف المصري هو ان القاتل حلو والقتيل حلو، وانا حلو وانت حلو!

انتحي بي أحد الحضور وقال لي: أراك ميالا لهذا الرجل وتأخذ كلامه بجدية. . إني أحذرك. . هذا رجل مخرف، ونداءاته التي كان يرسلها للزعماء. . هل تعلم أي وسيط إعلامي كان يستخدمه في إيصالها؟ لقد كان يمسك بكوز مخروم مربوط في دوبارة طويلة ويتحدث بصوت عال موجها نداءاته ورسائله. فضحكت قائلا: أظن أن ابراهيم البشبوري واع تماما لما يفعل، ورسائله هذه كانت موجهة لكم انتم وليس لأحد آخر. . ومعناها أن ما يفعله هو نفس ما يفعله الحكام العرب وكله في النهاية. . في الهجايص!

قالت لي السمراء: "اسقيني مانجة"

كان الرئيس السادات رحمه الله يحب أن ينسب كل شيء على أرض مصر لنفسه باعتباره صاحب البلد وما عليها من إنس وطير وشجر وزواحف الخ. فكان يقول شعبي وجيشي وبحر كتي وقضيتي وصحافتي. وكنت ألمح نفسي معجباً بأسلوبه ومتمنياً أن يصير عندي أشياء حلوة أباهي بها مثله. وكان مما أجج رغبتي هذه أن صحفياً كبيراً هو الاستاذ سمير رجب_ وكان رئيسا لمؤسسة دار التحرير_ قد سار على الدرب نفسه فأنشأ عدة صحف ومجلات تحمل أسماء محبتي وعقيدتي وحريتي لأنه على ما يبدو أراد أن يشاركه القراء بعض أشيائه الخاصة، ويقال أن مشروعات أخري كانت في الطريق لصحف ومجلات جديدة هي ولاعتي ومحفظتي وفانلتي، لكنها لم تر النور بعد خروج الاستاذ رجب، ومع ذلك فالناس ما زالت تأمل من خلال تواصل الأجيال أن يكمل الأستاذ محمد على ابراهيم البرنامج الطموح للأشياء.

وعن نفسي وبعد تجربة لا بأس بها في الحياة لو أني أملك فرصة إصدار صحيفة أو مجلة لما ترددت في أن أسميها بأسماء أُحبها منسوبة إلى شخصي، وأود أن أحدثكم عن بعض هذه الأسماء ومنها على سبيل المثال صفيحتي، وقد كان لها دوراً في اسعادي لفترة من حياتي.. كانت صفيحة في الأصل تحوي سمناً ماركة الميزان. عندما فرغ منها السمن أخذتها واستخدمتها كخزانة حفظ أدواتي المدرسية ولتخبئة المصاصة والعسلية من إخوتي، وبعد أن قضيت منها وطراً زهدتها بعد استخدامها كوعاء للزبالة. كان ذلك قبل اختراع الأكياس السوداء الشهيرة التي شجعت على قتل الأزواج وتقطيعهم وونعبئتهم.

كانت صفيحة الزبالة لا تسمح بكل ذلك، ولهذا لم نسمع في تلك الفترة عن إمرأة قتلت زوجها، وهذه بكل أسف حقيقة وليست نكتة! لهذا تراني أحمل للصفيحة ذكريات طيبة، كما أذكر أن جارنا وهو صاحب البيت في نفس الوقت كان يحب أن يمد يده ويفتش في صفيحتنا ويستخرج أحشاءها ويتفحصها ثم يعيدها مرة أخري.. وهي متعة افتقدها الرجل بعد ظهور الأكياس المربوطة. آه.. سُقياً لذلك العهد.

جرفني الحنين إلى صفيحتي وأنساني أهم وأروع ما أنوي الكتابة عنه.. عزيزتي، الحب الأول في حياتي. كانت عزيزة هي أجمل فتيات الحي وصاحبة السمّانة المخروطة، بقوامها الملفوف وانعطافات جسمها وبشرتها الناعمة وملامحها السمراء الدقيقة، كانت تخطف القلوب ومن بينها

قلبي وأنا بعد طالباً بالمدرسة الثانوية . كنت أسهر أدوّن محاولاتي الأولى في الشعر وعيناها الجميلتان تملآن مخيلتي ، وعندما ألتقيها بالنهار كنت أقرأ عليها ما كتبت ونحن نقطع شوارع العباسية والظاهر .

كانت أشعاري تضعها في حالة وجد شغيف لدرجة أنها كانت تدخل بيتها يومياً دامعة العينين من فرط التأثر . ولا أنسى أبداً أنها حاولت أن ترد بعض جمايلي الشعرية فأسمعتني قصيدة حب كتبتها عني ، وكان مما قالت : أحلف بيمين الله . . ما عمري قلت الآه ، ولا قاسيت الوي . عيونك الحلوة . . رمتني ع الشكوي ، شكيت لأهل الحي . فلما انتهت سألتها : عيوني أنا؟ قالت : عيونك يا حبيبي ، فقلت لها وأنا خجل : لكن هذه الغنوة من شعر صالح جودت ، قالت لي : يعني أنا كذابة؟ قلت لها : لأ صالح جودت هو اللي كذاب يا عزيزة!

لم تؤثر محاولتها الكاذبة في نسب شعر لم تكتبه إلى نفسها على علاقتي بها أو حبي لها وعزوت الأمر إلى فرط المحبة والرغبة في إسعادي ، لكن الذي أثّر بشدة لدرجة أن وضع نهاية لقصة حبنا الخالدة هو الموقف التالي : كنا نسير متشابكي الأيدي نغني ونضحك عندما مررنا بجوار محل جنة فواكه العباسية ، ووجدتها لدهشتي تقف وتتسمر في الأرض وتقول لي : اسقيني مانجة ، قلت لها : استهدي بالله يا عزيزة ، فردت بإصرار أشد : اسقيني شوب مانجة ، حاولت أن أشرح لها أن الخمسة تعريفة في جيبي هم ثمن سيجارتين كليوباترا ستهمان بعد أن تعمّرا الجمجمة في كتابة أشعار جميلة عنها سيحفظها التاريخ ، فما كان منها إلا أن صفعتني بجملة كنت أسمعها للمرة الأولى ، وإن كنت قد عشت لأسمعها بعد ٣٠ سنة منسوبة لقائد كبير : " أنا لا عاوزة أدخل التاريخ ولا الجغرافيا " !

كانت الصدمة أكبر مما يمكنني احتماله ، الفتاة التي أهواها لا تلقي بالاً إلى التاريخ الذي سيحفظ قصتنا وتؤثر عليه شوب مانجة! ثم بفرض أنني تهورتُ اليوم وسقيتها مانجة فماذا عساني صانع غداً بعد أن نعتاد ذلك؟ هل أنحرف من أجل تلبية طلباتها التي قد تتصاعد إلى درجة لا يمكن التنبؤ بها . في محاولة أخيرة يائسة لإنقاذ حبنا قلت لها متضرعاً : عزيزة . . مستعد أسقيك عصير قصب ومن ثم يتبقى لي ثمن سيجارة واحدة . . ما قولك؟ قالت بلهجة آمرة : قلت لك اسقيني مانجة .

ناولتها كوب المانجو ووقفت أرقبها وهي ترتشفه في سعادة ومع كل رشفة كانت محبتها تتسرب من داخلي ، وعندما أعادت إلى الكوب فارغاً كان الحب قد رحل إلى غير عودة .

كلابظات السيد العميد!

طالعت بالمصري اليوم منذ بضعة أيام خبراً غريباً أشد الغرابة تصدّر الصفحة الأولي. كان خبر المنشور بالصور يحكي عن عميد كلية العلوم بجامعة طنطا وكيف أنه على مرأي من الجميع داخل مدرج مكتظ بالطلبة قام بتسديد مجموعة من اللكمات إلى أحد أبنائه الطلاب لأن الأخير دعا زملاءه إلى رفض زيادة الرسوم الجامعية! فركت عيني غير مصدق، ثم نحيت الجريدة جانباً وأمسكت بجريدة أخري وجدت بها نفس الخبر بنفس التفاصيل والصور للسيد العميد والسيد وكيل الكلية وكلا منهما يمسك بتلابيب الفتي ويكيل له اللكمات طبقاً لرواية الطالب المضروب وزملائه المذهولين.

استرجعت سنوات الدراسة الجامعية وعلاقتنا بعميد كلية الإعلام، فلم أتذكر أبداً أن الدكتور عبد الملك عودة أو الدكتور خليل صابات قد قام أيا منهما بتوجيه لكماته نحونا. حتي الدكتور على الدين هلال الذي قام في السنوات الأخيرة بلكم مصر في أنفها لم يحدث أبداً أن ضربنا بالبوكس.

اتصلت بأحد أصدقائي وهو استاذ جامعي لأسأله إذا كان ضرب " البونيّات" مقرراً هذا العام أو إذا كان عليه أعمال سنة؟.. لم يفهم الرجل سؤالي وطلب الإيضاح، فبينت له أنني أقصد اللكمات أو اللُكميات أو الضرب بقبضة اليد، فأجاب الأستاذ الصديق بالنفي. وهو ما وضعني في حيرة شديدة فلم أعرف ماذا أفعل لأستجلي الأمر. ثم فتح الله على وتذكرت خبير البونيات المتقاعد الكابتن" كنعان" مدرب الملاكمة السابق بمركز شباب "علوة مدين" وهو الرجل الذي إذا غضب كان الأهالي ينامون من المغرب فرقاً ورعباً، وكانت مستشفي سيد جلال المجاورة تعمل بكامل طاقتها عندما يكون كنعان في حالة نشاط زائد. إذ كانت لكماته تشكل تحدياً داخل غرفة العمليات!

نزلت بسرعة للقائه حتي أستفيد من علمه الواسع في تحليل الحدث. ووجدته كما توقعت على القهوة في الطشطوشي. بادرته بدون مقدمات: قل لي يا كابتن.. هناك عميد بإحدي الكليات ضرب طالباً بالبوكس وسدد له لكمات صاروخية وقد نشرت الجرائد الواقعة معززة بالصور، والناس في البيوت حائرون، يتساءلون في جنون.. عميد علوم طنطا من يكون؟

سحب كنعان نفسين عميقين من البوري وزفر زفرة حارة وهو ينظر إلى السماء وقال: لا يعرف الشوق إلا من يكابده. قلت له: أي شوق يا كنعان. . الولد هوجم على حين غرة بدفعة من اللكمات في وجهه وكل أنحاء جسمه وانت تحدثني عن الشوق! سألني في جدية صارمة: مجموعة اللكمات التي تتحدث عنها. . هل كان من بينها شمال خطافيّة؟ قلت له: أظن وإن كنت غير متأكد، قال: هل كانت هناك يمين مستقيمة أو كانت هناك واحدة ستوماك؟ أجبت: والله أنا لم أشهد الواقعة ولكن الجرائد تحدثت عن عدد لا بأس به من الضربات الساحقة، قال كنعان: المباراة كانت من كم جولة؟ رددت في ذهول: أي مباراة؟ أنا أحدثك عن. . .

قاطعني في حدة: هذا هو ما أعنيه بأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده. . هذا الرجل كان ملاكماً سابقاً يا أستاذ، وقد تقطعت به سبل الحصول على مباريات حقيقية وأراهن أن خبطته من الممكن أن يحتار فيها الطب! ثم أضاف: بعد اعتزالي التدريب كنت أخرج إلى الشارع ألتمس أي خناقة أطلق فيها ذراعيّ من عقالهما وأسري عن عضلاتي التعيسة، ولم يكن يسعدني سوى الحصول على خصم من نفس وزني وأحياناً اثنين أو ثلاثة، وكنت أتمتع معهم لمدة نصف ساعة على الأقل. سألته في فزع: كيف كنت تتمتع معهم؟

قال: الأنين الذي يعقب كسر الفك كان يمنحني متعة صافية، ورؤية الوجه مغطى بالدماء المتفجرة من المسام كان يغسل أشواقي ويمنحني السكينة والصفاء. غمغمت وأنا أنظر إلى عينيه المسبلتين ووجهه المتشي: يا وعدي على المتعة! . . لكن إذا كان توقعك صحيحاً عن أن سيادة العميد كان يمارس رياضة الملاكمة في السابق، وأن ما حدث لم يكن أكثر من محاولة للحفاظ على حساسية الملاعب فلماذا صرح سيادته لجريدة الدستور بما نصه: " أنا لا أعتقد أنني ضربت الطالب" أجاب كنعان في حماس: لانه فعلا لا يعتقد أنه ضرب أحداً. . الأمر كان مجرد سباراة. . صحيح كانت من طرف واحد ولكنها على الأقل خير من التدريب على كيس الرمل! ثم خبط كنعان جبهته كمن تذكر شيئا وسألني في لهفة: هل كان سيادة العميد يرتدي الكلابظات؟

(الكلابظات هي القفازات التي يرتديها الملاكمون وهي مأخوذة من كلمة **Gloves** الانجليزية وجمعها جلفزات ثم جرى تحريفها على لسان العامة وصارت كلابظات)

قلت: والله يا كنعان لقد أخذتني في سكة بعيدة تماماً عما كنت أعتقد وأدخلتني في متاهة، إن الصور المنشورة لا توضح هذا الأمر. وعليّ أن أعود إلى شهود الواقعة لأسألهم عن موضوع

المخالفات . قال : أرجوك بسرعة يا أستاذ لأن هذا الأمر على قدر كبير من الأهمية ، ذلك أن ... الفتي بالقبضة العارية يجعل الماتش غير قانوني ويلغي النتيجة من سجلات الاتحاد وقد يهدد ... النتائج السابقة وسحب الميداليات والكؤوس ويهبط بما حدث أمام الطلبة إلى مستوي ... البلدي .

... المقهي وأنا أشعر بالرضي ، فقد عثرت على حل اللغز . . و لا يهم في شيء موضوع ... هذا ، فحتي لو قام الاتحاد بشطب النتيجة فيكفي أن سيادة العميد قد حقق الانسلاخ ... وحي ونال المتعة التي حكي عنها الكابتن كنعان مدرب علوة مدين السابق .

شارع هيام

كنت بالإسكندرية الأسبوع الماضي عندما قرأت بصحيفة الدستور بتاريخ ٣١ أغسطس خبراً يقول : حي شرق الاسكندرية يطلق اسم الراقصة هيام على شارع بجوار كوبري استانلي . وقد نقلت الجريدة استنكار رموز الشارع السكندري لهذا الإجراء على أساس أن الراقصة والممثلة هيام ليست سكندرية المنشأ ، بالإضافة إلى أنها لم تسهم في أي دور سياسياً كان أو اجتماعياً في الحياة السكندرية . فكيف يتم وضع اسمها على الشارع؟

كان الأمر سهلاً بالنسبة لي للتحقق من صحة الخبر ، فأخذت سيارتي وانطلقت في اتجاه الكورنيش ووصلت للمنطقة وشاهدت الشارع تزينه اللافتة كما نشرت الدستور صورتها تماماً . وعلي عكس ما قد يتصور البعض فإنني لم أشعر بأي انزعاج أو استنكار لإطلاق اسم هيام على الشارع ، فمدينة الاسكندرية تعج بأسماء شوارع لم يكن صاحب أي منها سكندري الأصل أو المنشأ مثل " صريع الغواني " الذي لم يذهب للاسكندرية أبداً حتي صرعته الغواني فتم تخليده على يد المجلس المحلي .

علاوة على هذا فإن شوارعنا في الاسكندرية وفي غيرها من المدن تمتلئ حتي الثمالة بأسماء طغاة وأسماء جبابرة ورجال حكم وساسة من كل صنف ونوع ، بعضهم كان في أحسن الأحوال شخصية تافهة لا تمتلك أي ميزة سوي شغل مقعد وزاري في غفلة من الأيام ، وبعضهم ارتكب جرائم ضد الانسانية و كان أشد عداء للمصريين من الهكسوس !

و من يتابع أسماء الشوارع بنظرة متعمقة لا بد سيدرك أن أسماء الشخصيات التي تقترن في أذهان المصريين بالحب والاحترام هي قليلة للغاية ، فضلا عن أن الفانتازيا كانت دوما ملمحاً مميزاً لأسماء شوارعنا ، فشارع بإسم العيش والملح لا يعني سوي رضي المصريين التاريخي بالفقر ، وشارع "حزقيال" لا مدلول له سوي الرغبة في العبث ، أما شارع السكر والليمون فإنه لا يمثل سوي مكونات عجينة لنزع الشعر !

لهذا كله فإن اطلاق اسم هيام الرقاصة على شارع بالاسكندرية لا يعد اختياراً كارثياً ، فالإسم لا يستدعي للذهن أي ذكريات أليمة كأسماء رموز الاحتلال الانجليزي والفرنسي وأسماء عملائهم من المصريين ، أو أسماء المماليك القدامي والجدد . غير أن سؤالاً خطر ببالي وأنا أناقش مع نفسي موضوع شارع هيام وهو ما الذي جعل الناس تتصور أن هيام تلك هي نفسها هيام

الراقصة؟ من أدراهم أنها قد تكون نوعاً آخر من الهيانم؟ وعندما قمت باستعراض تاريخ الاسكندرية ورائدات العمل العام بها ممن حملن اسم هيانم لم أجد سوي اثنتين فقط سمعت عنهما ولم أتشرف باللقاء المباشر .

الأولي هي "هيانم الهبو" وكانت من أكبر تجار الصنف بالمدينة ، ويعرفها كل عشاق الثغر ممن اغتنوا بالأمر المحال وهو الحصول على قطعة غير مضروبة ، وقد اكتسبت الست هيانم سمعتها الطيبة من كونها لم تغش أبداً ولم تفعل مثل غيرها من الذين كانوا يخلطون البضاعة بالحنّاء واللبان الدكر ، وأذكر أنني أيام الدراسة قد ذهبت بصحبة صديق سكندري من الغاوين ، و صعدت معه على جبل من الزبالة خلف السكة الحديد بالعصافرة وشاهدت الزبائن يقفون في طابور أقسم أنني لم أشهد لانتظامه مثيلاً في مصر طوال حياتي وكان ينتهي عند كوة في الجدار تمتد منها يد نسائية تتدلي منها الغوايش الذهبية ، وكانت تأخذ الفلوس من الزبائن وتمنحهم طلباتهم في ورق سولوفان ، وصك سمعي للمرة الأولي مصطلحات مثل غُبارة ، وبيروت ، وزبت . . و هي أسماء أفضل الأنواع في ذلك الوقت . فهل يا تري هيانم الهبو هي صاحبة الشارع المذكور؟ وهل يا تري ما زال حي شرق يذكر أفضالها وأمانتها في التجارة ونثر الهبو على شواطىء المدينة؟ . . . لا أدري؟

أما هيانم الأخري فهي هيانم الدبناري سيدة الأعمال السفلية ، نجمة المجتمع السكندري لسنوات طويلة وصاحبة أفخم موائد الرحمن . . و قد كان اسمها الأصلي هو "هيانم شنتوح" وأبوها كان شنتوح القواد الذي ورث المهنة عن والده شنتوح الكبير . قامت هيانم بتطوير الأداء وصعدت لفوق مع زبائنها الكبار ، وتخلصت من لقب شنتوح الذي لازمها منذ خرجت للحياة في جبل ناعسة ، ونسبت نفسها للدبناري باشا صاحب محالج الأقطان الشهير . . و يزعم بعض زبائنها القدامي أن لقب الدبناري قد التصق بها عندما كانت لا تقبل التعامل سوي بالدينار . . و الدينار وحده . ويذكرون أيضاً أن أحد الزبائن أرادأن يتذاكي و دفع لها يوماً بالدينار التونسي فما كان منها إلا أن جعلته عبرة للمستظرفين ، وأعلنت أن دينار جنوب المتوسط سواء الجزائري أو التونسي غير مقبول لديها ، وأن الدينار المعتمد هو دينار غرب المحيط الهندي وبحر العرب الذي يتم فكه بعشرين!

فهل يا تري هيانم هانم الدبناري ابنة الريس شنتوح هي المقصودة بشارع هيانم؟ أعتقد أن الإجابة عند المسؤولين بمحافظة الاسكندرية الذين عليهم أن يتحلوا بالشجاعة ويعلنوا أن الفنانة هيانم هي صاحبة الشارع ، حتي لا يظن الناس أن هيانم الهبو أو هيانم شنتوح هي المقصودة.

وعليهم أيضاً أن يعلنوا برنامجهم للمرحلة المقبلة والذي قد يعيد الاعتبار للفن كقيمة في حياتنا خصة إذا تضمن البرنامج أسماء مثل قطقوطة ونيللي مظلوم وكيتي وسوزي خيري وصولا حتى دينا التي أمتعتنا العام قبل الماضي بالكليبات المصورة التي ارتفعت فيها بالأداء إلى ذري غير مسبوقة، لهذا فقد شاهدها العالم كله، حتى أن نسخة قد وصلتني حيث كنت أعيش بالقطب الشمالي في كندا!

ممدوح مونتجومري..رمزاً لمصر الصامدة

خطر بخاطري السؤال التالي : هل خلت مصر في وقتنا الحاضر من الرموز؟ أم أن مصر التي ظلت على الدوام ولادة، لم تعقم وما زالت تزخر بالقمم الشامخة في كل المجالات؟

حضرت ببالي أسماء لأشخاص محترمين أظهروا شجاعة وتجرداً في وجه الفيلان والديناصورات مثل يحيي الزيني ويحيي حسين عبد الهادي، هشام البسطويسي وزكريا عبد العزيز ، لكني مع هذا حبذت أن أستعين بصديق في مناقشة هذا الأمر فذهبت إلى قهوة كوكو في الهضبة الوسطي بالمقطم لألتقي بواحد من أعز أصدقائي وأقربهم إلى قلبي ، ذلك هو ممدوح مونتجومري زميل الدراسة القديم الذي كنا نعتبره أكثرنا ذكاء ومهارة وقدرة على التخطيط والحسم فأسميناه مونتجومري وتنبأنا أنه سيكون قائداً لأي مكان يذهب اليه ، ويشاء القدر أن يموت والده فلا يكمل دراسته ويعمل بالثانوية العامة لفترة ، ثم يستصلح أرضاً وعندما تبدأ في العطاء يستولي عليها الموظفون بحجة أن أوراقه كانت ناقصة دمغة! ثم يبدأ من جديد ويدخر قرشين يضعهم بشركة توظيف أموال ، يتعاون الرجل الملتحي والحكومة الحليقة في الاستيلاء على فلوسه ، ثم يمنحونه عشرة بالمائة من مدخراته على شكل صابون ومكرونة ، فيجلس على الرصيف ليبيعهم فيباغته أمناء الشرطة في حملة للبلدية ويصادرون البضاعة . . ويبدأ من جديد للمرة العاشرة ، ويتمكن بعد عذاب من شراء توك توك يعمل عليه الآن على خط المفارق- صبحي حسين بالمقطم ، وكل أمله أن يتمكن من الزواج من حبيبته سحر . . حسناء مساكن الزلزال .

وجدته على القهوة يجلس مع زملائه سائقي التوك توك بالمنطقة وأغلبهم مؤهلات عليا . طرحته بسؤالي عن الرموز في حياتنا الحالية وهل حقاً عقمت مصر؟ ففوجئت بأحد زملائه يسرع بالإجابة : ليتها عقمت! إن مصر لم تعقم يا أستاذ ، لكنها حملت سفاحاً من الشيطان وأنجبت كل أولاد الحرام الذين عذبونا والحقوا مصر بمملكة جهنم . . ثم أعقب إجابته بضحكة مجلجلة . سألت ممدوح : وأنت يا مونتجومري هل تؤيد صاحبك في رأيه؟ فشد نفسين من الشيشة وقال : لا . . أنا أعتقد أن مصر مليئة بالرموز في كل المجالات . . أنظر إلى حياتنا وأنت تتأكد مما أقول .

فقلت له مندهشاً : مثل من؟ قال : عندك مثلاً وزير التعليم بسيوني الجمل ، الرجل صاحب الكادر . . هل تعرف الكادر؟ قلت له : سمعت عنه . قال : الوزير وضع نفسه في الكادر ، وهو

ليس الكادر الذي ينتظره المدرسون ، إنه الكادر الذي ورد ذكره في أغنية " كانش كادر في الألولو " لقد وضع الرجل يده على قطعة في الألولو ، وعندما كانت الطفلة أميرة تلفظ أنفاسها تحت شمس قنا الرهيبة وهي تقف في انتظار الأخ بسيوني لم تكن تعرف أن سيادته يجهل عذابها وهو جالس في الألولو المكيف . ثم أردف مونتجومري : هل تريد نموذجاً آخر من الرموز .

قلت هل كل رموزك بهذا الشكل؟ وهنا تدخل أحد الجالسين واقترح رمزاً آخر : عندك مثلاً الأستاذ عبد السميع الذي أصبح مؤلف مسلسلات يشتريها التليفزيون في الحال . سألته : عبد السميع من؟ فقال : عبد السميع شاهين . . حفيد شاهين بك الذي خدع الباب العالي في الآستانة وهرب من قضية تحرش ثم تزوج من ياسمينة بعد أن ألقي بحسن الهلالي في السجن . قلت له عم تتحدث؟ فرد سائق آخر : لا يا أستاذ . . إنه يقصد عبد السميع بدران حفيد بدران رئيس الشرطة الذي حبس أخاه عبد الجليل في قبو مظلم وأرسل حسن الهلالي إلى معتقل المغول . . و انفجر الجميع في الضحك .

قلت لممدوح : أنا لا أدري إن كان كلامكم جد أم هزار ، فأجاب وهو ينظر للأفق : جد وحياة غلاوتك . . هذه هي الرموز في حياتنا ، وهناك المزيد ، عندك مثلاً الدكتور صاحب فتوى إرضاع الشحط . . لقد صار الرجل رمزاً بعد أن حل مشكلة أرقت العالم الإسلامي وأقضت مضجعه ، لكننا مع هذا ما زلنا في انتظار المذكرة التفسيرية للفتوى التي تتضمن الإجابة على تساؤلات الجمهور ، مثل هل من حق المدير أن يرضع أولاً قبل صغار الموظفين ، ومثل الموظف الذي أخذ ثلاث رضعات فقط . . هل من حقه أن يحضر أخيه لتناول الرضعتين الباقيتين أم يأخذ بالباقي كبريت؟! ثم انفجروا في الضحك من جديد .

و بادرني أحدهم : وانت يا استاذ أليس في ذهنك أحد الرموز؟ قلت له : لو سرت على منوالكم لعددت مئات الرموز وليس آخرهم الشيخ صاحب حكاية البول المقدس الذي حكي للناس أنه شاهد الرسول في حلم يقظة . . هذا الرجل أيضاً من رموز المرحلة ، وهو يذكرني بشيخ الأزهر السابق الذي دخل معه الأستاذ أحمد بهاء الدين في مساجلة عنيفة منذ سنوات عندما كتب الرجل أن من ضمن الأشياء التي لا تفطر في نهار رمضان الطين الأرمني وبزاق الصديق!! وقتها كاد الأستاذ بهاء أن يجن وهو يسأل عن معنى الطين الأرمني وما الفرق بينه وبين الطين المكسيكي وهل يأكل الانسان الطين حتي نتكر إذا كان يفطر أم لا يفطر . . واستطيع أن أقول أن شرايين مخ الأستاذ بهاء قد انفجرت لأنه كان يأخذ هؤلاء الناس بجدية ويرد عليهم ويناقشهم!

ـنهت السـهرة مع صديقي ورفاقه سائقي التوك توك وفي ذهني تصور جديد لمعني الرمز . . إن ــ.وح سوتجومـري هو ذاته رمز حقيقي لهذا الوطن، هو إنسان لم تمنحه مصر أي شيء، وكلما ـ بنـاء مستقبله حطمه الظالمون، ومع هذا لم يكفر بالوطن ولم يتخابر لحساب اسرائيل ولم يتعاط ــ نحو مـثل الملايين غيره، ولم يطلق لحيته ويرتدي جلباب أفغاني ولم ينضم للحزب الوطني ولم يكـسب قرشـاً مـن حـرام . . هذا هو الرمز إن أردنا أن نتحدث عن الرموز، فهل يوافقني القراء أم ـعتبرونني مجنوناً؟

عزت بلتكانة والذين خربشوا الكلام

جمعت جرائد الأسبوع الماضي التي فاتتني قراءتها نظراً لسفري، وخرجت من البيت في الصباح قاصداً مكاناً يتسم بالرومانسية حيث يمكنني تصفحها على مهل. وصلت إلى عربة الفول التي يقف بها عزت بلتكانة على مشارف الصحراء في آخر التجمع الأول. اكتملت الشاعرية بعد أن جهّز لي كرسياً وترابيزة في ظل شجرة وأحضر لي بنفسه طبق فول بالزيت الحار والخلطة وجلس معي يتصفح الجرائد.

كنت أعرف حبه للسياسة ومتابعته للأخبار. أشار إلى إحدى الصور وسألني بدهشة: أليست هذه صورة فؤاد الشامي بتاع عماد الدين؟ قلت له: من يكون فؤاد الشامي؟ أجاب: فؤاد الشامي الذي قتل امتثال زكي الرقاصة، قلت له يا عم بلتكانة هذه صورة الدكتور هاني هلال وزير التعليم العالي، قال: سبحان الله يخلق من الشبه أربعين ثم أردف: وكاتبين عنه ايه سي هلال؟ قلت له: أبداً كاتبين ان احدى أولياء الأمور ذهبت تقدم لابنتها في التنسيق الالكتروني للثانوية العامة وكادت تهلك من الحر وغلظة الموظفين وجهل رؤسائهم الأمر الذي حدا بها إلى الصياح في وجه الوزير قائلة: حرام اللي انتوا بتعملوه فينا ده، لا احنا عارفين ندخل على النت ولا احنا عارفين نسجل الرغبات ونكاد نهلك من الشمس. فما كان من الوزير إلا أن سخر منها قائلاً: "حنركب لك تكييف في الخيام". بادرني بلتكانة متشككاً: انت قلت لي ان ده وزير. أيوة يا سيدي وزير. يعني متأكد أنه مش فؤاد الشامي؟ أصل فؤاد الشامي كان بيرد على الناس بالشكل ده.. سبحان الله!

نظر عزت إلى صورة أخرى وقال: أما ده بقى فأنا عارفه لأنه بلدياتي.. ده أحمد أبو الغيط الوزير المتصيت، اللي حايرجع حق الأسرى اللي قتلتهم إسرائيل.. كاتبين عنه ايه؟ قلت له كاتبين كلام زي الفل. قال للأمريكيين بمناسبة أنهم انقصوا من المعونة مبلغ ٢٠٠ مليون جنيه: احذروا غضب المصريين لأن غضبهم وحش. سألني بلتكانة: وعهد الله قال لهم كدة؟ قلت له: آه والله.. أطلق الرجل ضحكة عالية وسحب في آخرها واحدة اسكندراني وقال: مش قلت لك ده راجل واعر وغويط.. حد غيره يقدر يأكّل الأمريكان الأونطة ويقنعهم أن هذا الشعب البليد عديم الاحساس غضبه وحش، بكرة الأمريكان يرجعوا المعونة ونشوف الجبنة الصفرا واللبن البودرة من

جديد . . الدبلوماسية الحقيقية يا أستاذ أساسها التهويش وفنجرة الحنك وضرب المطاوي في الهوا، عفارم يا أبو الغيط .

قلت له : وهل تظن ان امريكا ممكن تخاف من هذا التهويش؟ رد قائلاً : العيار اللي ما يصيبش يدوش . ولو أمريكا ما خافتش ممكن السعودية تخاف، ليبيا تخاف، الصومال تخاف، ماهو احنا لازم نخوّف حد . . قال هذا ثم مد يده إلى جريدة أخري تزينها صورة أحمد المغربي وزير الإسكان وقال اقرأ واشجيني . . ماذا قال هذا الرجل السعودي اللي كله بركة؟ قلت له هذا الرجل السعودي اللي كله بركة قال أنه لن يقلق حتي لو وصل سعر الأرض في القاهرة الجديدة إلى ٣٠ ألف جنيه، وقال أيضاً أن أزمة مياه الشرب سببها أن الماء يباع بسعر رخيص . . ما رأيك يا بلتكانة؟

قال : أنا أعرف عن هذا الرجل كل خير، هذا رجل لا يكذب ولا يخدع أحداً . . هل قال لكم من قبل انه مشغول بالبعد الاجتماعي ومحدودي الدخل . . هذا ملياردير سعودي له استثمارات في كل مكان . . لا هو رجل سياسة ولا هو يعرف شيئا عن حياة المصريين . لكن حظه الحلو جعل أصدقاءه يأتون به إلى المنصب . . أمانة ماحدش يزعل منه علشان ده راجل مبروك ودعوته مستجابة . قلت له وقد غاظني بروده : أنا لن أكمل قراءة الجرائد معك يا بلتكانة لأنك رجل مستفز ومثير للأعصاب، ألا تجد في أداء هؤلاء الوزراء وتصريحاتهم ما يدفع إلى الغضب والحنق . . كل ما يفعلونه مبرر لديك؟

رد بهدوء : وماذا يفيد الغضب ويفيد الحنق يا أستاذ . . إن هؤلاء الوزراء وغيرهم هم الذين خربشوا الكارت فكسبوا الوزارة . . هل تسمع عن الإعلانات التي تدعو الناس ليل نهار لخربشة الكارت؟ هل شاهدت الإعلان الذي يحكي عن رجل أنفق عمره في الكد والعمل حتي استطاع في النهاية أن يركب سيارة مرسيدس، بينما المحظوظ الذي خربش الكارت كسب نفس السيارة بدون أي مجهود . . هؤلاء المسؤولون خربشوا الكارت فطلعت لهم الوزارة، فلماذا تتوقع منهم أداء رفيعاً . . هل أنت الذي أوصلتهم للحكم حتي تحاسبهم على أدائهم؟ هذا هو زمن الكارت وزمن الخربشة . . ويا ويل اللي ما يعرفش يخربش !

١ تنسوا عمرانا !

ذهبت لزيارة صديقي الأستاذ عمران ، فوجدته يجلس منتشياً بجوار الكاسيت يستمع إلى بعض الأغاني الوطنية القديمة ، وأخبرني أن هذه الشرائط هي بهجة حياته . يكفي أنها تذكره بالزمن جميل ، زمن الأغاني التي ألهبت مشاعر الناس لأحلام الحرية والعدل والوحدة في الستينيات . ثم قفز من الستينيات إلى التسعينيات وقام بتشغيل أغنية " اللهم لا اعتراض " التي غناها عبد الله رويشد إبان حرب تحرير الكويت سنة ٩١ وصارحني باعتقاده أنها كانت عاملا أساسيا في تأليف الشعوب حول قضية الكويت العادلة .

اضطررت أن أكون صريحا معه وأخبرته أن كل أزماننا غبراء وأن الزمن الجميل الذي يتحدث عنه لا يوجد سوى في مخيلته المشوشة وقلت له انني على الرغم من ميلي العاطفي لأغاني الستينيات الوطنية التي مست قلبي منذ الطفولة ، إلا أن هذه الأغنيات قد ارتبطت في ذهني بأسوأ كارثة يمكن أن تحل بإنسان : تدمير وطنه . والأمر أشبه بحالة الإرتباط الشرطي عند " بافلوف " عندما كان يُسمع الحيوانات صوت الجرس ثم يقدم لها الطعام ، فيصبح صوت الجرس وحده بعد ذلك كفيلا بتنشيط الغدد اللعابية .

أليس هذا ما حدث؟ عبد الحليم يغني صورة ويا أهلا بالمعارك ويغني ولا يهمك يا ريس ، وبعدها تنتهك طائرات العدو سماءنا وتدمر طائراتنا على الأرض ، وتقصف منشآتنا وبيوتنا ومصانعنا ، ثم تتقدم دباباته وتجتاح أراضينا وتدفن جنودنا أحياء ثم تفرض علينا الهزيمة سريعة . . كل هذا بينما بلدنا على الترعة بتغسل شعرها ، في الوقت الذي كان يتوجب عليها أن تترك شعرها قليلاً وتتفرغ للمعركة !

لهذا فقد كان طبيعيا عندما اندلعت معارك حرب أكتوبر وبدأت الأغاني تتدفق أن يزداد همي . . و كان جمال أغنيات على الربابة لوردة ويا أول خطوة فوق أرضك يا سينا لمحمد رشدي داعيا لبث الرعب في قلبي من الكارثة التي اعتدت أنها تأتي تالية للأغاني الجميلة . ورغم أن الأداء البطولي الرائع للجندي المصري قد صدّر الكارثة هذه المرة للجانب الإسرائيلي فإنني لم أبرأ من مخاوفي .

بعد حرب أكتوبر تبدل الحال . . اختفت الأغاني الوطنية التي كانت تدفع بالأدرينالين في الدم وتجعل العروق تنتفض بالكبرياء ، وحلت محلها أغان سخيفة تشبه المرحلة تماماً . أغاني وطنية

"دايت" لا تثير في النفس سوي السخرية والرغبة في إطلاق الكلام "الأبيح" فسمعنا مطربين يغنون كلمات ركيكة لأغان تقول: مصر السادات، ويا حبيبنا يا سادات وأغنية أخري هزلية تقول: (ياللي حطّمت جميع النظريات) رغم أن النظريات كانت ولا تزال صحيحة وبحالها ولم تُصب بمجرد خدش!

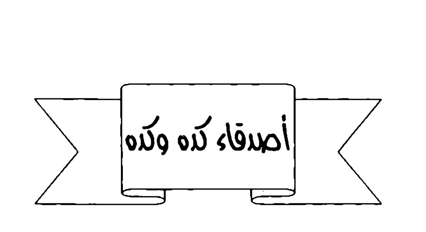
لكني أعترف بأن سخافة الغناء الوطني في هذه الفترة قد منحتني طمأنينة تشبه حالة الخراف وهي تأكل من الزبالة بين الخرائب حيث يسرح بها الراعي بعيدا عن المرعي الطبيعي الذي تأكل منه كل خراف الدنيا. وكان لمنع إذاعة الأغاني المرتبطة بالفترة الناصرية لمدة تزيد على عشر سنوات أثراً في تهدئة مخاوفي واستقراري على حالة الخروف التعيس.

أما حكاية صدام حسين وغزوه للكويت فقد أحدثت نقلة نوعية في دنيا الغناء الوطني، فنفس الأغنية التي كان يبثها راديو بغداد تتوعد الظالمين(الكويت واسرائيل والسعودية ومصر وأمريكا) كانت تذاع من راديو المملكة تتوعد الظالمين أيضاً (العراق وفلسطين والأردن واليمن)! وعندها تقدمت مصر الصفوف وأطلقت أغنية اللهم لا اعتراض التي كتبها عبد الرحمن الأبنودي وغناها عبد الله الرويشد وتم تصويرها في وجود فتيات ينتحبن ونساء كحّل السهاد جفونهن من أجل إضفاء مزيد من الأسي واللوعة والتعاطف بين المشاهدين. إلا أن الجمهور المصري أدرك بفطرته أننا جميعا نساق إلى المذبحة أيا تكون نتيجة الحرب التي أخذت تدق الأبواب بعنف.

و رغم الاصطناع الواضح في الأغنية وعدم خروجها من القلب (قلب الأبنودي على الأقل) ورغم تعامل المصريين معها باستخفاف. . إذ بينما يغني الرويشد: (أنا في وادي يا ربي وولادي في واد) فقد كان المصريون يرددون: (أنا في ومبي يا ربي ومعايا الولاد، واللهم لا اعتراض) في إشارة إلى انتشار اللاجئين الكويتيين في ذلك الوقت في مطاعم ومبي وكنتاكي. . على الرغم من هذا فقد ذكرتني بأغاني ٦٧ التي سبقت الكارثة. . ولم يخب ظني، فقد تم تدمير العراق ودخلنا جميعا في نفق مظلم لا ندري كيف الخروج منه حتي الآن.

الأمر الطريف الذي أعقب الحرب هو إعلان الكويت وجود أسري يقدرون بالمئات لدي الجانب العراقي، وظل الكويتيون على مدي ١٢ سنة يرفعون شعار: "لا تنسوا أسرانا"، ولم يتخلوا عنه إلا بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ وانكشاف أنه لا أسري ولا يحزنون!

كل هذا ذكّرت به صديقي عمران، لكنه بعناده المعهود لم يكترث لما ما قلت، وإمعاناً في إغاظتي فقد أخبرني بنيّته التقدم إلى الإنتخابات القادمة، و قال انه سيعتمد لحملته الإنتخابية شعاراً جيلا ثبت تأثيره وسره الباتع، إذ سيناشد جمهور الناخبين في دائرته قائلاً: لا تنسوا عمرانا!


أصدقاء كده وكده

صفحة مهترئة من كتاب الصداقة

عجيبة هذه الدنيا . . لا تكف أبداعن إدهاشي ، وكلما ظننت أنني قد فهمت ، أجدني مضطرا للبدء من أول السطر . تجعل أناسا يدخلون إلى حياتك بقوة ويصيرون جزءا من أيامك ولياليك ، حتى لتعتقد أنه لا يمكنك الاستغناء عنهم ، ثم إذا بالذي حسبته صداقة أبدية هو علاقة عادية هدفها إزجاء الوقت ودفع الملل والرتابة عن الأيام . . صداقة تنتهي بانتهاء أسبابها !

كانت أيامي بالكويت مترعة ، صاخبة ، مليئة بالأصدقاء والزيارات والسهرات وجلسات المسامرة والحكي . ثم تمر السنوات وأعود إلى مصر ، وكأن السنوات التي مضت كانت حلما وكأن أبطالها كانوا أشباحا تبخرت واختفت . . عندما اختفت المصلحة اختفت الصداقة ! لا بأس هذا لا يصدمني كثيرا ، تعودت أن أعذر الناس ، وألا أتوقع منهم الكثير ، والحمد لله . . الزاد الوفير من الأصدقاء يجعلني لا أنتبه سريعا لاختفاء بعضهم .

بعد سنوات وكنت قد انتقلت للعيش في كندا ، استلمت رسالة من أحد أصدقاء شلة الكويت أسعدتني جدا ، كاتبها روائي مصري ارتحل إلى الخليج وراء لقمة العيش ، وقمع مشروعه الأدبي ، فامضي بالغربة سنوات طوال ووضع موهبته في خدمة الأشقاء . . يكتب الافتتاحية التي يضع رئيس التحرير اسمه عليها ، كما يكتب لمدير التحرير وسكرتير التحرير نزولا حتى بواب التحرير ! فرحت بالرسالة وكتبت له ردا مطولا ، ثم صار التراسل بيننا عبر البريد الاليكتروني أمرا متصلا .

كانت رسائله تقطر مودة وعذوبة . . حدثني عن الأيام وقسوتها ، و كيف تأخذ من الانسان أجمل ما لديه ، وذكرني بأيامنا ولياليها وحواديتنا المشتركة وجلساتنا على مقاهي الخليج ، وأكد على أن الصداقة الحقيقية هي أغلى ما ينبغي أن نحرص عليه مهما كان انشغالنا ، و أعاد إلى ذاكرتي سهرتنا الأسبوعية في بيت أحدنا نقزقز جبلا من الكابوريا مع فيلم فيديو ، وأضاف أن من كان مثلي ومثله لا يجب أن يسمحا لصداقة بهذا العمق أن تنتهي لأي سبب من الأسباب . ظل مداوما على مراسلتي . . يكتب لي أخباره في العمل ويحكي لي عن صراعات الأصدقاء على مغانم تافهة ، ويشدد على أهمية التواصل الانساني والمشاركة التي تجعل للحياة معنى وقيمة . لا أنكر أن كتابته الودودة المتصلة قد أسعدتني وأدخلت دفئا على حياتي وجعلتني أجاهد الكسل وأحرص على الرد عليه رغم استثقالي كتابة الرسائل .

و في ذات رسالة أخبرني أنه قد أخذ قرارا مصيريا بالهجرة إلى كندا هو وزوجته وابنه ليبدأوا

حياة جديدة بعد أن شعر بأن الأرض قد ضاقت به ، وأن وجودي هنا كان أكبر دافع شجعه على اتخاذ القرار ، وبضعة شهور فقط صارت تفصله عن تلقي رد السلطات الكندية وحمل حقائبه والمجيء لنعيد أيامنا الحلوة ونسهر في ليل مونتريال البديع !

بعد ذلك تسارعت ونبرة رسائله وحمّلها كل أحلامه المستقبلية في تأمين حياة ابنه الذي يتمنى له أن يكبر في وطن حقيقي يعامل أبناءه بسخاء ويوفر لهم اللقمة والكرامة ، ويكفينا نحن ما لقيناه في الوطن الأكذوبة الذي يسمونه "أم الدنيا" وهو مجرد خرابة تحكمها شريعة الغاب . ثم كبرت أحلامه فسألني بإلحاح عن البيوت الخشبية على ضفاف النهر . لا شك أن هناك نهراً (هكذا تساءل) وأخبرني عن حلمه بحديقة صغيرة يزرعها بنفسه وأمنيته أن يقف خلف زجاج النافذة يشاهد الثلوج تتساقط بينما هو محتم بالبيت الدافئ!

و الغريب أنه كان يشركني معه بحيث أصبحت موجوداً في كل أحلامه . . يريد بيتا مجاورا لبيتي ويريد أن يفتح الحديقتين على بعضهما ليلعب أبناءنا معا ، كما يريد أن نقيم مشروعا مشتركا لعمل مكتبة لبيع الكتب بها مقهى يقدم الشاي والقهوة يؤمه المصريون والعرب . قلت له أنني لا أريد المكتبة لأنني سأفتح قهوة بلدي عندما يأتي ، ومازحته قائلا أنني أقدم له وظيفة صبي عندي في القهوة ، فأخبرني أنه يقبل الوظيفة ويكفي أنه سيكون إلى جواري! واقترح أيضا مشروعا آخر نعمله سويا وهو كتابة روايات بورنو مليئة بالرعب ، وأن أقوم بصياغتها لأنني أمتلك على حد قوله لغة انجليزية ساحرة!

سنة بأكملها وأنا أتلقى أحلامه وآماله معبأة في رسائل . . صحيح أنني لم أكن أملك نفس الأحلام لأن حياتي كانت مستقرة بالفعل وكل الأشياء التي لعبت بخياله مثل الثلج والمعاطف الثقيلة والمطر المنهمر والخروج بالشماسي ثمانية أشهر في السنة كانت من أسباب تعاستي ورغبتي في العودة إلى مصر ، لكنني كنت سعيدا بالتواصل والمشاركة و . . الصداقة .

ثم توقفت رسائله ! . . اسبوع ، اسبوعان ، شهر ، شهران . . لا حس ولا خبر ، ورسائلي اليه لم تتوقف لكن لا رد . طلبته في التليفون فقالوا النمرة غلط . سألت أصدقاءنا عنه فقالوا انه بخير وانه انتقل إلى شقة جديدة فتغير رقم تليفونه . طلبت منهم أن ينقلوا اليه قلقي عليه وسؤالي عنه ، فعادوا وأخبروني أنهم أبلغوه الرسالة .

و رغم أنني حصلت على رقمه الجديد إلا أنني لم أشأ أن أطلبه ، وتوقعت أن يحدثني أو يكتب لي ، لكن هذا لم يحدث !

ـئل الأمر بالنسبة لي لغزا، لكني رغم دهشتي أو قل صدمتي فإن دوامة الحياة تكفلت بنسياني ـ ـ ، حتي عدت إلى مصر ، ولقيته بالصدفة ذات صباح بجوار مكتبة مدبولي . أين أنت يا رجل حتى الأبالسة والشياطين؟ وما هذا الإختفاء الغريب؟ لقد أقبلت فجأة ومن غير مناسبة وأغرقتني ـ ـ ـلك وأشركتني في همومك وحاصرتني بأحلامك ثم اختفيت بدون مقدمات . أعتقد أنه من حقي أن أحصل على تفسير . فقال : أبداً . لقد رفض الكنديون طلب الهجرة الذي تقدمت به . ـ ـ أن ظلوا يدرسونه لمدة عام . عقدت الدهشة لساني للحظات ، ثم أفقت وتساءلت في ذهول : ـ ـ الكنديون منحك الهجرة فلم تعد بك رغبة في معرفتي؟! فنظر إلى الأرض ولم يرد!.

حديم إسمه.. زوجات أصدقائي!

لم أستطع أبدا أن أتجاوز حالة الفتور التي ميزت موقفي من زوجات أصدقائي أو معظمهن . وربما كان السبب هو فقداني للكثير من الأصدقاء الأعزاء بعد زواجهم أو بسبب زواجهم ، حتى لم ينج من هذا المصير سوي علاقات الصداقة التي ربطتني بأشخاص لا تعرفني زوجاتهم!

و لإدراكي أهمية الصداقة فقد سعيت دوما لأن تكون لقاءاتي بالأصدقاء خارج البيوت . . في المقاهي والمحلات العامة بعيدا عن قبضة الزوجات . ومع هذا فقد كنت أصطدم أحيانا بمن يصر من الأصدقاء على حضوري إلى بيتهم وبصحبتي المدام ، أو قدومهم لزيارتي في بيتي . كنت أري في الأمر محاولة تلفيقية لا داعي لها لاصطناع علاقة صداقة تربط عائلة بعائلة ، وهو الأمر الذي اكتشفت شدة صعوبته لدرجة الاستحالة بسبب أن الزوجتين قد لا تتفقان في الميول والطباع ، وقد لا تصلحان لتكونا صديقتين ، مما ينعكس في النهاية على علاقتي بهذا الصديق .

و لهذا فقد قررت أن أنحي زوجتي خارج نطاق صداقاتي وألا أحاول أن أجعلها طرفا في صداقة لم نطلبها ولم تسع اليها . لكن بقي أن بعض الأصدقاء ليسوا بالضرورة حكماء مثلي ، وما زالوا لا يستطيعون أو لا يرغبون في الخروج وحدهم ، ولا بد أن يلتقوني ومعهم حرمهم المصون . . لذلك كان على إما أن أقبل هذا الـ Package كاملا أو أن أضحي بصداقاتهم!

و اكتشفت شيئا غريبا . . أغلب من كانوا مستأنسين لا يخالفون زوجاتهم ويسمون للإلتصاق الدائم بهن كانوا من الرجال الذين فشلوا في الزواج الأول ولا يحتملون أي هزة في التجربة الثانية ، الأمر الذي سهّل على الزوجات أن يطرحنهم أرضاً في حركة "لمس أكتاف" من أول محاولة . . اكتشفت أيضا أن هشاشة الرجل في تجربته الثانية(أو حتي الأولي) وقابليته للكسر لا تقابلها هشاشة مماثلة على الجهة الأخري ، فالمرأة وإن كانت بالقطع لا تريد الفشل إلا أن هذا ليس بأي ثمن ، وجاهل من يتصور أنها الجنس الضعيف . . الرجل هو الضعيف ، وأستطيع بضمير مطمئن أن أقرر أن الرجل في ٩٠ في المائة من الحالات هو كائن "خرونج" بامتياز! وقليل من الرجال فقط هم من يملكون صفات نسائية مثل قوة الإرادة والتصميم ، والقدرة على التحمل وتجاوز الأزمات والبدء من جديد! .

طالت غيبة أحد الأصدقاء وكان يتسم بقدر كبير من الرهافة ورقة الشاعر . اتصلت به للإطمئنان فأخبرتني زوجته أنه مكتئب بسبب مشاكل في العمل ومشاكل مع زوجته السابقة ، ولهذا فقد اعتزل الناس ولا يريد الرد على أي مكالمات أو مقابلة أي أحد ، وعلمت أن الطبيب النفسي منحه أجازة لمدة شهرين . تكرر سؤالي عنه ولم يضايقني عدم استقباله لمكالماتي ودعوت له أن يخرج من نفق الإكتئاب سالما . حتى كان يوم تلقيت منه مكالمة يخبرني فيها أنه يتحدث من السيارة ومعه زوجته وأنهم في الطريق لزيارتي . كدت أقفز من الفرحة لأنني حقيقة اشتقت إلى صحبته وقد أثقل قلبي مرضه واكتئابه واعتبرت خروجه لزيارتي من علامات الصحة والعافية .

تحدثنا وتبادلنا القفشات كعادتنا منذ تعارفنا من زمن طويل . . مع هذا كنت أشعر أنه حزين وأنه يبذل جهدا كبيرا ليبدو طبيعيا أمامي ولمحت نفسا مجهدة تتوارى خلف الابتسامة المغتصبة ، وتساءلت بيني وبين نفسي عما حمله على النزول وهو في هذه الحالة ، ووددت أن أسأله عما به ، ولكن وجود زوجته وقف بيني وبين الحديث معه بقلب مفتوح كما كنا نفعل دائما .

انتهت الزيارة وقمت أودعهما حتى باب المصعد ، وقبل أن أغلق الباب التفتت إلى زوجته قائلة : آه . . بالحق كنت عايزة أسألك على حاجة . . وشرعت تحكي عن الخدمة التي تريد مني اداءها لها ، والتي تبينت أنها كانت السبب الأساسي للزيارة ! ! اعتذرت بذوق عن عدم قدرتي على مساعدتها في هذا الطلب لعدم شرعيته قالت : علشان خاطري حاول . . أحسست بقدر هائل من الإشفاق على صديقي المسكين الذي جرته معها وهو في أسوأ حالاته وبالكاد قادر على الحديث ، ودهشت لأنه كان من الممكن طلب الخدمة بالتليفون دون تجشم عناء الزيارة ، ولكن يبدو أن للنساء حساباتهن وتقديراتهن !

بعد أسبوع اتصل بي صديقي ، وكان الاجهاد باديا في صوته حتي وهو يتصنع المرح قال لي : أوحشتنا ، نحن في انتظارك غدا على العشاء . . ما رأيك في أكلة سمك وجمبري وكابوريا . . لا تتأخر عن التاسعة حتى نبدأ مبكرا . . فقلت : ومن الذي يستطيع أن يتأخر عن نداء الفوسفور . . سأكون عندكم من العصر وضحكنا ، قبل أن أضع السماعة سمعته على الطرف الأخر يقول (على طريقة زوجته) آه بالحق . . عملت ايه لمراتي في موضوعها؟ فأجبته : لقد سبق وأخبرتها بعدم استطاعتي ، وليس عندي جديد أقوله . . فأحسست أنه وجم كما لو كان لا يعرف ماذا يقول لزوجته ، ثم تبادلنا التحية وانتهت المكالمة . غرقت في حيرة شديدة وسرحت في الموقف . . من الواضح أن ردي على طلب زوجته بالسلب قد صدمه ، ولم أعد أدري ماذا أفعل في عزومة العشاء التي دعاني

ـيها ، ودفعت عن ذهني فكرة أن تكون الدعوة مرتبطة بأداء الخدمة ، لكنني مع هذا لم أعد متأكدا ـن كوني ما زلت موضع ترحيب .

في المساء التالي أخذت سيارتي وذهبت إلى السينما المجاورة لمنزلهم وقمت بشراء ـذكرة . الساعة الآن التاسعة وما زال هناك ساعة قبل بدء الفيلم ، جلست في الكافيتريا أحتسي ـقهوة ، وتمنيت أن يطلبني يسألني لماذا تأخرت . . حتى أقول له انني أقوم بركن السيارة أسفل ـنزل وسأكون معهم بعد دقائق . عند العاشرة دلفت إلى السينما وعلى غير عادتي عند دخول ـسينما تركت الموبايل مفتوح .

مضت سنتان على هذا اليوم . . و ما زلت فاتح الموبايل !

صديق من الزمن الجميل

مـا أشـد فـرحة الإنسان حـين يلتقـي علـى غـير توقـع بـصديق قديم فرقته عنه الأيام. هذا ما أحـسست بـه حـين لمحت وجهـه وسـط الـزحام في أحد المولات الشهيرة بالقاهرة.. هو هو، لم تتغير ملامحه وكأنما سنوات طويلة لم تنقض منذ افترقنا بعد التخرج من مدرسة غمرة الإعدادية.

ارتفـع صـوتي بالـنداء: حامـد، الـتفت نحوي وأدهشني أنه تعرف علي فوراً. جلسنا نحتسي القهـوة وتبادلـنا الذكـريات. قلت له أن هدوءه وتعقله هو ما كان يشدني اليه في تلك الفترة، وقال لي إن حيويتي و جرأتي في مواجهة المدرسين هي أكثر ما كان يعجبه فيّ. يبدو أن الذكريات الجميلة المحفـورة في ذاكـرة كل منا عن تلك الأيام تجعل صورة الرفاق حاضرة بكل الحب والمودة، وعندما استعدت مـع صـديقي حامـد أيـام زمـان فقـد حـضرت أمامـي ومعهـا مشاعري عن تلك الفترة فأحسست بشعور غامر بالحب نحو هذا الصديق الذي لم أره منذ ثلاثين عاماً أو يزيد.

و قـد تذكـرت كلاماً قرأته للأستاذ حسين أحمد أمين كان يتحدث فيه عما يسميه الناس بالزمن الجميل وحنيـنهم الـدائم للأيـام الخوالـي، واعـتقادهم اليقـيني أن أصـدقاء زمـان هم الأصدقاء الحقيقـيون وأن أفـلام زمـان هي السينما الحقيقية وأن غناء زمان هو الطرب الحقيقي. فسّر الأستاذ حسين الأمر على نحو أعجبني جداً، فقد قال ما معناه إنه لو كان هناك في الأمر شيء جميل أيام زمان فهو أنت.. أنت الذي كنت جميلاً بشبابك وإقبالك على الحياة، بتفاؤلك ورؤيتك للأشياء والناس بحسن نية.. الجميل هو مشاعرك الخضراء الغضة وتفتح مسام قلبك للحياة والحب.. الجميل ليس طبق الفـول الذي كنت تتناوله على الرصيف وما زلت تعتقد أنه أروع ما أكلت في حياتك، ولكن الجميـل هـو معـدتك الـشابة العفية التي كانت تهضم الزلط قبل أن تعرف الزانتاك والفوار وأدوية القولون.

طالـت جلـستي مـع صديقي حامد، ولما استأذنت في الإنصراف بسبب موعد مع العمال الذين سألتقيهم للإتفـاق على القيام بأعمال التشطيب لشقتي الجديدة، عرض بأريحية ليست غريبة عليه أن يأتـي معـي نظـراً لخبـرته العريـضة في هـذه الأشـياء. سألته عن سر هذه الخبرة فأخبرني أنه بعد تخـرجه من كلية الهندسة لم يسترح للعمل في الحكومة فأنشأ شركة مقاولات تتولي أعمالاً في طول الـبلاد وعرضـها. ذهـب معـي للقـاء الصنايعية وفوجئت به يخبرهم بأنني قررت أن أرجئ أعمال التشطيب في الوقت الحالي ويصرفهم بمنتهي الهدوء.

بررلي الأمر بأنه أدرك أنني لا أملك أي خبرة أو دراية بهذه المسائل ، وبالتالي من السهل على هؤلاء العمال أن يمنحوني أردأ شغل بأغلى الأسعار . قلت له وأنا في منتهى السعادة أن كل تجاربي من هذا النوع كانت شديدة المرارة حيث أنني لا أطيق المناقشات والجدال مع الحرفيين ، ودائماً ما يغلبونني لدي أي تعامل معهم . بشرني بأنه سيحضر عماله ابتداء من الأسبوع القادم ، وأنه سيقوم بالإشراف عليهم بنفسه .

في اليوم التالي كان يجلس معي على الغذاء ببيتي بعد أن عرفته على أسرتي وحكيت لأولادي عن صديقي الخجول الذي كان يجلس بجانبي في الفصل وكيف كان هدوؤه وأدبه يجلبان على المتاعب حيث كان المدرسون يعدّونني وقحاً بالنظر إلى دماثته ورقة حاشيته . وكان في وجوده معنا بالبيت فرصة لأن يقوم كل فرد من أفراد الأسرة بأخذ رأيه في الأشياء التي يتمناها في غرفته كنوع الديكور وشكل الشبابيك ولون الدهان . والحق أن أفكاره واقتراحاته كانت تدهشنا ، ومن الواضح أن سنوات خبرته في المقاولات كانت مثمرة .

في المساء ذهبنا إلى السينما وعرجنا في طريق عودتنا على فيلته بمدينة نصر حيث كان يجري بها بعض التجديدات ، ولهذا فقد أرسل أفراد أسرته إلى الاسكندرية لحين انتهاء العمل في البيت . وقد أحسست بعميق الإمتنان لهذا الصديق الوفي عندما أخبرني أنه سيوقف العمل في فيلته حتى يتفرغ العمال تماماً لتشطيب شقتي ، وحاولت أن أثنيه ، غير أنه أصر على الرفض .

تلقيت مكالمة منه عصر اليوم التالي وطلب مني الذهاب إلى شقتي للإطمئنان على سير العمل بها . وقد أخذتني الدهشة حيث وجدت العمال يعملون بكل همة في السباكة والكهرباء والمحارة والنجارة ، وزادت دهشتي لأنني لم أدفع لصديقي أي مبالغ ليبدأ بها العمل . . يا سبحان الله على هذه الدنيا العجيبة التي ساقت لي هذا الصديق في هذا الوقت بالذات ليعيد لي ثقتي بالحياة بعد أن اهتزت بشدة من كثرة صدمات التعامل مع الناس .

اتصلت به وقابلته في المساء وأبديت له سعادتي بكرمه الزائد وطلبت معرفة التكلفة حيث أننا لم نتحدث في هذا الأمر من قبل . قال لي بأن تشطيب الشقق لا يدخل ضمن عمله ، لكنه يقوم بهذا الأمر إكراماً لخاطري وطلب مني اعتبار الأمر برمته هدية منه إلى صديق عزيز . لم أقبل موضوع الهدية وشكرته ، فقال أنه سيأخذ فقط أجرة العمال وثمن المواد وقدّرها في حدود عشرين ألف جنيه . دفعت له المبلغ وأنا أعلم أن التكلفة لولاه كانت لتتضاعف . بعد عدة أيام طلبته فكان تليفونه خارج الخدمة واستمر هكذا طوال اليوم . قلقت عليه فذهبت للشقة لأسأل العمال عنه فلم أجد أحداً ووجدت الشقة خاوية على عروشها والعمل الذي كان قد بدأ . . توقف . ذهبت إلى

بحث فاكتشفت أنها لا تخصه وأن كل ما حكاه لي بشأنها كان غير حقيقي. عندما فشلت في العثور عليه أبلغت البوليس فعرفت أن صديقي القديم ليس مهندساً ولا يعمل بالمقاولات وأنه نصاب، وسجله متخم بالقضايا.

والآن هل يصدقني أحد لو قلت له أن فجيعتي فيه هي أشد من فجيعتي في الفلوس بكثير؟ لقد كنت أتمنى أن تضيع الفلوس ويظل هو حلماً جميلاً أقبل علي مبعوثاً من الزمن الجميل!

قصة بيع السيارة

في صيف عام ١٩٩٤ كنت قد عزمت على بيع سيارتي نتيجة مروري بضائقة مالية . ثم فُرجت بعد أن فكّها الله من وسع نتيجة الحصول على عمل خارج مصر براتب كبير ، وبالتالي فقد تراجعت عن فكرة البيع .

في ذلك الوقت كان هناك صديق يتلمظ لاقتناص السيارة «لُقطة» بسبب تصوره أن صاحب السيارة (صديقه) لايزال في أزمة ، ومن الواجب الوقوف إلى جانبه ، والحصول على سيارته بثمن بخس !

فوجئت به يحضر لزيارتي ويقدم أخلاقه العالية سبباً لعرض شراء السيارة ، رغم عدم احتياجه ليها ، ولكن «الناس لبعضها» .

قلت له : إن السيارة لم تعد للبيع وإنني والحمد لله لم أعد في ضائقة تستدعي بيعها . تجاوز صدمته بسرعة ودخل إلى من مدخل آخر .

قال : الحمد لله أن فتحها عليك ، ولم تعد بحاجة لبيع السيارة ، ولكن بالرغم من هذا فإن بيعها ني أصبح أكثر وجوباً ! . سألته في دهشة : ليه إن شاء الله ؟ قال : يا أخي كما أكرمك الله بسفرية إلى الخارج ستعود منها ومعك سيارة جديدة على الزيرو ، يجب عليك أن تكرم أخاك وتبيعه سيارتك القديمة التي لم تعد تناسبك !

قلت له : بل إنها تناسبني تماما ويكفي أن لي معها ذكريات جميلة ، فضلا عن أنني سأكون في حاجة إليها عند نزولي في الإجازات . لم ييأس الرجل وقال : أمن أجل أسبوع إجازة في السنة تمنع الخير عن صاحبك ؟ ثم إنني على استعداد أن أمنحك إياها عند زيارتك مصر . . ما رأيك ؟ . . بدأت أشعر بالحرج من إلحاحه ، وهو لم يفوّت الفرصة فعاد إلى أسطوانة أن الله قد أفاء عليك من رزقه وغداً تعود ومعك ثروة من المال ، وتشتري سيارتين بدلاً من سيارة .

أقول لكم الحق . . لقد تشاءمت من تكراره الحديث عن الثروة الموعودة وأسطول السيارات الذي سأقتنيه ، وفكرت أن أوافق على البيع فقط من أجل أن أكسر سمه . قلت له : يبدو أنك ستنجح بسيف الحياء في حملي على البيع . قال : كنت أعلم أنك لن تخذلني ، وسألني وعيناه تلمعان : كم تريد في السيارة يا صديقي ؟

قلت : لا أريد سوي ما دفعته فيها . . ١٨ ألفاً وأنت تعلم بالتأكيد أنها تساوي ٢٠ على الأقل . قال : أنا أعلم ، ولكني طامع في كرمك ، خصوصاً أن الله قد بعث لك رزقاً وفيراً وأنك ستعود من الخارج ومعك . . خلاص خلاص . . قاطعته مفزوعاً من كلامه الذي صار يخيفني ، وأحسست نحوه بضيق لا حدود له وقلت : ادفع يا سيدي ما شئت وخلصني من هذه السيرة المهببة ! . ابتهجت أساريره وهو يقول : سأدفع لك عشرة آلاف وأمانة يا شيخ لا تخيب رجائي ، قلت وأنا أكاد أنفجر من الحنق : موافق موافق . . فقط اسكت !

في صباح اليوم التالي التقينا وذهبنا إلى الشهر العقاري ، حيث قمت بنقل الملكية إليه ، ثم عرجنا على البنك الخاص به ، فعاد وقدّم لي كيساً أسود قائلاً : عشرة آلاف جنيه بالتمام والكمال . تناولت منه الفلوس شاكراً وهممت بأن أنزل وأترك له السيارة ، إلا أنه استوقفني قائلاً : أنا محرج منك ولا أدري كيف أقولها . رددت في استسلام : قل ما شئت ، لم يعد هناك ما يدهشني . قال : لا أنا بجد محرج منك .

قلت في غضب : ماذا تريد؟ . قال : لعلك لا تعرف أن العشرة آلاف جنيه التي بين يديك هي كل ما أملك من حطام الدنيا ، وأنت قد تركتني على الحديدة . قلت له غير مصدق : ماذا تقول؟ قال : لو منحتني ٢٠٠٠جنيه سلف فلن أنسي لك هذا الجميل ، ثم أردف : ثمن السيارة بالكامل في حوزتك وهذا الأمر لا علاقة له بعملية البيع والشراء ، إنما أطلب منك هذا من باب العشم ، ولا أظنك تترك صديقاً في محنة ، وأنت القادر على إغاثته ، ولا تنس أن رزقاً وفيراً ينتظرك إلخ .

الحق أنني لم أدر ماذا أفعل . . ألقيت كيس الفلوس في حجره وقلت : الفلوس معك . . خذ منها ما تشاء واتركني لحال سبيلي . تناول الكيس وأخرج منه ٢٠٠٠ جنيه دسها في جيبه وأعاده إلى وهو يؤكد على أنه سيرد المبلغ في أقرب فرصة .

قلت له : مبروك عليك السيارة وفتحت الباب وقفزت إلى الرصيف حتي أهرب بعيداً عنه ، ففوجئت به ينزل ورائي في إصرار . قلت له وأنا أختنق : هل تريد بقية الفلوس؟ . . خذها .

قال في عتاب : هل أصبحت صورتي في نظرك سيئة إلى هذا الحد؟ أنا أدعوك على الغداء عندي في البيت لأنني أريد أن أشبع منك قبل أن تسافر فبالله عليك لا تردني . قلت : شكراً على الدعوة الكريمة ، لكني مشغول وعندي أشياء على إنجازها قبل السفر ، ففوجئت به يقسم بالطلاق على أن أذهب معه ! . قلت له : طلقها كما تشاء يا حبيبي ، أنا فليس عندي وقت لمزيد من مفاجآتك . قال : بالعربي يا صاحبي أنا لا أعرف قيادة السيارة وأريدك أن توصلني بها إلى البيت !

كان على أن أقود به إلى صحراء مدينة ٦ أكتوبر ، حيث يسكن ، وأن أعود وحدي دون سيارة ،
. . سنمع طوال الطريق إلى معزوفته عن السيارة الجديدة التي سأشتريها والشقة التمليك التي
ـ قتنيها ، غير الشاليه القريب من البحر والنعيم الذي سأغرق فيه . . إلخ إلخ إلخ ! .

حبك كالإهانة.. لا يُنسى

كنتُ بالإسكندرية الأسبوع الماضي عندما دعاني صديق قديم لزيارته بالساحل الشمالي وقضاء السهرة معه في الشاليه الذي استأجره لقضاء أجازته. قطعت الطريق إليه ووصلت عند منتصف الليل. تشعب بنا الحديث عن ذكرياتنا القديمة وأصدقاء الجامعة وأين إنتهي الحال بكل منهم.. بعدها أخبرني أنه التقي اليوم بفلان.. سعي إليه وقصده في القرية المجاورة حيث قضي معه اليوم بأكمله.. شعرت بالإمتعاض لأن فلان هذا الذي صار ملء السمع والبصر وأصبح يملأ الصحف وقنوات التليفزيون رجل باع روحه للشيطان من زمان وقبض الثمن شهرة وفلوس، أدرك صديقي شعوري فبادرني: إنه مرشح الأن لمنصب كبير يحلم به غيره من الذئاب الجائعة للسلطة والمال وأتمني أن يفوز هو به فيأخذني بجانبه وأصبر من رجاله، وأردف: لا بد للمرء من كفيل يستند إليه في هذا الزمن الصعب.

أزعجني الحديث عن الكفيل وتذكرت أن صديقي يعمل في مجلة خليجية.. ملأني هذا الحديث بالضيق فسعيت لتغيير الموضوع.

سألني: هل نشرت مجموعتك القصصية؟

قلت له: لا ليس بعد

قال: لا يكفي أن تكتب قصصاً قصيرة تنشرها في المجلات والصحف ثم تذهب هباء منثوراً.. لابد أن تجمعها بين دفتي كتاب.

قلت له: صدقت، هذا ما أنوي فعلاً أن أقوم به بعد أن أحظي ببعض الوقت.

قال: ولا تكتفي بمجموعة قصصية واحدة، يجب عليك أن تتبعها بمجموعة أخري حتي يذيع إسمك وتصبح مشهوراً.

قلت له: رويدك، من أدراك أنني أريد أن أكون مشهوراً، حسبي أن أكتب ما أُحبه وما أُحبه ويقرأه بعض الناس من الفصيلة المنقرضة المسماة بالقراء.

فانفعل صديقي قائلاً: ليس مهماً أن يقرأه أحد، المهم أن يكتب عنه الكُتّاب والنُقّاد ويصير

إسمـك متداولاً بكثرة، فتتم إستضافتك في البرامج التليفزيونية وفي الفضائيات . . ألا تدري كيف تمضي الدنيا هذه الأيام؟

قلت له : لا أدري ولا أريد أن أدري، لا أطلب سوى الهدوء .

ففاجأني بقوله : أي هدوء يا أستاذ! دعني أعلمك درساً، إن مقالاتك التي تنشرها في الصحف لا قيمة لها ما لم تكن تستند إلى شرعية تسندها وتضفي عليها قيمة .

نظرت إليه في دهشة قائلاً : ماذا تقصد بالشرعية؟

فـرد قـائلاً : الـشرعية التي أتحدث عنها هي أن يتناول القارئ الصحيفة ويقرأ مقالك وهو يعلم أنـك إسـم كـبير . . إمّا تحوز منصباً تنفيذياً كبيراً أو أديب مشهور أو رئيس تحرير صحيفة أو وجه مألـوف يظهـر علـى الفـضائيات كخبير استراتيجي أو مليونير يقيم الحفلات في فيلته بمارينا ويدعو إليها الإعلاميين مع علية القوم أو أن تكون عضواً قيادياً بالحزب الوطني . . شيء من هذا القبيل .

قلـت لـه : هل هذه هي مصادر الشرعية التي يتم منحها لكاتب؟ قال : نعم، إن واحداً مثلي أنا لو فكر أن يكتب مقالات رأي فـيتزل الملعب مستنداً إلى خمسة وعشرين عام من العمل الصحفي، هذه هي شرعيتي .

سـألته : بـصرف النظر عن قيمة ما قدّم في هذه السنوات الطوال؟ أنا لا أشكك في موهبتك، أنا فقـط أتساءل . . هل العمل لدي الخليجيين الذي يتضمن ثلاثة أرباع الوقت في جهد غير صحفي! هـو مـا يمـنح المـرء مـشروعية عـندما يكتب . . إنّ هناك من يجلس الان على كرسي الأستاذ هيكل وكرسـي الأسـتاذ مـصطفي أمـين وعندما يكتبون يصيبونك بالغم، والدكتور أسامة الباز مستشار رئـيس الجمهـورية على سن ورمح قد فقد رصيده لدي الناس عندما استخف بعقولهم في مقالاته . لقد كنتُ أعتقد أن المرء يستمد قيمته من قيمة عمله وأن الكاتب الجيد هو الذي يقدم كتابة جيدة .

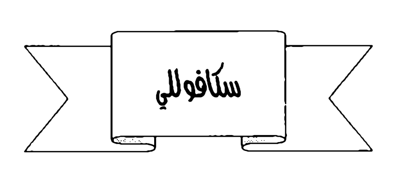
قال صديقي : كُف عن الفلسفة وافهم . . أنا عندما أطالع الصحف لا أقرأ لإسم غير مشهور، أنـا أقرأ لذوي الحيثية فقط . ضحكتُ رغم إحساسي بالأسي وتساءلت : هل لا بد أن يكون جدّك قائـد طابـية حـتي يقـرأ لـك الناس؟ أنا لا أكاد أُصدق ما أسـمع، أنت تتحدث عن عالم زائف لا أحـب أن أكـون جـزء مـنه وشـرعيتك الـتي تتحدث عنها تليق بالخصيان والغواني، هل تعتقد أن حـيازة مـنصب حكومـي رفـيع تجعـل من صاحبه كاتباً، أو وراثة دار صحفية كان يديرها لص أو

بالاستيلاء على أموال البنوك ونثرها على الإعلاميين كما ينثر رواد الملاهي النقود على الراقصات. هل كل هذا يصنع كاتباً أو على الأقل يضيف لقيمة كاتب؟ إن السادة المليونيرات أو الأدبائية سابحون في الفضائيات لا يفعلون سوى أن يزيدوا من مساحة الملل والضيق واليأس لدى الناس.

يا صديقي أنا لا أكتب أعمالاً عظيمة ولا دُرراً خالدة، انا أكتب فقط ما أصدقه وأحسه. وشرعيتي- إذا جاز استخدام تعبيرك- أستمدها من المتألمين مثلي.. فأنا أكتب لأناس يشبهونني، لا عرفهم على وجه التحديد، لكني أثق بوجودهم وأعلم أنهم يحبون هذا الوطن بجنون ويتعذبون عذابه، فحب هذا الوطن يشبه اللعنة أو هو شيء أقرب إلى الإهانة لأنه لا يُنسى.

إني أكاد لا أعرفك يا صديقي، هل حدث لك كل هذا أثناء سنوات غربتي بالخارج؟ كنتَ تنك تعرفني، أنا لا أكتب حتى أصير نجم تليفزيوني ولا أسعى لعضوية لجنة السياسات التي يتصور الساعون إليها أنها تتيح لهم دهس الوطن وامتطاء أهله. الكتابة تعيد إلى شيئاً مما فقدته في خضم هذا الزمن الذي حذف القلب والعاطفة بقدر ما ضاعف من نفوذ المادة حيث يقاس ويوزن كل شيء حتى الدموع، في الكتابة أحتمي بالعالم الذي أصنعه من العالم الذي أعيشه حتي وأنا أكتب عن العالم الذي أعيشه.. لن تفهمني.. أنا أعلم، ربما يتعين عليك أن تقرأ رسول حمزاتوف شاعر داغستان العظيم، إقرأ له "الحب الحار والكراهية الحارقة" فربما يعود شيئاً من صديقي الذي كان لأني أكاد لا أعرفك.

ودعته عند الفجر وأخذت السيارة عائداً وبي رغبة شديدة في البكاء على الصديق الذي لن أراه مرة أخرى.


سكافوللي

إلي حين تصريف البضاعة!

بالرغم من أن نسبة ضحايا الحوادث على الطرق المصرية هي الأعلى بين كل بلاد العالم. وبالرغم من أن الخراب الذي يحيق بأهل القتلي والجرحي ليس له مثيل. حيث لا يوجد تأمين يعوض أو حكومة ترعي أوحتي نظام يسمح بكسب قضايا تعويض ثم ضمان تنفيذ الأحكام.

برغم كل هذا فقد حققت مصر مؤخرا تقدما تجدر الإشارة إليه بعد أن نجح المسؤولون عن المرور في منع الحوادث التي كانت تقع على التقاطعات نتيجة تصادم السيارات التي لا تحترم القانون ولا يقف سائقوها عند الإشارة الحمراء..

لقد قام المسؤولون أخيرا في إجراء شجاع بسد التقاطعات وإلغاء الإشارات في العاصمة المصرية، وبهذا انتفت المشكلة ولم بعد لدينا سائقون يكسرون الإشارات، ولا أظن أن هناك عاصمة في العالم نجحت في جعل معدل كسر الاشارة بها يصل إلى الصفر سوي عاصمتنا الحبيبة!، وللمرة الأولي تنجح الحكومة في إيجاد حل جذري ناجع لمشكلة مزمنة. وأخيرا آن لرجال المرور أن ينامو مطمئنين.. بالضبط مثل الرجل الذي أقض مضجعه علمه بأن زوجته تخونه على الكنبة، فباع الكنبة ثم نام مطمئنا!

وأعتقد أن هذه الفكرة الجديدة في دنيا المرور لم تأت صدفة. فقد احتاجت إلى تفكير مبتكر وإلي همة عالية، وكانت بالتأكيد وليدة خيال حر طليق ليس له سقف برده أوجدران تردعه!. وأعتقد أنه ليس من حق السائقين الأراذل أن يشكوا أويتذمروا من بطء الحركة أوانعدامها لأنهم كانوا السبب برعونتهم واستهتارهم وعدم امتثالهم للإشارة في أن يستفزوا الحكومة التي عُرفت بالحلم والتأني، وجعلوها تعتصر القريحة وتستقطر المُخيخ وتستحضر الإفتكاسة المريعة وتقوم بإلغاء الإشارات التي هي بالمناسبة (الإشارات) المبرر الوحيد لوجود إدارة مرور!

لكن لا يهم.. المهم هوتأديب الخارجين عن الإشارة وجعلهم عبرة للمشاة! وبمناسبة المشاة صحيح أن الفكرة الجديدة قد حرمتهم من حقهم الطبيعي في تعدية الشارع لأن مرور السيارات لا ينقطع (وقد كانت الإشارة تمنحهم حقا ولونظريا في العبور) لكن المهم هوالنظام والأدب. وفي كل مرة أقود سيارتي وأصل عند تقاطع مسدود أتذكر نكتة الرجل الذي ذهب إلى الشركة المتحدة للدجاج وطلب شراء فرخة فسأله موظف الاستقبال: تريد فرخة صاحية أم مذبوحة؟

فقال : مذبوحة فأرسله للطابق الأعلي وهناك سأله المختص : تريد الفرخة المذبوحة نيئة أم مستوية؟ فقال : أريدها مستوية . . فأرسله إلى الدور الأعلي حيث سأله الموظف : تريدالفرخة المذبوحة المستوية محمرة أم مشوية؟ فأجاب : مشوية ، فأشاربإصبعه إلى الطابق الأعلي ، فصعد الرجل فبادره المسؤول : تريد الفرخة المستوية المشوية مع السلاطات أم بدون؟ فلما أجاب : مع السلاطات أرسله الموظف للدور الأخير وهناك التقي بالمدير وقال له : أريد فرخة مذبوحة مستوية مشوية مع السلاطات فأجابه المدير وابتسامته تتسع : آسف يافندم ما عندناش فراخ . . . إنما ايه رأيك في النظام!! وهذا هو عين ما حدث . . المرور تم إلغاؤه إنما ايه رأيكم في النظام؟!

ولئن كان بعض المسجلين خطراً «فكرياً» يزعمون أن الحكومة عليها أن تفرض القانون واحترام الناس للإشارة ، ويذكرون بأن المصريين عندما يقودون سياراتهم في أي مكان بالعالم فإنهم يحترمون قانون المرور ، والعيب إذن ليس فيهم ، بل في الحكومة العاجزة . . . فإن هذا القول لا يجب أن يعتد به لأنه أولا يأتي من غير ذوي صفة وهم "المصريين" وثانيا لأن رائحة الحقد تفوح منه! . والحمد لله لم يعد بإمكان حاقد أو موتور أوفاقد للوطنية أن يزعم بأن حوادثنا تقع عند التقاطعات ، إذ أنه ليس لدينا تقاطعات حتي تحدث عندها حوادث! . . صحيح أن حوادث دهس المشاة وهم يقذفون بأنفسهم لعرض الطريق في محاولة للعبور اليائس قد ازدادت بكثافة . . ولكن لا يجب أن نخلط الأمور وننظر لنصف الكوب الفارغ!

وبصفتي ممن يزعمون زيارتهم لمعظم عواصم العالم في كل القارات . . يمكنني أن أقدم شهادة لا يسهل تجريحها بأن هذه الفكرة هي مصرية مائة بالمائة ولا يحق لأحد أن ينازعنا في ملكيتها . ولكن بالنظر إلى أننا أصحاب الريادة في المنطقة ، والأم الرؤوم لكل الأولاد في الحتة ، فإنه يتعين علينا ألا نبخل على الأشقاء بإتاحة التجربة وسرها الباتع ، خاصة وقد صارت ملكا للإنسانية كلها ، ولا أؤيد من يرغبون في بيع التركيبة بالفلوس لأن في نشرها ولو بالمجان أكبر دعاية لمصر التي لا تزال ولادة وقادرة على الإتيان بالعجائب!

ولا يجب أن نلتفت إلى أصحاب الأصوات المنكرة الذين يتسلحون بالصفاقة ويجدون في أنفسهم الجرأة لإتهام الحكومة بأنها عندما أرادت تطبيق القانون الخاص بحزام الأمان في السيارة ، فإنها نجحت في تطبيقه في خلال أسبوع واحد ، ولم تعد في مصر سيارة واحدة تخلو من وجود الحزام بعد أن نزل رجال المرور إلى الشوارع وقاموا بتطبيق القانون على الجميع في جدية وانضباط يثيران الإعجاب . . .

لا يجب أن نلتفت إلى اتهامهم المعيب للحكومة بأنها لم تفعل هذا لوجه الله والوطن ولكن لصالح أحد الضباع الكبار ذوي الأنياب والمخالب الذي قام باستيراد شحنة أحزمة واحتاج لسلطة الدولة لمساعدته في تصريف البضاعة . . فهذا الاتهام متهافت للغاية وبدحضه أن أي حكومة رشيدة عادلة لا يعيبها أن تقف بجانب أبنائها وتساعدهم في تصريف بضاعتهم!

ولا يهم أبدا أن موضوع الحزام هذا كان موضة وراحت لحالها، إذ أن ذات الموضة يمكن أن تعود لو عاد نفس المستورد وأتى بشحنة أحزمة جديدة. وهذا يؤكد أهمية المستثمرين ورجال المال في خدمة الوطن وفرض الانضباط ولو إلى حين . . . أقصد إلى حين تصريف البضاعة!

هجرة بعيداً عن الكيلو ٢١

عــزم صديقي الهجرة، وأخبرنا أنه ينوي ألا يعود إلى مصر أبداً ولا حتى زائراً. لم يكن الخبر مفاجئاً لي فأنا أعلم سعيه لتحقيق حلم الهجرة من زمن، ولكن قراره بألا يطأ أرض مصر مرة أخرى صدمني.. وها هو يدعونا نحن أصدقاءه لزيارته في بيته بالاسكندرية وقضاء أيام معه للمرة الأخيرة قبل الرحيل.

خرجت معه بالسيارة في زحام الاسكندرية الخانق في منطقة العجمي، وسرنا في الطريق المصري الذي حولته إصلاحات المحافظ إلى ما يشبه الضاحية الجنوبية ببيروت بعد العدوان الإسرائيلي.. كان الركام والهدد يحيط بنا من كل جانب، ومعدات شركة المقاولات تسد الطريق، والمواسير الضخمة ملقاة بإهمال داخل حفر عملاقة وفي عرض الشارع، كل هذا وسط طفح المجاري الذي غطى الأرصفة وصعد إلى المحلات. قبل الكيلو ٢١ بقليل توقف المرور تماماً لأن المنطقة المنكوبة كأنما كان ينقصها سائقو الميكروباص الذين جعلوا موقفهم عند هذه النقطة، ولك أن تتخيل كيف كانوا يسيرون عكس الإتجاه كالمعتاد ويصعدون فوق الرصيف كالمعتاد وينافسون الحكومة في العشوائية ونشر الخراب.

ظللنا بالسيارة لأكثر من ساعة لا نستطيع أن نتقدم، ولا نعرف كيف نعود.. ثم لاح بصيص من الأمل عندما بدأت السيارات تتقدم ببطء شديد بمعدل شبر كل خمس دقائق حتى وصلنا إلى النصب التذكاري العجيب المقام وسط الميدان عند الكيلو ٢١.. وهنا حدث أغرب شيء يمكن أن يتوقعه إنسان، إذ وسط كل هذه الفوضى العارمة وفي قلب المأساة وعلى ضفاف المجاري وجدنا رجال المرور يقيمون لجنة لسحب الرخص من السيارات العابرة. لم أصدق ما أرى، إن هذا المكان الجحيمي هو آخر موقع يصلح لهذا الأمر.. كان بإمكانهم أن يبتعدوا مائة متر حيث ينفتح الطريق ويمارسوا عملهم بدلاً من أن يضيفوا إلى الناس هماً لا ينقصهم.

عندما رآهم صديقي بدأ يتوتر وأخذ يتصبب عرقاً وراح يهز رجله في عصبية. سألته: أليس معك رخصة؟ قال: معي رخصة القيادة ورخصة السيارة وليس هناك مشكلة، ومع هذا زادت عصبيته عندما تقدم أحد الضباط وطلب الأوراق. هبطنا من السيارة وأمامنا ووراءنا رتل من السيارات لنجد مجموعة من الضباط ينهمكون في تحرير المخالفات لكل السيارات بعد أن قاموا بتجميع الرخص. سألت أحدهم عن سبب المخالفة فاحتار قليلا قبل أن يقرر أنه الحزام.

سـأله صديقي : هل كنت تفكر لتخترع لنا مخالفة من تأليفك؟ لقد كنا نربط الأحزمة منذ تحركنا بالسيارة وما تفعله معنا اسمه تلفيق . . تفاجأ الضابط بالرد وبدا عليه الغضب فبادرته : يا أستاذ أي حزام هـذا الـذي تهتمون به والسيارات جميعها تسير بسرعة خمسة كيلو في الأسبوع ! أين التمييز ، أين المنطق؟ فقال في عصبية : هل تظنونني سعيداً بما أفعل ، أنا أقوم بتنفيذ الأوامر فقط ، وهناك من يـراقبون عملنا ، وإذا توانينا عن تنفيذ الأوامر تعرضنا للعقاب . . وأردف أنتم لا تدركون حجم ما نقاسيه بالوقوف في مثل هذا المكان ، وأنا في النهاية عبد المأمور !

و هـنا انفجـر فـيه صديقي : يعني تقومون بتعطيل المرور في منطقة خربانة بطبعها وتؤدون عملاً تزعمون أنكم تكرهونه وتأكلون لقمة عيش مغموسة بدعوات الناس بالإنتقام من الظلمة وتحررون المخالفـات للملاكي فقط وتتركون الميكروباصات تعيث إجراما على بعد مترين من مكان وقوفكم وتـريد مـنا ان نـتعاطف معـك كأنـك تقـوم بدور وطني لصالح أناس لا يقدّرون جهودكم . . أنا ماشـي وسـايبها لكم مخضرة إفعلوا بها ما شئتم رسيقوم أولادكم بجني المحصول الذي تزرعونه . و مع كل كلمة يتفوه بها صديقي كان جسمه يتصلب وأنفاسه تتهدج ثم فجأة سقط مغشياً عليه .

نقلـته بمساعدة بعض السائقين إلى الرصيف وعملنا على إفاقته . كنت مأخوذا بما حدث ورأيت سـائق سـيارة نقل يربت على صديقي ويقول له : هذا الضابط الذي كنت تتحدث اليه رجل طيب ولـيس لـه ذنـب ، المشكلة في الأخر الكبير الذي يقف هناك . . ده راجل سكافوللي وكلنا عارفينه ، قلـت لـه : مـاذا؟ قـال : سـاكافوللي واسأل أي حد ، قلت له : سكافوللي دي حلوة ولا وحشة؟ فقال لصديقي : صاحبك مش عارف يعني ايه سكافوللي ثم أطلق ضحكة عريضة وتركنا مبتعداً .

كـان صديقي بعد أن أفاق قد أخذ في البكاء ، احتضنته وقلت له : انت مسـافر بعد يومين فلماذا كـل هذا الغضب وكل هذا الإنفعال . . فازداد بكاءه وقال بصوت متهدج : هل تعرف أنني مهاجر وتـارك الـبلد بـسبب هـؤلاء ، قلـت لـه ماذا تعني ، قال : لقد أهانوا أبي رحمه الله في أحد الكمائن الليلية وقد مات كمداً في نفس الأسبوع . . و من يومها لم يفارقني الكابوس الذي أرى نفسي فيه في لجـنة أو كمـين وأحـد رجـال الـشرطة يـتحدث معـي بوقاحة ، فأرد عليه بوقاحة مماثلة فيسب أبي وأمـي ، فأقوم بلعن سنسفيل أمه وأبوه فيصفعني على وجهي ، فأقوم بقتله فيطلق على رجاله النار ويـردونني قـتيلا . . هذا الكابوس أراه كل يوم وقد أفسد على حياتي ، لهذا قررت أن أهاجر عسى أن أحظـي بـأحلام لا أقتـل فيها أحـداً ولا يقتلني أحد . وهنا أدركت سر توتره عندما شاهد لجنة المرور . تـضاحكت رغم إحـساسي بالألم يعتصر كياني وقلت له سافر يا بني ربنا يهديك ويا ريت ما ترجعش تاني بدلاً من أن أراك في يوم من الأيام قاتلاً ، أو مقتولاً على يد رجل . . سكافوللي !

تدشدة ضمير فخامة الذنب!

رائع كعادته . . هكذا كان محمد المخزنجي الأديب الطبيب عندما قدّم تشريحا نفسيا شديد الرقي في مقاله بصحيفة الدستور تحت عنوان "أمة تمشي على أربع"

كتب الدكتور المخزنجي عن الوحوش الآدمية من رجال الأمن الذين يقومون بتعذيب البشر كما حدث على خلفية مظاهرات الأسابيع الأخيرة التي ساندت الوقفة الشامخة للقضاة . . وتناول في مقاله حالة التشوّه التي تلحق بنفوس هؤلاء الناس، إذ أن أحدا منهم لا ينجو من فعلته أبدا. حيث تلتقط نفوسهم ما يقترفونه وتسجله عليهم وتطالبهم بتسديد الحساب مهما طال الزمن . و "الانهيار الذي يصيب الضحية جسديا ونفسيا "يمكن أن يوازيه انهيار في نفس الجلاد، فالرغبة في مسخ البشر وجعلهم يمشون على أربع والتي لا تعبر عن نفسها على مستوي الوعي لا بد أن تعربد على مستوي اللاوعي، تظهر عاجلا في كوابيس النوم أو آجلا في أفعال قهرية بديلة وأنواء متأخرة من أمراض النفس وأسقام الجسد التي تحير الطب والأطباء" .

كما كتبه المخزنجي عاد بذاكرتي لمسرحية " دماء على ملابس السهرة" التي شاهدتها بالقاهرة في السبعينات، كما شاهدتها في مونتريال العام الماضي، وتدور حول العذاب النفسي الذي يقاسيه أحد الجلادين المتقاعدين وكيف استحالت حياته جحيما بفعل استيقاظ كل الصور البشعة داخل نفسه واقتحامها صحوه ومنامه . . صور الدماء والعظام المهشمة والجلود المسلوخة وارتجاف الضحايا وصرخاتهم، صور رجال ينتهكون ونساء تستباح، عادت اليه جميعها لتقض مضجعه وتصبغ أيامه بلون الويل . وعادت بي الذاكرة أيضا لزيارات قمت بها لبلاد اسيوية والتقيت وجها لوجه بثقافة تعتنق فكرة التناسخ **Reincarnation** وتؤمن بأن الانسان يحيا أكثر من حياة وعلي أكثر من هيئة في الحيوات المختلفة، وتعتقد بأن من تقتله في حياة أو تعذبه . . لا بد عائد اليك في حياة أخري ليفعل بك ما فعلته به وأبشع .

و يوجه المخزنجي في نهاية مقالته نداء للجلادين بأن يترفقوا بأنفسهم وبعائلاتهم من الأبناء والأباء والزوجات ويوقفوا التعذيب ولا يطيعوا الأوامر بارتكابه، حيث أن المقابل في النهاية زهيد جدا ولا يساوي ما يفقده الانسان عندما يعذب أخاه .

كـان بـودي أن أجـاري صـديقي محمـد المخزنجـي وأعـزز نـداءه لمـرتكبي جريمة تعذيب البشر وأناشـدهم بـأن يـرفقوا بالناس وبأنفسهم لولا أنني لا أري الأمر عي النحو ذاته! يظن المخزنجي أن هـؤلاء الـناس هم بشر عاديون مثلنا لكن بفعل الممارسة وإطاعة الأوامر تم نزع الضمير منهم شيئا فـشيئا حـتي أصـبحوا وحوشا ضارية، وهو يحاول أن ينفخ في روح هذا الضمير عسي أن تكون به جـذوة لـما تخمـد بعد وتنتظر هبة ريح لتصحو، وهو للأسف الأمر الذي تكذبه كل الشواهد وتنفيه طبيعة الحـياة كمـا نـراها. لا شـك أنـه من الجميل أن نعزي أنفسنا ونقنعها بأن الظالم له يوم وأن الجلاديـن سـوف تقـتحم لياليهم الكوابيس المفزعة لتحطمهم وتثأر للضحايا منهم، وجميل أن نقرأ لصلاح جاهين في رباعيته البديعة:

"كل يوم أسمع فلان عذبوه . .

أسرح في لبنان والجزاير وأتوه . .

ماعجبش م اللي يطيق بجسمه العذاب . .

و أعجب من اللي يطيق يعذب أخوه . .

عجبي"

لكـن لا يجـب أن نخدع أنفسنا، فليس في الأمر أي عجب!. إن فرز الوحوش واختيارهم يتم في مـرحلة مبكـرة بحيث أن الـوحش حـين يـبدأ مشواره المهني ويأخذ في أداء واجبه المقدس في سحق البـشر ودهـس كـرامتهم لا يكـون صـاحب ضـمير مـن الأسـاس. فاختيار من يقومون بهذه المهام القـذرة يـتم مـن بـين الحيوانات البشرية معدومة الضمير، وهم لا يجازفون بانتقاء رجل أمن يملك قدرا من الاحساس والضمير لهذه التجربة أبدا. .

و علـى ذلك لا يمكنك أن تسائل الذئب عن دماء ضحاياه، هو يفترس ببساطة لأنه ذئب، وأي محاولـة لمناشـدة ضميره هي ضرب من العبث. أما نداء الدكتور المخزنجي لمن يمارسون التعذيب بأن يترفقوا بلهفـة قلـوب أهلـيهم وذويهم حتي لا يلحق العار بذريتهم من بعدهم فهو قول فيه نظر، ذلـك لأن الـضبع الضاري الذي يقتات على الرمم وينتشي لرائحة الدماء المتخثرة لا يمكن أن تكون أنـثاه يمامة وديعة! فالأنثي التي اختارت هذا الكائن الغليظ وقبلته زوجا لا بد وأنها أشد منه ضراوة وأعظم خطرا، ثم أي خير يرجي من أبناء ينظرون إلى أبيهم الجبان باعتباره بطلاً!

مناشدة الوحوش لن تجدي يا دكتور مخزنجي، بل إن أكثر ما يسعدهم هو هذه الشفقات. ويسعدهم أكثر اعتبارهم مرضى نفسيا وارتفاع الدعوات المطالبة بعلاجهم. لكن ما يرعبهم حقا ويرعبهم فعلا هو توحيد الجهود من أجل ملاحقتهم جنائياً بسعي لا يعرف الملل ويدأب لا يعرف التعب، وفضحهم والعمل على معاقبتهم بالقانون مهما طال الزمن وإدخالهم السجون وتلطيخ سمعتهم بعار الأباء، وأي رهان على شيء خلاف هذا... فأبشر بطول سلامة يا مربع!

يا باشا أو يا ماما.. لا فرق!

كنت أعبر بسيارتي وسط الزحام عند بولاق أبو العلا عندما لمحت إمرأة عجوز ضئيلة الحجم تنزل من الرصيف تحاول العبور، ثم ترتد إلى الخلف في فزع ثم تعاود المحاولة مرة أخرى.

تكرر هذا الأمر منها عدة مرات دون فائدة، وأتاح بطء حركة السيارات لي أن أراها تنادي رجال الشرطة القريب طالبة مساعدته: "و النبي يا ابني تعديني" كان يقف وظهره اليها ولا يبدو أنه سمعها. لا أدري ما الذي أصابني وأنا أراها تنادي الشرطي وتلحف في الرجاء أن يأخذ بيدها.. وجدت قلبي يدق بشدة، لقد تصورت ولا أدري لماذا أنه سيلتفت اليها ضجراً بندائها المتواصل ثم سيعبر الخطوتين اللتين تفصلانه عنها وسيل من الشتائم ينهمر من فمه ثم يركلها في بطنها بحذائه الميري ويتركها على الرصيف تصارع الموت. وشاهدت نفسي أتحرك بعصبية داخل السيارة أريد أن أتوقف وأخف لمساعدتها قبل وقوع الكارثة. لكن لدهشتي وجدت الرجل يلتفت اليها ثم يمسك بها في رفق ويطويها تحت ذراعه ويعبر بها في أمان.

أكملت طريقي إلى البيت وأنا مستغرب من نفسي، ما الذي جعلني أتخيل هذا السيناريو المأساوي الذي لم تبد له أية شواهد؟ لماذا أسأت الظن بالفتي وتصورته وحشاً مع أنه كان كريماً للغاية مع السيدة العجوز وتعامل معها كما لو كانت أمه؟

عندما خلوت إلى نفسي وتأملت الأمر بهدوء أدركت أن توقعاتي المحدودة للغاية من رجال الشرطة فيما يخص حُسن معاملة الناس مرجعها الأساسي أنني علمت أن رجال الشرطة يأخذون دورات تعليمية في حقوق الإنسان!! ولكن هل أخذ المرء كورسات في حقوق الانسان هو أمر يدعو إلى التقلق أم يبعث الطمأنينة في النفوس؟ في اعتقادي أنه أمر مخيف للغاية ولا يدعو للراحة بأي حال، لأن الانسان على فطرته الطبيعية لا يحتاج لمن يعلمه كيف يكون انساناً. القسوة هي التي تحتاج إلى مُعلم والوحشية هي التي تحتاج إلى أستاذ، أما الإنسانية والرحمة فهي السلوك الطبيعي الذي لا يحتاج سوى لأن يتركوا الفرد دون أن يعلموه شيئاً!

و حتى يكون كلامي مفهوماً أكثر سأضرب مثال بشخص يحمل معه شهادة من أطباء الأمراض العقلية والنفسية تفيد بأنه عاقل.. هل إشهار هذه الشهادة في وجهك يحملك على الاطمئنان إلى التعامل مع صاحبها والوثوق به، أم انها كفيلة بإثارة فزعك وانطلاق هواجسك نحوه؟ من المؤكد أنك لن تكون مطمئناً أبداً إلى عاقل بشهادة، لأن الأصل في الانسان أنه عاقل دون شهادات ومن غير كورسات حكمة ودروس اتزان وضبط زوايا مخ!

لهذا كله فقد أدهشني الشرطي الطيب الذي سلك سلوكاً غير بوليسي بالمرة، مع أن مصطلح "سلوك بوليسي" في بلاد ربنا المحترمة لا يعني سوي الغوث والنجدة ومساعدة الملهوف مع الابتسامة الطيبة. لكن بالمعايير المصرية فإن هذا الرجل تخلي عن شرطيته وأقدم على تصرف بسيط للغاية وطبيعي للغاية وبشري جداً. فأثار دهشتي وارتباكي حتي حسبته قد خرج الينا مبعوثاً من مسلسلات رمضان التي شاهدناها هذا العام تقدم رجل الشرطة الافتراضي الذي لا يكتفي فقط باحترام القانون والوقوف إلى جانب الحق، لكن وجدناه هدفاً للأشرار الذين كلما أحسن اليهم أساءوا اليه ولفقوا له الاتهامات بالتعذيب والحصول على الاعترافات بالإكراه، هذه الصورة الرسولية لرجل الشرطة الرقيق العطوف الحنون كأنه أحد تلامذة الأم تيريزا وقد خرج من الدير مباشرة إلى "النباطجية".

هذه الصورة جعلت بعض الناس يرغبون في الخروج على القانون حتي ينعموا ببعض الحب الذي ربما لا يلقاه الواحد منهم في بيته أو لدي أمه أو زوجته التي قد تكون مشغولة بإرضاع صغير أو عمل صينية مكرونة في الفرن، على العكس من قسم البوليس الذي لا ينشغل أفراده عن المواطن في أي وقت وتحت أي ظرف، ويخبروه جاهزون لأداء رسالتهم في إيصال الحنان لكل محتاج، حتي أنهم عند استدعاء منهم في الفجر يقفون على رأس سريره قائلين: اصحي يا حلوة، اصحي يا جميلة . . و هو نفس نداء ماما نونا لابنها حمادة!

غير أن مشكلة هذه المسلسلات الرمضانية أنها جعلت الناس تكره واقعها وترغب في الهجرة إلى أحد هذه المسلسلات والعيش هناك إلى الأبد. ومن واقع خبرتي العملية استطيع أن أؤكد أن الهجرة إلى مسلسل من هذا النوع أفضل من الهجرة إلى كندا، فعلي الأقل ليس في المسلسلات جليد ولا صقيع طول السنة ولا طيران ١٥ ساعة ولا احساس بالغربة. لكن هل يمكن انتاج عدد كاف من المسلسلات تستوعب ٧٠ مليون مهاجر مصري على الأقل؟

حتي إذا استحال هذا فيكفي أننا عشنا بها زمناً رغداً، فقد أسعدتنا هذه المسلسلات وقدمت لنا مصريين مثلنا يعيشون في مصر بالمعايير الأوروبية وما فوق الأوروبية حتي أن المواطن العادي منهم يستطيع أن يتحدي وزيراً نافذاً في السلطة والحزب ويضع ابنه في السجن. ثم يحصل على حكم قضائي بإعدام نجل جناب الوزير دون أن يستطيع والده أن يفعل شيئاً في دولة القانون التي يظللها الحنان والحب ويحرسها رجال يتعاملون مع المواطن بأمومة حتي ليظن المرء أن المواطن قد يكف عن استعمال كلمة: يا باشا ويقول بدلاً منها: يا ماما!

المارشال بهلول يعرف أكثر!

قرأت بالصحف هذا الأسبوع على لسان أحد المسؤولين عن المرور تصريحات أشار فيها إلى اتجاه النية نحو زيادة غرامات المرور على قائدي السيارات والمركبات، وذلك من أجل الحد من حوادث اليومية على الطرق السريعة والمحاور الرئيسية، وأشار السيد المسؤول إلى اعتزامهم تحميل سائقي السرفيس الغرامات على رخصة القيادة، وأضاف سيادته أن الغرامات الجديدة ستبدأ من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ جنية موضحا أن تجاوز السرعة والسير عكس الاتجاه واستخدام التليفون المحمول كلها أمور سيتم مواجهتها بعقوبات شديدة.

عند قراءتي هذه التصريحات أحسست أن لا فائدة من أي شيء في هذا البلد، وتعمق لدي الشعور بأن التعاسة قد أصبحت قدرا لا فكاك منه لهذا الشعب البائس طالما أن القائمين على أمره يمارسون الاستعباط الكثيف بجرأة بالغة!. كيف يمكن أن تكون المشكلة المرورية في فكر المسؤولين عن المرور تتلخص في أن الغرامات غير كافية والعقوبات غير رادعة، وأن الحل يكمن في زيادة الغرامات وتغليظ العقوبات إلى حد جعل السجن عقوبة بعض المخالفات المرورية كما قرأت لمسؤول آخر منذ فترة وجيزة!

وفي الحقيقة فإن تصورات السيد مسؤول المرور خاطئة كل الخطأ سواء من حيث التشخيص أو من حيث العلاج، الأمر الذي يجعلني أود أن أصرخ بعلو الصوت وأقول: يا ناس يا هووه إننا لا نحتاج إلى أي تشريعات جديدة لا في المرور ولا في غيره. كل ما نحتاجه هو تطبيق القوانين الحالية كما هي وبصورتها الراهنة. فلم تكن مشكلتنا أبدا أن القانون قاصر. المشكلة أن القانون في غفوة ولا يتم إيقاظه إلا بشكل انتقائي وعلى حسب المزاج. ولو سألنا أي مواطن. لو سألنا حتى المارشال بهلول الذي يرتدي شوالا مليئا بغطيان الكازوز ويقوم بتنظيم المرور في وسط البلد سيخبرنا أن الكثير من رجال المرور يعملون بكل همة على نشر الفوضى في الشارع ولا يرغبون أبدا في إشاعة الانضباط أو تحقيق السيولة المرورية لأن هذا يحرمهم من الدخول التي اعتادوا عليها والتي يعود الفضل فيها لحالة الخراب القائمة. هل يتصور عاقل أن محلات العصير المنتشرة كالوباء والتي يقف أمامها الناضورجية يشيرون للسيارات ويساعدونها على الوقوف ثلاثة وأربعة صفوف بعرض الطريق في أكبر وأهم شوارع العاصمة.. هل يتصور أحد أنها تفعل هذا دون حماية

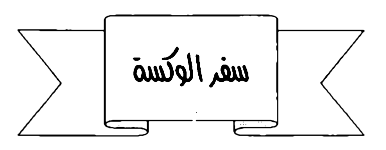
مـن أحـد؟ . وسـيارات السرفيس الـتي تهـدف العقـوبات الجديـدة إلى تحجـيم فوضـاها وعشوائيتها . . هـل لا يعـرف المسؤولون عـن المرور أسباب تحديها للقانون واعتيادها الوقوف في منتصف الشارع لأي راغب في الركوب أو النزول؟ إن النظر إلى سائقي السرفيس يكشف بسهولة أنهم من المواطنين الغلابة الذين يرتعد الواحد منهم إذا لمح ظل مخبر أو شرطي أيا كانت رتبته ، فهلا أخبرنا أحد من أين تواتيهم كل هذه الجرأة وكل هذا الجبروت في فرض قوانينهم في الشارع إلا إذا كانوا مطمئنين أن جرائمهم ليس عليها معقب ، وأن أصحاب السيارات التي يعملون عليها من السادة الباشوات كفيلين بحمايتهم .

و هـل لا يعلـم السـيد مسؤول المرور أن زملاءه الضباط قد وضعوا أول لبنة في صرح الفوضى والعشوائية وحوادث الطرق عندما دأبوا منذ سنين طويلة على منح رخص المرور لأناس يجهلون قواعد القيادة ، وأن امتحان القيادة نفسه هـو في حـد ذاته نكتة ، وأن الرخص يتم توصيلها للمحظوظين في المنازل ، وأن هؤلاء هم أكثر من يرتكب حوادث ومخالفات . وفي تقديري أن هذا التساهل في منح الرخص للمعارف هو نفسه الذي يدفع الضباط للتساهل في امتحان القيادة حتى مع من لا يملكون واسطة كنوع من التكفير عن التهاون مع المحظوظين ، فتكون النتيجة هي هذا الخراب الشامل في الشارع المصري .

و هـل يا ترى لا يعلم السادة المسؤولين عن المرور أن سيارات الشرطة هي أول من ابتدع السير عكس الاتجاه ، ومن ثم تبعها الجميع . وهل لا يعلمون أن سياسة إلغاء التقاطعات التي قاموا بها في معظم أنحاء القاهرة هي بمثابة إعلان إفلاس وعجز عن فرض احترام الإشارة . وهل لا يعلمون أيضا أن إلغاء التقاطعات قد دفع الناس دفعا إلى السير عكس الاتجاه تفاديا لقطع مسافات كبيرة بلا داع سوى كسل القائمين على المرور ورغبتهم في إراحة دماغهم من المرور ومشاكله ! .

إن المارشال بهلول المجذوب يستطيع أن يشرح لرجال المرور أن تعويد الناس على احترام الاشارة هـو أمـر في غاية البساطة . . كل ما يحتاجه هو أن يشعر المواطن أن الأمر جد لا هزل فيه ، وقد يستغرق مدة أسبوع واحد فقط من تطبيق القانون بجدية على الجميع مثلما فعلوا في موضوع الحزام منذ سنوات قليلة ، وبعد مرور هذا الأسوع سيكون الناس قد اعتادوا على النظام ، ويمكن وقتها أن نصرف رجال المرورحيث لن نكون في حاجة اليهم ونلحقهم بأعمال أخرى تخدم الوطن كاستصلاح الصحراء مثلا ، أو نشركهم في مشروع الأسر المنتجة ونشتري لهم ماكينات تريكو أو أي عمل شريف آخر يحتاج طاقتهم وجهدهم .

إذا كان السادة المسؤولين لا يعلمون كل هذا فها أنا أخبرهم أن تغليظ العقوبات وزيادة الغرامات في ظل حالة الترهل والفساد والعجز عن تطبيق القانون التي نعيشها لن يترتب عليها أي تحسن في المرور . كل ما سيطرأ عليه التحسن هو دخل السادة المستفيدين من المخالفات سواء عن طريق تحصيلها وتوريدها للحكومة بعد حجز نصيبهم منها ، أو عن طريق التغاضي عن تحصيلها مقابل "تفتيح المخ" مع العلم أنه كلما زادت الغرامة كلما إرتفعت قيمة تفتيح المخ ، لهذا فمن خير لنا أن تظل التسعيرة عند حدها الحالي رفقا بالمواطنين . . و خصوصا لو تم تطبيق عقوبة الحبس على بعض المخالفات المرورية ، وقتها لن يتردد المواطن في دفع أي فدية لمن بيده إدخاله السجن أو إعفاءه من السجن . . مش كدة ولا ايه؟!


سفر الوكسة

... عة ضحكت من "وكستها الأمم!

عندما قامت اسرائيل في عام ١٩٨٨ بإطلاق أول قمر صناعي لها في خطوة وصفت بأنها نقلة نسبة عملاقة، لم تقف مصر مكتوفة الأيدي.. في الأسبوع ذاته تم إطلاق الرغيف الطباقي في الأسواق. وأذكر أن وزير التموين في ذلك الوقت أطل علي الناس من تليفزيون الريادة في مؤتمر صحفي حاشد، وتحدث مليا عن الحدث الذي طال انتظاره. وبشر الجماهير بأن الرغيف الطباقي زنة ٩٠ جرام ليس آخر إبداعات وزاته، وإنما الخبراء في المخبز الآلي الجديد عاكفون علي تطوير حيزان جديدة من الرغيف بعضها بحمص وبعضها بدون ردة، وقد أجاب سيادته علي أسئلة الصحفيين وأعلن أن زمن التصاق وش الرغيف بقفاه قد ولي بغير رجعة، وأن الأجيال الجديدة من الطباقي ستتميز بالدقة في المعايير والمكونات والمدي الذي تغطيه المخابز وإصابة الهدف الذي هو في النهاية ملء بطون أبناء مصر.

ومع هذا فقد أحس المصريون وقتها بأن الرغيف الطباقي ربما يكون معجونا بالماء الثقيل "قبل نخبته من المجاري" وتناولوا سيرته بسوء، كذلك حاول بعض الرعاع المشككين(الذين يأكلون ننكك) أن يثيروا اللغط حول البرنامج الطباقي. وحاولوا أن يعقدوا مقارنة سخيفة بين القمر الصناعي الذي أطلقته اسرائيل بغرض التجسس علي البلاد العربية وبين برنامج مصر الطموح لعيش السخن، ولكن كتيبة الصحفيين الذواقة الذين حصل بعضهم -في تمييز واضح- علي ألف عيش (ألف عيش بلغة الأفران تعني ٢٠ رغيفا) أقول انهم وقد أسكرتهم طعامة الرغيف مع الجبنة خوطة "كان هذا قبل عصر البعرور والأوزي" انطلقوا يدافعون عن فكر الحزب الوطني في صيانة الأمن القومي المصري وركيزته الأساسية "الرغيف" وقاموا بإفهام الجمهو الجاهل بأن مصر منذ أن اعتمدت السلام خيارا استراتيجيا لها ومنذ آمنت بأن حرب اكتوبر هي آخر الحروب أصبحت تري أن رفاهية شعب مصر أهم من أقمار التجسس أو السلاح المتطور الذي يغري بالحروب، ولما تساءل البعض عن كيفية حماية الرغيف الطباقي من الوحش الذري الرابض علي الحدود، كان الرد المفحم: بالسلام وبمزيد من السلام!

و هكذا مضت المسيرة سنة ورا سنة حتي دخلت الدنيا في عصر القنوات التي تبثها أقمار صناعية مزروعة في الفضاء.. ومرة أخري تعلو أصوات الشاغبين وأهل "اللماضة" يطالبون بأن

نشارك في تصنيع القمر الذي نشتري شرائه وأن نشترط علي الدولة الموردة أن يقوم المهندسون والفنيون المصريون بالإطلاع والمشاركة في كل مراحل تصنيع القمر حتي يكتسبوا الخبرة والمعرفة التقنية كما فعلت الهند . لا أن نشتري قمرا جاهزا تسليم مفتاح دون أن نتعلم شيئا . لكن الحكمة كالعادة يتدخلون في الوقت المناسب لينزعوا فتيل الفتنة ويفسروا للبسطاء ما استعصي عليهم . ويتم استدعاء شيوخ الحزب الوطني الذين يقدمون تفسيرا لوذعيا للأمر ويشرحون للناس أننا خير أمة أخرجت للناس ، وأن الله كما سخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لنا الأنعام ، كذلك سخر لنا الخواجة الأجنبي الذي يسهر في معمله يفكر ويبتكر ويخترع ويصنع أدوات الحضارة من تليفزيون وتليفون وطائرة وسيارة وبلاي ستيشن ، ثم نحصل عليها ونحن علي الشلت قعود دون بذل أي مجهود . . فهل نكفر بالنعمة ونقوم نحن بالتفكير والاختراع ونمنح الكفرة خلاصة عقولنا علي الجاهز ؟ !

و تمر الأيام ويندثر المشروع القومي للرغيف الطباقي الذي أطلقه علماء الحزب الوطني كبديل آمن عن الأقمار والصواريخ ، ويبقي الرغيف الخنفشاري قاسي الوجه والسمات ، ويقال أن ضغوطا أمريكية كانت وراء إيقاف البرنامج !

في الوقت نفسه أسفرت فضائيات الريادة المنطلقة من أقمار الخواجة "المغفل" عن مواد وبرامج في أكثر من ثلاثين قناة من فرط حلاوتها جعلت النفس "تجزع" فلم يعد يراها أحد .

و هكذا في كل مرة واجهنا تحديا يقتضي استنفارا علميا واحتشادا ذهنيا ونفسيا كان الحزب الوطني يؤثر البعد عن وجع الراس ويعتصم بالحكمة ويلوذ بالكسل اللذيذ لحمايتنا من التيارات الوافدة ، ولم يجد الحزب الوطني أبدا في صغره الكبير ما يدعو للخجل لأنه علي الأقل يدرأ عنا حسد الحاسدين .

فما الذي حدث يا تري وجعل حزبنا الطباقي يغير اتجاهاته العلمية وتقاليده الراسخة التي عودنا عليها وينحو فجأة جهة المفاعلات النووية التي طالما خوّفنا منها لأنها قد تفعل بنا ما أحدثه مفاعل تشيرنوبيل الشرير بأهل اوكرانيا؟

لن أدع الحيرة تستبد بي ، فأيا كانت الإجابة فالحزب الوطني دائما يعرف أكثر . ومن الحماقة عدم تصديق قياداته ، ومن الحماقة أيضا تصديق أصحاب الغرض الأثمون من القلة الحاقدة والشرذمة المندسة وسط الجماهير الشريفة تروج لمقولات فارغة ما أنزل الله بها من سلطان من عينة أن الحزب الوطني إذا قال قولة حق . . فابحث عن السبوبة ! .

٧ حرمنا الله من الفكاهة

لم أعد أتعامل بجدية مع صحف الحكومة ولا مع راديو وتليفزيون الريادة . . أصبحت كوميديا ولا شئ سواها هي ضالتي التي ألتمسها لديهم ، وهي الخيط الواهي الأخير الذي ما زال يربطني بهم . ورغم توقفي عن قراءة الأخبار والأهرام والجمهورية وأخواتهم ، وقيامي بحذف قنوات ماسبيرو من قائمة تليفزيوني ، فإنني أستعين بالانترنت في قراء مقالات فهمي هويدي وسلامة أحمد سلامة ونص كلمة أحمد رجب في المواقع التي تجمع ما يستحق القراءة في الصحف المصرية .

لكن أحيانا أقرأ في بعض المطبوعات والمواقع عن أخبار مستفزة أو مضحكة منسوبة إلى الصحف الحكومية ، الأمر الذي يدفعني للعودة اليها في مصادرها وفتح صفحاتها على النت حتى بعد مرور أيام على صدورها . . هكذا قرأت مقال طشة الملوخية الشهير وألهمني كتابة مقال عنوانه "مدرسة أبلة نظيرة الصحفية" بالمصري اليوم في ١ سبتمبر ٢٠٠٥ ، كذلك مقال الأوزي والبعرور منحني فرصة كتابة مقال عنوانه " ما الدنيا إلا مسمط كبير " في ٣١ أغسطس ٢٠٠٦ . . وهكذا فالكتابة الهزلية لا تقوم عندي بدور التسلية فقط وإنما أدين لها بمنحي أفكاراً للكتابة . . و مرحبا بالهزل الجميل !

و مؤخرا قرأنا عن موضوع الفيلم الاسرائيلي الذي يصور قتل الأسري المصريين على يد البرابرة الاسرائيليين ، وعلى الرغم من الفظاعة والوحشية الاسرائيلية فإن تعليقات بعض المسؤولين وأعضاء البرلمان والكتاب والصحفيين كانت في غاية الظُرف والطرافة ، ومنحت الأمر المأساوي بُعداً كوميديا ، فكانت أشبه بمن يلقي في أذنك بنكتة وأنت في قاعة عزاء فتلوم نفسك إذا ضحكت أو تبخسه حقه ككوميديان إذا تجهمت !

و من هذا ما أكده السيد أحمد أبو الغيط في تصريحه بالأهرام من أنه لا يمكن الإستناد في إدانة اسرائيل إلى معلومات صادرة عن وسائل الإعلام الاسرائيلية لكونها غير موثقة وغير رسمية ! ! ويشير الوزير إلى أن اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ تعطي الحق لمصر في مطالبة اسرائيل باجراء تحقيقات في الادعاءات بقتل الأسري المصريين وتلزم اسرائيل بإجراء التحقيق وملاحقة المتهمين وتقديمهم للمحاكمة ! !

هل هناك دفاع عن اسرائيل أفضل من هذا؟ وهل يريد وزير الخارجية المصري ختم النسر علي الفيلم الذي أذاعه التليفزيون الاسرائيلي حتي يعترف سيادته به كوثيقة إدانة! وهل لا يكفيه أن التليفزيون الرسمي الاسرائيلي (المكافيء لتليفزيون الريادة عندنا) هو الذي أذاع الشريط . . لقد احتار الاسرائيليون والله في أمرنا . . يقولون: قتلنا أسراكم فنقول لهم: نحن لا نصدقكم، فهل تجد السيدة تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الاسرائيلية نفسها مضطرة لأن تحلف علي رغيف كايزر حتي نصدقها، أم تضطر لمصافحة وزير خارجيتنا وتقول ويدها في يده: والعشرة دول يا أحمد إحنا اللي قتلناهم!

كذلك ما كتبه رئيس تحرير الجمهورية من أنه شاهد الفيلم ومنه تأكد أن الجنود المصريين قد استشهدوا وهم يحاربون ولم نقتلهم اسرائيل غيلة وغدرا! ويخبرنا الأستاذ محمد علي ابراهيم بين أن نعتبرهم شهداء أو نعتبرهم ماتوا كالنعاج، وهو يراهن بالطبع علي أننا لن نقبل الاحتمال الثاني وبالتالي سنقبل أنهم ماتوا شهداء وهم يقاتلون . . و بهذا ينفي عن اسرائيل أنها ارتكبت جريمة وحشية ضد أسري عزل من السلاح . ولا أدري لماذا كل هذه الجهود والتنظيرات من أجل تبرئة اسرائيل . . هل الغرض هو أن ندفع باسرائيل إلي الجنون بإنكارنا أن هناك أسري تم قتلهم بعد أن اعترفت بالجريمة؟ هل المطلوب هو الكيد لإسرائيل وتفويت الفرصة عليها لإذلالنا وإهانتنا وهو الغرض الحقيقي من إذاعتها للشريط؟

و ماذا يقصد الأستاذ ممتاز القط عندما يلصق الجريمة بقادتنا في ٦٧ غير أن يبرئ اسرائيل ويعفيها من المسؤولية، خاصة وأن سجل اسرائيل في قتل الأسري لا يقتصر علي حرب الخامس من يونيو فقط وإنما هذا دأبها في كل جولاتها العدوانية معنا.

يا خسارة يا جدعان . . هل أصبح أعلي ما في خيلنا هو أن نطلب من اسرائيل (التي ارتكبت الجريمة) أن تجري تحقيقا وتلاحق المتهمين (الذين هم أبناءها) وتقدمهم للمحاكمة وتصدر بحقهم أحكام الإدانة ثم تقوم بتنفيذ هذه الأحكام! . والله إن خيالي ليشطح في أن اسرائيل قد تفعل هذا كله علي سبيل السخرية والهزء بنا فتقدم قادتها للمحاكمة ثم تستند إلي دفاع مسؤولينا وصحافتنا في تبرئتهم!!

أما أطرف ردود الفعل علي الاطلاق فقد صدر من أحد النواب الأشاوس الذي طالب بذبح السفير الاسرائيلي رداً علي جريمة قتل الأسري . . عندما قرات هذا التصريح لم أتمالك نفسي من

خيبتنا لأنه ذكرني بمشهد شهير في مسرحية ريا وسكينة . . كانت الفنانة سهير البابلي تمشي تتبختر في "زنقة الستات" متبوعة بنظرات الرجال ومداعباتهم عندما اقترب منها رجل لا تكاد قدماه تحملانه من الضعف والتهافت وقال بلهجة سكندرية : مساء الخير يا جميل . . ما تيجي نسقيك يا . . فترد سهير البابلي في استهانة واضحة : يا شيخ اتنيل . . انت تعرف تسقي مية؟!!

وحتي يظهر لدينا أحد يعرف يسقي مية ستظل اسرائيل تعربد وستظل عظام جنودنا تعلن خيبتنا وهواننا علي الناس .

عني خطى الحبيب.. بورقيبة!

نشرت صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية يوم الجمعة الماضي نبأ إتصالات سرية تمت بين اسرائيل والسعودية، كما نشرت نص مقابلة صحفية مع ايهود أولمرت أعرب فيها عن إعجابه الشديد بالعاهل السعودي وبآرائه وحنكته السياسية، وقال انه متأثر جدا من التصريحات السعودية الأخيرة العلنية منها والسرية! *خاصة المتعلق منها بإدانة حزب الله وتبرير العدوان على لبنان وشدد على انبهاره بالمسؤولية التي يتحلى بها حكام المملكة. وفي نفس السياق نشرت الصحيفة الصهيونية عن ولي عهد البحرين أنه قال خلال اجتماعه في نيويورك مع نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي شيمون بيريز قاتل الأطفال في مجزة قانا ٩٦: إن تسخين العلاقات بين الدولتين سيكون أسرع مما كان متوقعا، ودعا الاسرائيليين إلى صنع شرق أوسط متطور ومنتعش في كافة المجالات. وأضاف أن البحرين بصدد اتخاذ قرار يسمح للإسرائيليين بالقيام بزيارات علنية إلى المملكة. كما وجه دعوة لبيريز لزيارة البحرين. وقد أثنى بيريز على ملك البحرين وأشاد بحكمته وحنكته السياسية!

لم تعد هذه اللقاءات بين حكام عرب تبعد بلادهم عن اسرائيل مئات الأميال تثير دهشة أحد. ولم يعد الغزل العلني المتبادل بين مجرمي الحرب الاسرائيليين وبين حبايبنا الحلوين الزعماء العرب يشكل خبرا يستحق الاهتمام. غاية الأمر أننا كنا حتى وقت قريب نظن أن القاهرة وحدها تحتكر توكيل الحكمة في الشرق الأوسط وأنها المورّد الرئيسي للحنكة بكل صورها (كبسولات وحبوب وأيضا لبوس) فإذا بملوك الخليج طبقا لتصريحات زعماء اسرائيل يسحبون التوكيل أو يشاركوننا فيه، الأمر الذي يشكل خطرا ماحقا على الشعوب الخليجية التي ألفت رغد العيش والحياة السهلة خشية أن تصل بهم الحكمة المفرطة إلى حدود المجاعة كما وصلت بنا!. عادت بي الذاكرة اللعينة إلى أيام كان مجرد التفكير في الاتصال بالاسرائيليين يعتبر جريمة، وتذكرت كيف كان الموقف حادا لدرجة التطرف إزاء حكام مثل الحبيب بورقيبة الرئيس التونسي السابق الذي قاد تحولات في بلاده كان فيها سبّاقا بأكثر من ثلاثين سنة لما يحدث الأن بالمنطقة العربية، ولا شك أن أنصاره يحق لهم أن يفاخروا بما يعتبروه رؤيته العميقة وبصيرته النافذة عندما قرر عن طيب خاطر وبدون أي ضغوط أن يحلق لنفسه ويحلق لشعبه (على رأي الأخ على عبد الله صالح فيما بعد) رغم أن مقصات الغرب

وأمواسه لم تكن مشرعة في ذلك الوقت، الأمر الذي يؤكد أن الحنكة والحكمة قد طالت الشمر الافريقي مبكرا وأنها لو دامت لغيرنا ما وصلت إلينا . . وهكذا الدنيا!

كان الحبيب بورقيبة مفتونا بالغرب إلى حد كبير . وكان أول حاكم عربي يدعو للإعتراف بإسرائيل، ومن تصرفاته المتطرفة في التغريب أنه أصدر قانونا عام ١٩٥٦ يمنع تعدد الزوجات، وفي مرحلة لاحقة دعا إلى تحريم الصوم علي الشعب التونسي بدعوي انه يقلل الانتاج ويعوق التقدم وظهر علي التليفزيون يتناول الطعام في نهار رمضان حتي يحذو التونسيين حذوه! كما لم يتردد في منع ارتداء الحجاب، وقيل انه أجبر طالبات كلية الشريعة بجامعة الزيتونة الاسلامية علي المشاركة في مسابقة للسباحة بالمايوه البكيني، أما مناهج التعليم فقد فعل بها ما يقومون بإملائه علينا في مصر وفي كل البلاد العربية من تخفيف الدين بالتدريج حتي يتلاشي . . كل هذا فعله الرجل طواعية وعن اقتناع . ولقد كانت الجماهير العربية في ذلك الوقت تستنكر هذا النهج البورقيبي الصادم، وكان التعبير عن الرفض يأخذ أحيانا أشكالا غير لائقة أذكر منها الحفل الذي قدمه التليفزيون عام ٦٦ وقامت فيه الفنانة لبلبة بالسخرية من الزعماء العرب وغنت قائلة : قل لي ولا تخبيش يا زين إيش مصير فيصل وحسين!، كما خصّت الرئيس بورقيبة بفقرة كاملة استهلتها بالقول: بورقيبة الخيبة الخيبة . . و طبعا ليس مقبولا تحول الخلاف السياسي إلى شتيمة وبذاءات، ولكن هذا شأن العرب جميعا في خلافاتهم عندما يحشدون كتابهم وصحفييهم وفنانيهم للنيل من الآخر وتجريحه .

لكن نستنتج من هذا أن ما كان يمثله الحبيب بورقيبة في ذلك الوقت من ممالأة الغرب ومعاداة الدين وسعي لمصادقة اسرائيل كان محل استنكار واستهجان بقية العرب أو أغلبهم .

لكن تمر الأيام ونجد ما كنا نعتبره من الكبائر الوطنية وقد صار سلوكا عاديا ونجد الزعماء العرب يغازلون اسرائيل ويطلبون رضاها وينفذون في داخل بلادهم كل ما يسلخهم عن هويتهم العربية الاسلامية ويصطفون في طابور يسير بانتظام علي خطي الحبيب . . بورقيبة!

كونشرتو القطط والذئاب!

معزوفة الخميس ١١ مايو ٢٠٠٦ :

الحركة الأولى : مظاهرة حاشدة . . صبيان وبنات بالمئات أقبلوا يوم الخميس الماضي لحضور محاكمة تامر حسني بتهمة تزوير شهادتي قيد بجامعة المنصورة وجامعة حلوان . . الشباب يرتدون تي شيرتات موحدة مكتوب عليها (تامر كلنا بنحبك) . وقد تم إحضار تامر من السجن الحربي الذي شرّفه نتيجة لارتكابه جريمة تزوير شهادة الخدمة العسكرية . . نهر الدموع أغرق الرصيف ونال جنبات المحكمة . . الآهات الحارة من الفتيات الدامعات والفتيان المكلومين كانت تذيب البومبوني واللبان الذي يطرقع في الأفواه ، وعيون الغيد الحسان التي تشبه عيون المها قد كحلها السهاد والبكاء وقلة النوم فرقاً وفزعاً علي الحبيب الغالي .

الجمهور لا يعرف علي وجه التحديد عدد جرائم التزوير التي ارتكبها مطربهم المحبوب ، كل ما يعرفونه أن تامر لا يجب أن يبيت بالسجن ليلة واحدة . . لا شك أن من يحاكمونه لا يعرفون كم هو رقيق وكم هو مرهف ، وأن السجن ليس المكان الطبيعي لمن كان مثله حتي لو ارتكب جرائم مخلة بالشرف . . . وكانت منتديات النت قد شهدت خلال الفترة الماضية الكثير من الاسهامات الفكرية لعشاق تامر الذين اتفقوا علي ان مطربا رقيقا مثل تامر وزميله الاخر هيثم انما هما نعمة يجب أن نحافظ عليها ونعض عليها بالنواجذ و " الضراصير " لذلك فقد تنادي كل الشباب والفتيات من الذين يحترمون الموهبة ويقدرون نعمة ربنا لمؤازرة تامر في محنته وتوافدوا من كل فج عميق ليشهدوا محاكمة تامر . .

و ملأت رائحة العطور الباريسية قاعة المحكمة وظهرت بجانب حالة الكاجوال الشبابية سيدات يرتدين تاييرات كلاسيكية أنيقة قيل أنهم سيدات أعمال وزوجات الأكابر ، وسيطرت حالة من الحنان والرقة علي " الاميانس " العام للمشهد . وكان المتظاهرون الذين بذلوا جهودا مضنية خلال الاسابيع الماضية لنصرة حبيبهم في حالة إعياء بسبب الجهد الكبير الذي بذلوه في الحملة المنظمة التي أطلقوها لنصرة تامر وكان أكثرها وضوحا اللافتات الضخمة التي علقوها علي الكباري وكتبوا عليها : تامر . . وحشتنا .

الحركة الثانية : عمرو عبد الله منصور المصري اليوم يتعثر مذهولا في الشارع، جريحا وممزق الثياب . . يبكي وبقايا كاميرته في يده شاهدة علي رجولة الفرسان الأشاوس الذين أوسعوه لكما وركلا وسبا واهانة وحطموا الكاميرا التي يعمل بها دون أن يعرف السبب، وفعلوا المثل مع القنوات الاخبارية التي أرادت تغطية محاكمة القاضيين مكي والبسطويسي في تجريدة بوليسية تكفي لتحرير القدس، وقد ضربوا حصارا حول دار القضاء العالي ومنعوا القضاة من المرور للحضور مع زميلهم كما منعوا باقي الدوائر القضائية من العمل في هذا اليوم وأعطوا القضاة والمتقاضين أجازة اجبارية ! وضربوا بالعصي وبالأيدي والأقدام كل من اقترب وجاهر بتأييد القضاة، واعتقلوا قرابة ٣٠٠ متظاهر بعد معركة خاضوا غمارها ضد أعداء الوطن .

الحركة الثالثة : سيارة شرطة تنهب الأرض مسرعة وبداخل صندوقها المغلق عشرات الجنود في طريقهم لقلب المعركة بوسط البلد . . السيارة تنقلب من فوق كوبري اكتوبر جهة العباسية . . البؤس يطحن البؤس . . الفقر يُهشم الفقر ونهاية مفجعة لأبرياء كانوا في طريقهم لسحق أبرياء !

الحركة الرابعة : المحكمة تدين تامر حسني والقاضي يصفه بأنه مثل سئ للشباب ويحكم عليه بالسجن لمدة سنة ويرأف به فيوقف تنفيذ الحكم . تتعالي الهتافات وتدوي الزغاريد من المريدين والمحبين الذين انخلعت قلوبهم خوفا علي أمير القلوب وأحاطوا به من باب القفص حتي ركب سيارة السجن التي انطلقت عائدة به إلي محبسه ومئات القبلات تنطلق في الهواء من شفاه أحرقتها التنهدات، ومنظر التي شيرتات الجميلة ترتديها كتيبة الوداد والحنيّة . . تامر كلنا بنحبك . . تامر وحنفضل جنبك . . تامر ونعيش ونقول لك . . تامر يا حبيب الكل يا تامر .

فاروق حسني مديراً لليونسكو.. افرح يا قلبي!

نشرت الصحف في الأيام الماضية عن لجنة تم تشكيلها من أجل الإعداد للحملة الإنتخابية خاصة بترشيح فاروق حسني وزير الثقافة لتولي منصب مدير عام منظمة اليونسكو الدولية اعتباراً من يناير ٢٠٠٩.

و من المعروف أن اليونسكو يرأسها الياباني "كويشيرو ماتسورا" منذ أول عام ٢٠٠٣ وقد اعتلي قمة المنظمة الدولية بعد أن فاز علي ١١ مرشحاً أشهرهم غازي القصيبي الشاعر والدبلوماسي السعودي المعروف، فضلاً عن اسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الاسكندرية. وقد أسفرت الانتخابات كما نعرف عن فوز ماتسورا في الجولة النهائية ب ٣٤ صوت وحصول المرشح السعودي علي ١٣ صوت والمصري اسماعيل سراج الدين علي ٣ أصوات من ٥٨ هم عدد أعضاء المجلس التنفيذي للمنظمة الذي ينقسم كالتالي:

المجموعة الأسيوية ولها ١٢ صوتاً، والمجموعة الأفريقية ولها ١٤ صوتاً، والمجموعة الأوربية ولها ١٦ صوتاً، ومجموعة أمريكا اللاتينية ولها ١٠ أصوات، والمجموعة العربية ولها ٦ أصوات. وهذا يوضح بجلاء أن المرشح المصري لم تسانده الأصوات العربية أو الأفريقية أو الأسيوية فضلاً عن أصوات أوروبا وأمريكا اللاتينية. ويصعب طبعاً أن نتحمس للحجة القائلة بأن الدكتور اسماعيل سراج الدين لم يوفق بسبب أنه لم يكن المرشح الرسمي لمصر، وإنما تمت تزكيته بواسطة جوركينا فاسو! ولا نظن أبداً أن ترشيح مصر الرسمي له كان يمكن أن يفيده. ما يحملنا علي هذا الإعتقاد هو أنه بعد عدة شهور من هذه الإنتخابات كنا علي موعد مع القدر وترشيح آخر تبنته مصر رسمياً هذه المرة من أجل الفوز بتنظيم مونديال كرة القدم عام ٢٠١٠، وجاءت النتيجة مزلزلة: ١٤ صوتاً لجنوب أفريقيا التي فازت بشرف تنظيم البطولة وعشرة أصوات للمغرب المنافس المحترم... أما مصر أم الدنيا فلم ينتخبها أحد من ٢٤ دولة بينهم أشقاء عرب وأبناء عمومة أفارقة ورفاق كفاح أسيويون.

كل هذا قصدت أن أسرده ليس من أجل تثبيط الهمم والنيل من العزائم، ولكن حتي لا نغرق في بحار الأوهام التي أدمنا السباحة فيها.. مصر يا سادة ليس لها أي وزن دولي يحمل أحداً علي احترامها أو تأييد مرشحها، وهذه الانتخابات للأسف لن تديرها وزارة الداخلية وليس بين

المرشحين فيها من يرتدي الطربوش ويدعو لانتخاب فاروق حسني المرشح المنافس . . ومع هذا فأنا أتمنى للجنة التي تضم أسماء محترمة أن يكلل جهدها بالنجاح ، وللوزير الطموح أن يتحقق حلمه بالفوز بالمنصب الدولي الكبير .

غير أنني أحمل رجاءً حاراً بحصر الأمر في إطاره الطبيعي ، أي باعتباره خطوة وظيفية في مسيرة فاروق حسني لا تخص شعب مصر ولا تهمه في شيء ، فلا تصدعوا رؤوسنا بالحديث عن الشرف العظيم الذي ينتظر مصر والمجد الذي سنحققه والأيام الوردية التي سنعيشها بعد أن يصعد ابن لنا إلى قمة المنظمة الدولية ، فلقد جربنا هذا من قبل ولم يتحقق لنا أي شيء إيجابي . جربناه عندما صعد بطرس غالي بضغط فرنسي وموافقة أمريكية إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة من ٩٢ إلى ٩٦ فلا أعاد لنا حقاً ضائعاً ولا حرر لنا متراً واحداً من الأرض العربية المحتلة ولا نجح في حمل اسرائيل علي تنفيذ قرار واحد من قرارات الأمم المتحدة ، كل ما نذكره له أنه فرض علي ليبيا حصاراً ظالماً امتد سبع سنوات وشاركت فيه مصر استجابة للشرعية الدولية !

إذن هذه المناصب لا تعني شيئاً بالنسبة لنا ، إنما تعني الكثير بالنسبة لصاحبها ومعه أسرته وأصدقائه ، وهذا حقه . . لكن هذا كل ما في الأمر . وإذا أردتم المزيد من الأمثلة فلا بد أنكم تعلمون أن ابراهيم نافع هو رئيس اتحاد الصحفيين العرب ، فهل هذا يعني أي شيء بالنسبة للصحفيين المصريين؟ هل يعني أي شيء للمواطن المصري الذي يحمل جركنه منذ الصباح بحثاً عن الماء؟

و الدكتور فتحي سرور أيضاً هو رئيس برلمانات العالم ، فهل يساعد هذا علي تقديم استجواب يسقط الحكومة أو علي أداء أفضل لبرلماننا ، أو حتي علي ملء صحون المصريين بالفول؟ إن الأمر في حقيقته أن بعض المناصب لا قيمة لها وتشبه إلى حد بعيد بطولة كأس العالم العسكرية لكرة القدم التي لا تفوز بها أبداً القوي الحقيقية للعبة في العالم ويتركونها دائماً للغلابى ! ، والبعض الآخر من المناصب له أهمية كبري ، لكن الغرب يسيطر عليها ويوظفها لصالح أهدافه سواء كان شاغلها أوروبيا أو من مصر أو بورما أو غانا ، وهذا ينطبق علي منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذي تختاره أمريكا كما ينطبق علي منصب مدير اليونسكو الذي تختاره أوروبا .

لهذا يحق لنا أن ننزعج عندما نقرأ أن السيد فاروق حسني قد صرح للصحف بأن " حملة الترشيح تحتاج ثقلا وقاعدة قوية وهذا يمكن توفيره من خلال بقائي في الوزارة لأن ترشيح وزير

يختلف عن ترشيح وزير سابق " تصريح الوزير يعني أنه ينوي حشد مقدرات الوزارة وامكانياتها لصالح ترشيحه وهو الأمر الذي لا يحق له لأنها وزارة ثقافة مصر وليست وزارة فاروق حسني . ولا نعتقد أن أي مرشح منافس يشترط أن يكون وزيراً حتي تتعاظم فرص فوزه . فهذا ينفع في انتخابات مجلس الشعب المصرية فقط . أما المجلس التنفيذي لليونسكو وأعضاءه الذين يقومون بالتصويت فلا أظن أن هذا الأمر يعنيهم . . كما لا أظن أن بالإمكان ضمهم إلى الحظيرة !

- قدم: أليس منكم رجل متعلم؟

هناك أشياء تضايقني وتزعجني وتثير حفيظتي، بل قل تنكد عليّ حياتي. ومع هذا أجد صعوبة في الكتابة عنها لأنني أخشى أن أكون وحدي المهموم بها، وأخجل أن أحكي للقراء عن معضلات قد لا يكون لها أولوية في أجندة حياتهم المتخمة بالهموم من كل صنف ولون. لكن بي أشعر بأن قيثارتي قد ملّت بأنّات الجوي، وأصبحت كالمكبوت يخشى من الفيضان فقررت مصارحتكم.

منذ وفاة الكابتن لطيف رحمه الله ومشاهدة مباريات الكرة على شاشات التليفزيون مصحوبة بتعليق قد صارت شيئا مزعجا للغاية. ليس فقط بسبب أن أحداً لم يستطع أن يداني الكابتن لطيف في ظرفه ورشاقة تعبيره وحب الناس له، ولكن بسبب أن السادة المعلقين جميعهم تقريبا قد استمروا طوال السبعة عشر سنة الماضية (منذ وفاة لطيف عام ٩٠) في أن ينطقوا بطريقة صحيحة كلمتين لطالما سمعناهما من الكابتن لطيف عندما يخسر أحد الفريقين أو يصادفه سوء حظ في مباراة. الكلمتان هما:

هارد لك Hard luck هل هناك صعوبة في نطق هاتين الكلمتين؟.. ستقولون طبعاً لا توجد صعوبة، ومع هذا جربوا أن تسمعوا محمود بكر أو حمادة إمام أو أحمد شوبير أو مدحت شلبي أو أي معلق آخر، ستجدون الكلمة تُنطق كما لو أننا نقول: المُلك لك والحمد لك.. و هارد لك!

الأمر الذي يزيد دهشتي أن أحداً لا يصحح لهم، مع أنه بالتأكيد يوجد ضمن معارفهم من يعرف النطق الصحيح لهذا المصطلح الكروي الشائع.

و بما أننا نتحدث في كرة القدم فلا يفوتني أن أنعي لكم أيضاً النطق الخاطئ لشيء لا يُتصور أن يخطئ فيه أحد، وهو اسم انسان.. ذلك هو مدرب النادي الأهلي الذي ينطق الجميع اسمه بصورة خاطئة سواء المعلقون في الملعب أو المذيعون في الأستوديو مع ضيوفهم الصحفيين والرياضيين الذين تتم استضافتهم باعتبارهم خبراء في اللعبة، فإذا هم جميعا مساكين يحتاجون إلى من يعلمهم طريقة نطق اسم شائع جدا في اسبانيا والبرتغال. الطريف أنهم ينقسمون في النطق الخاطئ لاسم الرجل إلى فريقين: فريق ينطقها جوزيه "بالجيم المصرية".. وكلما سمعتها تنطق هكذا

تخيلتهم يتحدثون عن (جوزين) حمام بالفريك . وأما الفريق الآخر وهو الأكثر حصافة فينطقها بالجيم المعطشة لأنها تكتب بحرف الـ ج الأفرنجي ، والواقع أنهم لا يعرفون أنه لا وجود للجيم المعطشة في اللغتين الاسبانية والبرتغالية وأن هذا الحرف في هاتين اللغتين ينطق خاء ، وإسم الرجل كما أرادته له أمه وأراده له أبوه هو "خوسيه" .

ننتقل من الكرة إلى الفن ونلاحظ أيضا غياب الاهتمام والاعتناء بأشياء بسيطة لكنها تشكل الفارق بين المتعلمين وبين غيرهم . صفع بصري أفيش مسرحية معروضة اسمها : "برهومة وكلاء البرومة" . . ليست هناك مشكلة في اختيار أي اسم للمسرحية فصيحاً كان أم عامياً . المشكلة أنه في الحالتين يجب كتابته بشكل صحيح . وكلمة " وكلاه" هذه كلما صادفتها تسبب لي غصة وتجعلني أشعر بالأسى . لأن كلمة "واكل" مؤنثها "واكلة" واسم المسرحية يجب أن يكتب : (برهومة واكلاء . .) بإضافة حرف الألف . . . أرأيتم كيف أن الموضوع سهل وبسيط ، ومع هذا لم يدركه السيد المؤلف ولا أبطال العرض . وإذا كنا يمكن أن نغفر للفنان أحمد آدم بسبب ظروفه ، فما عذر المخرج العتيد جلال الشرقاوي؟

بعيدا عن الكرة والمعلقين الغلابة ، وبعيداً عن المسرح الهابط سأروي لكم حوارا دار في أحد مطاعم الوجبات السريعة . دخلت المطعم أستطلع ماذا يقدم ، فخف إلى أحد العاملين وأخذ يشير إلى المعروض من السندوتشات والأطباق وراح يعدد العروض المقدمة بمناسبة الافتتاح وانطلق يشرح لي الفرق بين "الطلب" الكومبو والأخر غير الكومبو ، ولم ينس أن يشير إلي أن السندوتشات لديهم تقدم في حجمين **Medium, large** أي متوسط وكبير .

و هنا استوقفته سائلا بمنتهى الجدية وحُسن النية : تقصد أن لديك حجمين للسندوتش صغير وكبير ، فرد علي الفور : لا يا أفندم لدينا متوسط وكبير . قلت وأنا مندهش : إذا كان كل ما لديك نوعان فقط فكيف يكون من ضمنهما واحد متوسط . . إن من شروط وجود المتوسط أن يكون هناك أكبر منه وأصغر منه ، وهنا نادي علي المدير ملتمسا مساعدته ، فقمت بإعادة الشرح للسيد المدير ، فنظر إلى بحسباني غبي وقال : لا أظنك تعتقد أن الشركة الأم في أمريكا تخطئ في أمر كهذا . . نحن نتلقي منهم كل شيء ونعمل تحت اشرافهم ، وهم الذين قالوا أن هذا الحجم متوسط والاخر كبير . قلت له : يا أستاذ إن الأمر ليس له أهمية قصوى ، لكن معلميك الأمريكان إما أنهم جهلاء ، وإما أنهم يفعلون ذلك عمداً وهم يعرفون الحقيقة قاصدين حذف كلمة "صغير" من قاموسهم للإيحاء للزبون بضخامة السندوتش . أما أنت فتصدق فعلا أن الوسط يمكن أن يأتي دون

وجود اثنين يقع بينهما . . هل يمكن أن تكون أنت الإبن الأوسط لأمك وأبيك دون أن يكون لك أخ أصغر وآخر أكبر ؟

هذه الأشياء والتفصيلات قد تكون بسيطة وسط كم المآسي اليومية التي يصادفها الإنسان المصري، لكني أعتقد أن عشرات التفصيلات الصغيرة التي أصادفها كل يوم هي التي تشكل حياة بالنسبة لي . وإذا كانت كلها على هذه الشاكلة فما أبأسها من حياة !

دفاع عن صاحب الحق.. الخسيس!

هل حدث يوماً أنك أدخلت نفسك طرفاً في نزاع لا شأن لك به سواء بين اثنين من أصدقائك ومعارفك، أو حتى بين اثنين لا تعرفهما وساقتك الصدفة لحضور نزاعهما؟.. وهل حدث أن نست بالانحياز – بداعي الرجولة – إلى الطرف صاحب الحق عندما رأيته يتعرض للظلم، ومن ثم وجدت نفسك في مواجهة مع الطرف القوي المفتري.. هذا دون أن يكون لك في الأمر ناقة ولا حتى معزة؟.. أغلب الظن أنك فعلت هذا مرة أو أكثر على حسب مقدار جدعنتك واستجابتك لدواعي النجدة والمروءة داخل نفسك.

هل تذكر ماذا كانت النتيجة؟.. دون أن تجهد نفسك في محاولة التذكر سأقول لك النتيجة: سواء نجحت في إعادة الحق إلى صاحبه أو فشلت فالنتيجة في الحالتين واحدة.. الطرفان بعد مدة يقومان باستعادة الصفاء بينهما وينسى كل منهما للآخر اساءته مع بروز عدو مشترك لهما هو.. سيادتك!

من الممكن في هذه الحالة فهم الموقف العدائي للطرف المفتري الذي قمت سيادتك بالتصدي له ومواجهته وكشفه وفضحه في محاولة لإعادة الحق إلى صاحبه.. لكن كيف يمكن فهم موقف الطرف الضعيف الذي ساندته، وكيف سمحت له أخلاقه أن يبيعك ويتنكر لك بدلاً من أن يسعى لرد الجميل، بل والأدهى أنه تقرباً وزلفى إلى الظالم المفتري قد يتآمر ضدك ويشهر بك ويطعنك في الظهر!

أظن أننا يمكن أن نعزو هذا إلى الضعف والإنكشاف النفسي الذي يدفع صاحبه إلى تحويل نقمته في الاتجاه المأمون نحو الطرف الذي يطمئن اليه ويثق أنه مهما أساء اليه فلن يؤذيه ولن يرد اليه حسنة بمثيلها.

و مثلما يحدث هذا بين الأفراد يحدث أيضاً بين الدول، والسياسة الدولية تحفل بالمواقف الخسيسة التي اتخذتها دولاً ضد الأطراف التي ساندتها ووقفت معها في أزماتها فلم تلق منها سوى جزاء سنمار.

حدث هذا بعد حرب أكتوبر حينما تحولت السياسة المصرية كلية بالعداء إلى الاتحاد السوفييتي

الذي مهما اختلفنا معه ايديولوجياً فلا نستطيع أن ننكر أنه وقف معنا في كل معاركنا ضد أعدائنا وبنى لنا السد العالي الذي رفض الأمريكان مساعدتنا في بنائه، كما زودنا بالسلاح الذي مكننا من الحرب واستطعنا به عبور قناة السويس في اكتوبر ٧٣ . صواريخ الدفاع الجوي الروسية هي التي مكنتنا من التصدي لسلاح الجو الاسرائيلي الرهيب، والقطع البحرية الروسية هي التي أغلقنا بها مضيق باب المندب، والدبابات الروسية هي التي خضنا بها أقوى المعارك البرية في يومي ١٤، ١٣ أكتوبر، وصواريخ سكود الروسية القادرة علي إصابة العمق في اسرائيل هي التي حمت القاهرة من الدمار، ومنعت العدو من ضرب المدن المصرية وهو الذي لم يتورع في السابق عن قصف المدارس والمصانع والمستشفيات، كما أن جميع الطيارين المصريين الذين حاربوا في ٧٣ بما فيهم الرئيس مبارك قد تلقوا تدريباتهم في روسيا.

فكيف استطعنا بدم بارد بعد كل هذا أن نأخذ موقف العداء من الاتحاد السوفييتي، وكيف استطعنا أن نقود أكبر حملة تشهير اعلامية ضد الحليف الذي لم يكن لنا سواه عندما كانت مصر كلها تنزف دما؟ وكيف بلغت بنا السوقية أن نندفع في العداء الفاجر ونعرض في السبعينيات مسرحية وضيعة اسمها: " يحيا الوفد" تم تأليفها واخراجها خصيصاً من أجل السخرية من الدولة التي ساندتنا وقت أن كانت امريكا وفرنسا وانجلترا وألمانيا تمد اسرائيل بالسلاح وتبني لها المفاعلات النووية وتقدم لها الدعم السياسي.

لا يُفهم مما سبق أنني أميل إلى الماركسية أو أتصور الدول الكبري مؤسسات خيرية أو أبكي علي الشيوعية التي أسقطها الروس أنفسهم. العكس هو الصحيح. .لكني ابكي علي حال مصر التي تعادي من يصادقها وتصادق من يعاديها في أسلوب أبعد ما يكون عن الحصافة السياسية. ولن اتحدث عن الأخلاق. .حتي الميكيافيلية السياسية كانت تقتضي أننا إذا أردنا أن نتوجه إلى العدو بالسلام أن نفعل هذا دون أن نقدم أصدقاء الأمس قربانا.

نفس الأمر تقريبا نستطيع أن نجده في العلاقات المصرية الايرانية. .في وقت شاه ايران كانت العلاقات الايرانية الاسرائيلية تعيش شهر عسل دائم، وكان الشاه حليفاً لاسرائيل، ومع هذا كانت علاقة مصر معه علي أحسن ما يكون. وبعد قيام الثورة الايرانية وخلع الشاه أدار له اصدقاؤه الاسرائيليين والامريكان ظهورهم، وقام السادات في خطوة بالغة الغرابة باستقباله وايوائه وخرجت الصحف المصرية تتحدث عن الوفاء ورد الجميل تجاه الشاه الصديق!

بعد ذلك قام نظام الحكم الجديد بقطع علاقاته باسرائيل ومد يده للعرب ووقف للمرة الأولي مساندا للقضية الفلسطينية ، وهو بكل المقاييس تحول جذري في الموقف الايراني لصالح العرب . . فماذا كان ردنا عليه؟ . . قمنا بقطع علاقتنا مع ايران وما زالت مقطوعة حتي اليوم عقابا للايرانيين علي تأييدهم للحق العربي وعلي غلطتهم في حق الغنم!

و لا نستطيع أن نفسر النجاح الاسرائيلي في التمدد إلى افريقيا وآسيا والوصول إلى جنوب السودان واللعب عند منابع النيل ، ولا العلاقات الاسرائيلية الصينية ولا التصنيع المشترك بين اسرائيل والهند إلا علي ضوء نفس الحقيقة .

لقد تنكرنا لكل من وقف إلى جانبنا حتي دفعنا الكثير من القوي المؤيدة لنا في النهاية إلى التحالف مع اسرائيل .

فهل يا تري يخطيء المرء إذا فكر في الدفاع عن صاحب الحق الضعيف الذي سيكون في الغالب . . خسيسا!

غواء شهبندر بحيرة فيكتوريا!

أعتقد أنه سيأتي حين من الدهر يقرأ الناس فيه في كتب التاريخ عن حياة المصريين قبل الشيخ صالح كامل صاحب راديو وتليفزيون العرب، وحياتهم بعد ظهوره. ذلك أن ملامح الحياة قبل ... يطل علينا تختلف عنها بعد أن صار جزءا من حياتنا اليومية. والشيخ صالح ليس ... صاحب المرحلة ولا هو واضع سياساتها، لكنه الواجهة التي نراها بصرف النظر عن الجهات التي ... تنبيها.

زمان أيام الطفولة في فترة الستينيات كنا نلعب الكرة الشراب في "الدوران" المجاور لمنزل ... ، وكان عسكري الدورية يكمن لنا خلف شجرة، ثم ينقض علي الكرة ويقتنصها ثم يعود ويجلس علي الرصيف وخرزانته في يده. في هذا الوقت نكون قد عقدنا اجتماعا سريعا وتم جمع مبلغ خمسة تعريفة ثمن سيجارتين كليوباترة، ثم نوكل إلى أضخمنا جسما مهمة الذهاب إلى الشاويش ومنحه قيمة الفدية حتي يطلق سراح الكرة ويختفي عن أعيننا لفترة تكون كافية لتكملة ... .

ثم يأتي العام ٧٢ ويلتحق بخدمة الشرطة نوعية جديدة من الشباب اسموهم أمناء الشرطة يحلون محل العسكري التقليدي. . ومع أول صدام لنا مع رجل البوليس الجديد نشعر أننا بإزاء مرحلة مختلفة تماما عما سبقها. . فبعد أن يخطف الأمين الكرة من بين أرجلنا، يمضي في هدوء ويسحب كرسيا من عند الحلاق ويجلس واضعا ساقا فوق ساق في انتظار التفاوض، ونكون في هذه الأثناء قد أكملنا جمع التعريفات الخمس، و عند مرحلة التسليم والتسلم نفاجأ بأن السيد الأمين لا يقبل بأقل من ربع جنيه بالتمام والكمال مقابل الإفراج عن الكرة والسماح لنا باللعب في الشارع!

لهذا فقد وقر في نفوسنا أن الفارق الملموس بين عسكري الدرك القديم وبين أمين الشرطة أن النظام الحديث مكلف جدا، وأن أعباءه تفوق قدرة تلاميذ يلعبون الكرة بالبيجامات ونصفهم حفاة! الأمر الذي أرغمنا جميعا علي الاعتزال المبكر ولم يبلغ أكبرنا سنا ١٣ عاما.

أعتقد أن ما فعله بنا أمين الشرطة الجشع هو نفس ما نقاسيه من قناة ايه أر تي التي حرمت أبناء مصر من مشاهدة المونديال، مع أن هذه المباريات ليست ملكا لأحد حتي يبيعها لأحد. . إن

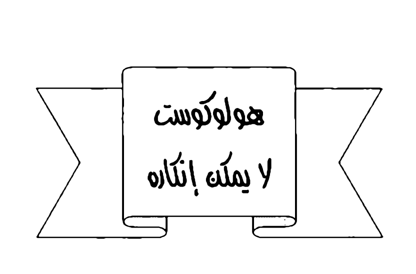
جوزيف بلاتر لا يملك الحق في بيع نقل المباريات، فهو رئيس الإتحاد الدولي لكرة القدم وهي منظمة لا تهدف للربح **Non profit organization** فكيف تم إغواؤه وجعله يبيع ما لا يملك لمن لا يستحق؟

لقد كانت حياة المصريين أقل قسوة قبل عصر صالح كامل، وكان بإمكانهم رغم الفقر أن يحظوا بقليل من المتعة المجانية في مشاهدة المباريات، وأنا لا أعتقد أبدا أن الرغبة في الربح هي الدافع إلى اختطاف مباريات كرة القدم واحتكارها، إذ أن بيع حقوق إذاعة المباريات للمحطات الأرضية كان كفيلا بتحقيق ربحا كبيرا، وهو الأمر الذي رفضه الملياردير السعودي. . الهدف الحقيقي هو الهيمنة والسيطرة وإذلال الناس وزيادة المرارة في حلوقهم. و أستطيع أن أقول ان الفقراء ليسوا وحدهم الذين تأذوا من احتكار المباريات بواسطة الايه ار تي. . ان المصريين علي اختلاف طبقاتهم غير سعداء لأن أحدا مهما كانت قدرته المالية لا يسعد عندما تبيع له الهواء!

و لقد تعجبت حين شاهدت الشيخ كامل في برنامج "في الممنوع" والأستاذ مجدي مهنا يسأله عن أخبار سمعها تتعلق برغبته في شراء الدوري المصري واحتكار إذاعته، فإذا بعم الشيخ صالح يؤكد هذه الأخبار ويقول لمجدي: ألا تحب ناديك؟ إذن عليك أن تساعده وتساهم في دعم نشاطه من خلال اشتراكك في القناة المشفرة التي تبث المباريات بما يعود بالنفع علي ناديك!!. . وبرغم الحرفية العالية والتمكن والشجاعة المعروف بها مجدي مهنا فلا أعرف لماذا صمت علي الشيخ السعودي ولم يفحمه ويقول له: وما شأنك أنت بدعم الأندية المصرية وتوفير موارد لها، وإذا كنت أنا أستطيع الاشتراك في قنواتك المشفرة فماذا عن ملايين المصريين الذين بالكاد يدفعون فاتورة الكهرباء، وما ذنبهم لتحرمهم من الدوري الخاص ببلدهم مصر. ولماذا لا تمد بركاتك صوب بلدك السعودية وتحتكر الدوري بها، ولماذا لا تذهب بنشاطك الكوني إلى خارج المنطقة العربية وتحاول احتكار الدوري الارجنتيني أو البرازيلي مثلا، ولتر ان كنت تجد مسؤولا هناك يرضي أن يبيع بلده مثلما تجد علي أرضنا العربية! أم أنك تقصر نفحاتك علي أبناء أمتنا وحدهم؟

لقد أصابتني هذه الحلقة بصدمة عندما اتهم صالح كامل عشرة ملايين مصري بأنهم حرامية مستندا إلى فتاوي رجال الدين الأرزقية الذين يعملون عنده والذين يشبهون حسن البارودي في فيلم الزوجة الثانية، وقد أوحوا اليه بأن يرد علي الاتهام بالاحتكار بأنه عملية جلب للخدمة وليست عملية احتكار! لأن رسولنا الكريم يقول "الجالب مرزوق والمحتكر ملعون".

لقد كنا منذ وعينا علي الدنيا نشاهد المباريات بالمجان ولكن منذ عرفنا صالح كامل تغير الامر وأصبح "يجلب" لنا المباريات بفلوس، وكنا نشاهد الأفلام المصرية بالمجان وبعد أن عرفنا صرنا ندفع لمشاهدة أفلامنا التي "جلبها" لنا! فهل الخطوة القادمة هي احتكار ماء النيل والتعاقد مع متعهدين بحيرة فيكتوريا حيث ينبع النهر، ثم تشفيره وبيعه للمصريين بفلوس في عملية "جلب" جديدة مملوءة بالخير والبركة؟!


هولوكوست
لا يمكن إنكاره

محكلور

التقيت منذ سنوات أثناء إقامتي بكندا في إحدي الحفلات برجل أعمال مصري كان في زيارة عمل إلى مونتريال . حدثني عن حبه الشديد لمصر وهيامه بها وعدم قدرته علي الابتعاد عنها لفترات طويلة ، وقال انه يمتلك بيتاً كبيراً علي بحيرة ليمان بسويسرا ويستطيع بعد كل ما حقق في عالم المال والتجارة أن يتقاعد ويستريح خارج مصر ، لكن المشكلة أن الحياة في الخارج علي روعتها تفتقر إلى أشياء يراها أساسية بالنسبة له ولا تحلو الحياة إلا بها . . سألته مثل ماذا؟ قال مثل مشهد عربة البطاطا والاطفال يتحلقون حولها في سعادة، أو منظر عربة الكشري وصاحبها يغسل الأطباق في الجردل والزبائن يلتهمونه في شهية لا يمتلكها هو شخصيا، كذلك المشهد الجميل للسيدات والفتيات يغسلن الأواني علي شاطئ النهر أو صبي الفرن يقود الدراجة حاملا عشرة صوابق من أقفاص العيش فوق رأسه دون أن يختل توازنه . . أين يجد المرء خارج مصر أشياء كهذه؟ هكذا تساءل ، قلت له : أراك لا تحن سوي لمشاهد بائسة تمتلئ فقراً وقذارة وأحس كأنك تخشي علي هذا الوطن أن يتقدم وينهض فتضيع عليك متعة الاستمتاع بالمشهد الفولكلوري لمصر في أتعس أحوالها .

تذكرت هذا الرجل الاسبوع الماضي وأنا أجلس في فرح شعبي بحارة صغيرة في قلعة الكبش تلبية لدعوة صديق قديم يزوج ابنته ، وسرحت في مقدار المتعة التي فاتت هذا الرجل وصورة المعازيم يجلسون في مجموعات صغيرة . . مجموعة تتداول الجوزة المغمسة بالحشيش ومجموعة مع الصاروخ بالنجو ما إن يخبو حتي يشتعل غيره والجميع يحتسون البيرة وما تيسر من الخمور الرديئة ماركة بولاناكي ٨٤ وزجاجات رأس العبد وسط الرقص والزغاريد . . و العريس يتناول صواريخ البانجو تحية من أصدقائه فيما تنظر اليه عروسه نظرات عاتبة لا تلبث أن تغيب مع نكتة فاحشة يتلقاها العروسان من أحد الأصدقاء بينما هذا الصديق يهز ردفيه في رقصة مهووسة وسط تشجيع الجمهور ، وبجواره أكثر من فتاة من فتيات الحارة تستعرضن مهارتهن في الرقص البلدي، ثم يطوف أحد الشباب_و كان فمه خالياً من أي أسنان_ علي الجالسين ومعه زجاجة منادياً : حد عاوز يشرب كولونيل؟ معايا مشروب الكولونيل . .

ملت علي مضيفي أسأله عن كنه مشروب الكولونيل هذا فأخبرني في خجل بأنه عبارة عن

سبرتو صريح ! . ثم اعتلت المسرح راقصة عجوز من الواضح أنها عادت من الاعتزال لأسباب قاهرة ، وسمعت من يقول بأن والد العريس أحضرها تخليص حق لأنها ساحة من بقالته بضاعة شكك ، وبدأت تتمايل علي أنغام الاكوردبونيست المجهد وهو يعزف ويغني في أن أغنية شادية " إن راح منك يا عين " وبين شفتيه سيجارة مخدرات أصبحت رمادا ويأبي أن يبصقها وعيناه نصف مغلقة ، وبجواره الطبال منتعشا وفي حالة نشاط لأنه كما علمته واخد برشام مطحون لزوم الشهللة . . و افتتح أحد الرجال باب النقوط وبدأ الصعود للمنصة ونثر السلامات والتحيات للجدعان والمنطقة والجزمجية ملوك الفوندي والنعل والسمكرية عفاريت الصاج شياطين اللحام والنقاشين أساتذة الفن التشكيلي . . واللي يحبنا ما يضربش نار ، وأبلت الراقصة بلاء حسنا بالقياس لظروفها الصحية وحصدت كمية لا بأس بها من الجنيهات .

ثم بدأت تسأل عن العشاء بصوت عال في الميكروفون فتعالت أصوات النسوة أصحاب الفرح : أنزلوها لتأكل . . تعالي يا ولية بلاش فضايح . نزلت الراقصة وصعد شاب حليق الرأس يرتدي سترة جلدية لا تسعفه قدماه ويكاد يهوي من شدة السكر وأمسك بالميكروفون ولا حظت تشجيعا فوق المعتاد : قشطة عليك يا دكتور . . سألت من يكون؟ أجابوني انه أحمد قوطة زينة المنطقة وفخر شبابها خريج قسم فلسفة منذ ١٠ سنين ، الأول علي دفعته ، يكتب الشعر وكان يحلم بالتعيين معيدا بالجامعة لكنهم تجاوزوه ، الأهالي يحبونه ويلقبونه بالدكتور ، لم يجد عملا حتي الان . . يلعب شطرنج بالقهوة معظم الوقت . . أمسك بالميكروفون وأخذ يغني خليط من كل شيء والفرقة تتبعه من لحن للحن وزجاجة البيرة في يده يعب منها ويواصل الغناء ، ثم توقف فجأة وقال للفرقة : سمعني سلام الدكتور أحمد نظيف . . وسلام لأخونا محمود محيي الدين وسلام لعمر أفندي وحسن بشندي وانت ودماغك في البوستندي ، سلام للربادة وسلام للبيادة وسلام لأزهي عصور السعادة ، سلام للطهارة وسلام للمطاهر ، سلام لأم مدحت وبرده أم طاهر . . ورقصني يا اسمك ايه ، وانطلق في وصلة رقص ثم توقف وقال : عارفين ماذا قال سقراط لأصحابه لما حاولوا يهربوه وينقذوه من حكم الموت اللي صدر ضده . . قال ايه يا دكتور؟

وضع زجاجة البيرة جانبا واكتست ملامح وجهه جدية مفاجئة وبدا أنه يجاهد السكر البيّن كما يجاهد دموعاً ملأت عينيه وقال كأنه يقرأ من كتاب : رفض ان يهرب . . لأنه لم يقبل أن يخرج علي قوانين المدينة . . تلك التي عاش يعلم تلامذته أهمية احترامها . ورأي أن موته يعتبر ثمنا رخيصا في سبيل صيانة القانون وتطبيقه علي الجميع حتي لو ظلمه . . فاهمين؟ ثم تقلصت ملامح وجهه

ر خـذ يبكـي بصوت مسموع ، وامسك بزجاحة البيرة وكسرها ثم فاجأنا جميعا وأخذ يشرط رأسه حافـة الـزجاجة الجارحـة فتفجـر الدم وسال من رأسه فأغرق وجهه بين دهشتنا وصرخات النساء بينما أخـذ يقول : دا مش دم ما تخافوش . . انا كويس . . المهم قوانين المدينة . . فاهمين . . قوانين مدينة . .

بعـد أن غـادرت المكـان وركبت سيارتي كانت الرؤية غائمة أمامي لأنني كنت أنظر للطريق من خلال دموعي . . ليت رجال الأعمال الذي يحب الصور الشعبية كان معنا الليلة . إذا لاستمع لنفسه سهرة أوربجينال مليئة بالفقرات والنمر الفولكلورية التي تجعله يحب الوطن ويستبعد الهجرة دائمة مهما قسا عليه هذا الوطن ومهما عكر مزاجه بالإلحاح في طلب تسديد الديون التي اقترضها من بلده الحبيب مصر .

عناء.. وقلة!

شكت زوجتي من ألم بيديها، فذهبت بها إلى طبيب عظام أعطاها مسكناً. فلما استمر الألم ... ت حدته صحبتها إلى أستاذ كبير طلب إجراء تحاليل لكونه يشك في أن الحالة هي روماتويد. ... ت نتيجة المعمل نافية لهذا الإحتمال فطلب مني الطبيب لكي نقطع الشك باليقين أن أجري لها تحليل نفسه في معمل آخر. وكانت المفاجأة أن النتيجة إيجابية بما يعني وجود المرض. احتار الطبيب وطلب مني حسم الأمر من خلال معمل ثالث شهير تسد إعلاناته الأفق. كل هذا والآلام لا تتوقف. جاءت النتيجة سلبية، ومع هذا لم أستطع أن أشعر بالفرحة، فأخذتها من تلقاء نفسي إلى معمل رابع يشار إليه بالبنان، و دفعتني النتيجة لمزيد من الحيرة حيث أكدت الإصابة بالروماتويد!

أصبحت مرتبكاً وعاجزاً عن الفهم وأدركت أن نصف المعامل في مصر ستؤكد ما ينفيه النصف الآخر وكأن الأمر يتعلق بالرأي في رواية أو قصيدة شعر!. نصحني العارفون أن أذهب لأستاذ كبير في الأمراض الروماتيزمية اسمه سمارة أو خيارة علي ما أتذكر، عيادته في وسط البلد. من عند الباب أخذنا رجاله مباشرة إلى المعمل الملحق بالعيادة وأجروا لها تحاليل عديدة دفعت فيها ألف وخمسمائة جنيه قبل لقاء الطبيب.

طاف بخيالي أن بعض الأطباء يرسلونك إلى معمل التحليل ثم يأخذون عمولتهم آخر الليل، ولكن هذا الرجل لا يريد من أحد أن يشاركه نهشي! عندما أتي دورنا ودخلنا للأستاذ وجدت صورته تطابق الصورة التي أحملها في مخيلتي للذيب السحلاوي!

تكرم الرجل فمنحنا من وقته الثمين زهاء ساعة.. آه والله، قام خلالها بسرد سيرته الذاتية وقص علينا أجزاء من حياته المليئة بالنجاح وكيف أن عدد مرضاه لو وقفوا طابوراً لوصل إلى أسوان. سألته: وهل لو رصصتهم فوق بعض ووقفت بحذائك فوقهم.. هل تستطيع أن تري زيمبابوي كما حكت فيفي عبده في وصف مقدار ثرونها؟ تفاجأ الرجل بسؤالي وأنهي اللقاء بعد أن وصف أدوية تفيده هو شخصيا وتفيد الصيدلاني وشركة الأدوية ولا تفيد زوجتي.

و لأن المريض وأهله يكونون في أضعف أحوالهم، وجدتني علي استعداد لسماع أي نصيحة.

أوصاني العارفون أيضاً بأن أذهب للدكتور بسيوني صاحب الإسم الفخم والعيادة الأكثر فخامة أخذتها وهي في حالة يرثي لها وهناك استقبلني رجل له وجه قط وقال: الدكتور سيراها بعد نجري لها مجموعة من التحاليل الأولية. قلت له لقد قمنا بكل التحاليل اللازمة وغير اللازمة ومعي كل النتائج.

قال: نحن لا نثق بالمعامل الأخري . . سنجري لها التحاليل هنا في معملنا. لا بأس . . هم أيضاً سيقضمون جزءاً من لحمي، لقد أصبحت مستباحاً ولو طلبوا مني عجين الفلاحة لعجنته صاغراً. دفعت ألفين من الجنيهات إتاوة لصاحب العيادة حتي يتفضل برؤيتنا. عندما دخلنا استعذت بالله من سحنته الكئيبة وتكشيرته وطريقته المتعجرفة في إنهاء الحديث، حتي انني قلت له: يا دكتور أنا أكثر تعجلاً في الخروج من هنا لكن رغبتي في علاج هذه المسكينة تغلب رغبتي في الفرار من أمامك!

نظر لي بقرف وقال إن الحالة واضحة حتي من غير تحاليل، هو روماتويد مؤكد وسألني: هل تستطيع تحمل علاج مكلف؟ قلت له: وماذا لو لم أستطع؟ قال: مطلوب حقنتين في اليوم من نوع معروف باسم حقن الذهب وذلك لسعره الغالي ومفعوله الأكيد وهي غير موجودة بمصر، قد تجدها في الأجزخانة الشهيرة بمصر الجديدة أو فليأت بها أحد من السعودية، واستطرد: أما في حالة عدم استطاعتك فلا أظنك راغب في معرفة ما سيحدث!

في ذلك الوقت كان مرتبي يكفي لشراء حقنة ونصف فقط. ومن هنا فقد أنفقت كل مدخراتي القليلة ثمناً لبضعة حقن، ثم استدرت إلى أبي رحمه الله ثم اخوتي فأصدقائي علي التتابع حيث قمت بتجريفهم وأخذت كل ما يملكون وأنا أعرف أن اليوم الذي أعجز فيه عن تدبير الحقن قد اقترب بشدة. ومع كل هذه الديون والخراب النفسي والعصبي الذي حاق بي . . لم تكن الحالة تتقدم ولم تكن الآلام تتوقف. حتي كان يوم التقيت فيه بأحد الأصدقاء الذي حكي لي تجربة مشابهة لمرض زوجته وطلب مني أن أسأل الطبيب سؤالاً محدداً وهو: ألا تظن يا دكتور أن الذي تعاني منه زوجتي هو مرض الذئبة الحمراء واسمه بالانجليزية**Systemic lopus** وليس روماتويد الذي تأخذ علاجاً له منذ شهور دون فائدة؟

و قد فعلت فقال لي الطبيب: لا أعتقد ولكن دعنا نجري هذا التحليل حتي يطمئن قلبك. عملت التحليل خارج عيادته، فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة هي إصابتها بمرض الذئبة الحمراء

ي حالة متفاقمة ، والنتيجة أنها تأخذ علاجاً خاطئاً وتتعذب علي يد أطباء جهلة منذ عدة شهور .
ي لنتيجة أنني تسولت من طوب الأرض حتي أعالجها . عدت إلى الطبيب الجهول بنتيجة التحليل
نظر بلا مبالاة وقال : كنت أعرف هذه النتيجة ، وهذه الأمراض علي أي حال متشابهة وعلاجها
ي حد تقريباً ، والأن سأكتب لك دواءاً جديد . ما زلت أسترجع بكل الأسي ذكري هذا اليوم الذي
نجرت فيه في الطبيب المجرم وكدت أفتك به لولا أن أدركه الرجل القط وبقية صبيانه وشركائه في
جرائمه .

بعد يومين كانت عجرفته وإهماله وجهله قد عملوا مفعولهم في جسد زوجتي فاستسلم للشلل
ستام في الذراعين والقدمين والفم بعد أن أصيب النخاع الشوكي كجزء من تداعيات المرض الذي
أخر علاجه طويلاً فعجزت تماماً عن الحركة والكلام .

و بدأنا رحلة جديدة مليئة بالتوحش والخسة والإنحطاط المهني والنفسي من جانب من كنا
نرتجي عونهم علي البلاء . . والحدوتة لم تنته !

بيع بأسلوب الصدمة والترويع

مارست الحكومة بهمة ملحوظة في الآونة الأخيرة سياسة الصدمة والترويع مع الشعب المصري، وهي نفس سياسة قوات الاحتلال الأمريكي في العراق. أعلنت بغتة عن قرارها النهائي ببيع بنك القاهرة فأحدثت صدمة كبيرة في الشارع المصري، وفي نفس التوقيت قامت قوات شرطة الحكومة بإلقاء مواطن في العمرانية من شرفة شقته، وأغرقت مواطناً آخر بالسبرتو وأضرمت فيه النيران فشوته حياً في سبوة، وقتلت بعنف بالغ نجاراً في قرية قرب المنصورة، فاكتملت منظومة الصدمة والترويع، وانكمش المواطن المصري علي ذاته يلعق جراحه التي لا تلتئم أبداً.

إن سياسة بيع ممتلكات الشعب المصري مع إلقاء المواطنين أصحاب هذه الممتلكات من البلكونة هي أحدث تجليات الفكر الجديد. ومن الواضح أن هذه السياسة تمضي بنجاح وبدون مقاومة تذكر. لا يفوتنا بالطبع أن نشكر السادة الذين أعلنوا حركة "لا لبيع مصر" ونحيي وطنيتهم وجهدهم المخلص، وأن نشكر نقابة المحامين التي قامت بفتح حساب من أجل الإكتتاب لشراء بنك القاهرةعند فتح باب الشراء، ولكن هل هذا يجدي؟ هل هناك مواطن مصري سيمضي بأمواله التي يعيش منها ويضعها في حساب نقابة المحامين حتي يكتمل المبلغ ١٥ مليار جنيه فيمكن عندئذ التقدم لشراء البنك؟ هذا إجراء تملأه النيات الطيبة لكن يعيبه أن أعضاء مجلس النقابة ذاتهم لن يضعوا أموالهم في هذا الحساب!

و إذا نجحنا في شراء بنك القاهرة من براثن الحكومة فماذا سنفعل غدا عندما يعتزمون بيع البنك الأهلي وبنك مصر وقناة السويس؟ الحكومة ماضية في البيع مهما حدث ويساعدها في تنفيذ المخطط أن المواطن لم يشعر أبداً أن بنك القاهرة أو أي مؤسسة يراد بيعها أنها كانت له أو كانت تعمل في خدمته ولم يشعر أبداً أنه استفاد منها. كل ما يعرفه المصري عن بنك القاهرة هو خدماته المصرفية الرديئة وكسل وتنبلة موظفيه، فضلا عما يسمعونه عن نهب الكبار لفلوس البنك وتواطؤ اداراته المتعاقبة مع اللصوص. لم يعرف المصريون عن بنوكهم في ربع القرن الماضي أنها قامت بتمويل مشاريع صناعية تقوم بتشغيل عمالة كثيفة وتفتح أبواب الخير للناس، كما لم يعرف عنها تبنيها لمشروعات زراعية تضيف للناتج القومي، كل ما يعرفوه أن هذه البنوك في أيد غير أمينة، وهو الوضع الذي لا يمكن أن يجد من يدافع عنه، هذا هو السبب الحقيقي الذي يجعل محاولات الساعين لوقف البيع بمثابة حرث في الماء..

المصريون لا يعتقدون أن هذه المؤسسات تخصهم ولهذا لا يغرق معهم أن يشتريها الأجانب. هم يعلمون أن الأجنبي إذا ما اشتري البنوك سيقوم بتمويل شراء السيارات وتدوير الفلوس في مشاريع سريعة العائد ولا تفيد الوطن، ولكن أليس هذا هو عين ما تفعله الإدارات الحالية التي تمول مصانع البسكويت واللبان وشركات المحمول التي تقوم بتطوير الرنات وتمنح فلوس المودعين قروضاً لمن تعلم أنه لن يقوم بالسداد. . هل سمعتم عن لص واحد استطاع الضحك علي بنك ادارته أجنبية؟ المصريون من يأسهم قد باتوا يعتقدون أن الإحتلال الأجنبي قد يكون أحن عليهم من احتلال المماليك بجهلهم وشراستهم وطبعهم المجبول علي الفساد.

هذه هي المعضلة التي تواجه الساعين إلى وقف عجلة الإنحدار. . المؤسسات العامة أصبحت خرائب بفعل التخطيط الشيطاني، لهذا لن تجد من يدافع عنها. بنك القاهرة سيتم بيعه وبعده البنك الأهلي وبنك مصر وقناة السويس والمسألة أصبحت مسألة وقت، وطبعاً عمليات البيع لن تتمتع بأي شفافية، وفلوس البيع لن نعلم أين ذهبت. وطالما أن هناك ما يمكن بيعه فإن الحكومة التي تستشعر حجم الجرم الذي تقوم به وحجم الجناية التي تجنيها علي الأجيال القادمة وخوفها من الناس الذين تسرقهم سيجعلها تسرف في إرعابهم وترويعهم وتستمر في إلقائهم من البلكونات وجلدهم بالسياط وحرقهم بالسبرتو.

لقد أصيب الناس بالملل والزهق والإعياء وأصبحوا يتعجلون الوصول لنهاية الفيلم. إنني شخصيا أنتظر اليوم التالي بعد أن تبيع الحكومة كل المصانع وكل الشركات والمؤسسات والبنوك وأبار البترول القائمة والمحتملة والأراضي الزراعية والصحراوية والساحلية. . . فعسي أن تستريح الحكومة وأجهزتها الأمنية عندما لا تجد شيئاً يصلح للبيع وتترك الناس في حالهم وترحل. . وصدقوني لقد أصبحت لا أري طريقاً للتغيير غير هذا، ألا يعود بمصر ما يغريهم بالبقاء. . وعندها يمكننا أن نبدأ من الصفر مع حكومة وطنية منتخبة ويمكن ساعتها أن نمول المشاريع الجادة من خلال تحصيل الضرائب ومن خلال الاقتراض من البنوك أيا كانت ملّتها، ويمكن كذلك إنشاء بنوك وطنية من جديد واجتذاب ودائع المصريين اليها، فما دمنا قد وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف والتهافت واليأس من التغيير، وأصبح أعلي ما في خيلنا أن نفتح حساب في البنك للإكتتاب من أجل شراء بنك القاهرة ونحن نعلم أن أحداً لن يضع فيه مليم. . فدعوهم يبيعون بسرعة عسي أن يتوقف التعذيب وتنتهي سياسة الصدمة والترويع.

نزعة الأنذال والخونة!

في روايته البديعة القاهرة الجديدة صاغ الأديب نجيب محفوظ شخصية محجوب عبد الدايم بأستاذية واقتدار. ثم صارت الرواية فيلماً سينمائياً باسم القاهرة ٣٠ علي يد المخرج صلاح أبو سيف، وقد جسد الفنان حمدي أحمد شخصية بطل الرواية الذي دفعه الفقر إلى أن يبيع شرفه ثمن بدفع الثمن.

بعد ذلك صار اسم محجوب عبد الدايم مضرباً للأمثال، وأخذ الناس يطلقونه علي من يصادفونهم في الحياة ممن يتسمون بانعدام النخوة والاستعداد للتضحية بالاخلاق والمبادئ في سبيل العيش وارتقاء سلم المجتمع الفاسد.

غير أنني عندما أفكر في نهاية الرواية حين انهار البطل وتهدمت دنياه بعد افتضاح أمره ومعرفة الناس أن الإبن المحترم ليس سوي قواد رخيص يبيع لحم امرأته للباشا الكبير.. أفكر في أن هذه النهاية المنطقية ربما ترجع إلى أن فترة الثلاثينيات من القرن الماضي علي كل ما بها من فقر كانت لا تزال تتسم بقدر من الاحساس بالعار عند حضور أسبابه، وهو الأمر الذي أتصور أنه قد انتفي من حياتنا اليوم أو كاد، وهذا الفارق قد يفيد هواة عقد المقارنات بين مصر الملكية ومصر اليوم.

فارق آخر أساسي يمكن أن نلمحه هو أن محجوب عبد الدايم وسالم "ابن العجانة" وكل أشباههم من الراغبين في بيع أنفسهم كان بإمكانهم أن يجدوا أثرياء فاسدين مستعدين للشراء، وكان ضيق العيش في ذلك الزمان يطحن فقط أولئك الذين يصرون علي أن تكون لقمتهم شريفة، لكن المستعدين للبيع كانوا مع بعض الصبر دائماً ما يجدون المشتري. أما اليوم فإن هناك معاناة من نوع عجيب قد يكون مضحكاً وداعياً في الوقت نفسه للبكاء.. تلك هي معاناة أولئك الذين حسموا أمرهم وقرروا أن يتخلوا عن الأخلاق والشرف والكرامة وأن يبيع المرء منهم أمه وأباه وزوجته، غير أن ضيق المجال ووفرة المعروض من الأنذال يجعلهم يتطاحنون علي اللقمة الخبيثة وقد يقتل بعضهم بعضاً في خناقة علي توريد امرأة لرجل أقام مناقصة للحصول علي الأقل سعرا والأعلى جودة!

و يكفي للإستدلال علي مأساوية الحالة أن يقوم أي أحد ولو علي سبيل الاختبار بطلب شهود

زور قد تلقي شهادتهم ببريء في السجن مقابل مائة جنيه للفرد، وأنا متأكد أن النتيجة ستكون مروعة من حيث عدد المتقدمين ونوعياتهم ومؤهلاتهم!

هذه هي المشكلة الآن. عدد المستعدين للتفريط أصبح ضخماً للغاية، لكن أفق الخيانة مسدود أو يكاد في وجه المستجدين، والمجال الحيوي للنذالة صار ضيقاً للغاية، حيث أن عدد الكفلاء الطالبون للخدمات البشعة وغير المعقولة، المستعدون لإيواء واستخدام هؤلاء لا يفي باستيعاب الأعداد الوافدة يومياً تطلب العضوية العاملة في نادي الأنذال!

أنا لا أنكر أن الحكومة تقوم بمحاولات علي قدر عزم رجالها لضمان لقمة العيش الشريفة للمواطنين، لكني لا استطيع أن أتجاهل أن جهود الحكومة في هذا الشأن تقصر عن بلوغ المراد. وأن جل ما أمكنها تقديمه في الفترة الأخيرة هو صفقة المائة وعشرون ألف خادمة اللائي سيشددن الرحال إلي دولة شقيقة عُرفت بحب مصر وتكريم العمالة المصرية. لكن حتي إذا قامت الحكومة بعمل معجزة واستطاعت من خلال وزن مصر ودورها الاقليمي ورصيدها الحضاري في المنطقة أن تصل إلي اتفاق لتشغيل مليون أو ٢ مليون خادمة، علاوة علي مليون أو ٢ مليون كنّاس، ي بحيث لا يخلو بيت أو شارع خليجي من نفحات مصر واشراقها علي محيطها العربي، فإن هذا في النهاية لن يكون كافياً لأن هناك الملايين غيرهم سيبقون بلا عمل، كما أن حاجز اللغة سيظل عائقاً عن الوصول لاتفاقات مماثلة مع دول الاتحاد الاوربي ودول الكونكاكاف.

و لأنني أري أن حكومتنا مثل كل حكومات الدنيا هي حكومة كل المواطنين، الشرفاء منهم والأنذال (خصوصاً أن الأنذال يملكون بطاقات انتخابية)، فإنني لا أتحرج من الدعوة إلي أن تنهض الحكومة بدورها كاملاً في خدمة مواطنيها، وكما تفكر في توفير لقمة عيش شريفة للشرفاء عن طريق توظيفهم في مشروعاتها ومناشدة أصدقائها المستثمرين القيام بدور في تشغيل العاطلين، وابرام اتفاقات تشغيل مع الدول المحبة للمصريين. عليها أيضاً أن تجد حلاً لفئة كبيرة من المواطنين ممن صاروا يقبلون الفساد ولا يمانعون في أكل العيش من أي طريق. وأنا لا أعرف علي وجه الدقة كيف يمكن أن يتم هذا، لكني أتصور أن ضخ مزيد من الفساد في السوق قد يعمل علي توسيع قاعدة الفاسدين الذين بدورهم سيحتاجون لخدمات الفقراء المستعدين للبيع. فيعم الخير علي الجميع وننقذ السلام الاجتماعي المعرض للإنهيار!

هذا أو علينا أن نتوقع انفجاراً قريباً لن يبقي ولن يذر بعد أن يتجمع الأنذال الجدد الذين

تـنعتهم الحكـومة بقسـوتها وإهمالها ثم تخلت عنهم دون الاستفادة من نذالتهم ، ويقومون بتنظيم صـفوفهم مطالـبين بحقهـم في القيام بالأعمال القذرة ، وقد يأخذ تمردهم أشكالاً جديدة تختلف عن حـتجاجات الطلـبة والعمـال الشرفاء وتتسم بالغدر والضرب تحت الحزام وابتداع فنون من الأذى حـوطن تليق بالأنذال والخونة الذين سُدت في وجوههم حتي سبل الخيانة !

مصر في الهولوكوست

ليست هناك كلمات تكفي لرثاء شهداءنا الذين احترقوا حتي الموت في قصر ثقافة بني سويف . كان من الممكن أن يكونوا وسط عائلاتهم اليوم لو لم يكونوا مصريين . . ذنبهم الأكبر الذي بسببه حترقوا أنهم عاشوا بيننا في هذه الخرابة المسماة وطن ، يبدعون وينشرون الفن والنبل والأصالة .

لقد أصبحت مصر مكاناً محفوفاً بالمخاطر للعيش فيه ، يمكن للمرء هنا أن يموت لأسباب لا تحدث في أي مكان في العالم ، أسلاك الكهرباء العارية في الشوارع والأماكن العامة تصعق من يمر بها كل يوم ، حوادث الطرق تريق دماء المصريين علي الأسفلت ، القطارات تتصادم أو تحترق . كأنما لا تكفينا سرطانات يوسف والي . هل هناك غير مصر بلد يموت الناس فيه بالسقوط في البالوعات؟ وهل هناك غير مصر بلد تسقط فيه العمارات الحديثة علي رؤس السكان بدون إنذار؟

لا أحد يأمن في مصر ، لا أحد آمن سوي الذين نشروا الخراب ، فئة قليلة جداً من الناس هم الذين لا يمكن أن يحترقوا ، الحكام فقط هم الذين لم نسمع أبداً أن أحداً منهم لقي مصرعه حرقاً أو سقط في بالوعة مفتوحة ومات باسفكسيا الخنق أو أصيب بالتسمم أو لقي مصرعه دهساً تحت عجلات سيارة بلا فرامل . أنابيب البوتاجاز لا تنفجر بمنازلهم علي الإطلاق ، جمال حمدان . . هل تعرفونه؟

مات محترقاً داخل شقته . الذين يمنحون مصر قيمة يحترقون ، أما الذين ينتقصون من قيمة مصر لا تمسهم النار . . الماس الكهربائي لا يعرف طريقه إلى منتجعاتهم أبداً ، إنهم يفتدون أنفسهم بمصر كلها ، يؤمنون أنفسهم ويتركون الناس تتضور من الإحتياج إلى الأمان وافتقاد الحماية ، ميزانية البلد وناتجها القومي مخصص لرفاهية وحماية بضعة الاف قليلة من البشر في هذا البلد ، وعشرات الملايين من المصريين لا يتمتعون بالأمن في بيوتهم لأن العسكر كلهم في التشريفة . وكم تستغرق هذه التشريفة؟ ٢٤ ساعة في اليوم . . طوال السنة ، أي تستغرق العمر كله . أمس ساعدني رجل المرور علي الركن في الممنوع ، كنت متردداً . . هو الذي طمأنني وقال لي : "ما تخافش أنا واقف" فنفحته جنيهاً . . لا أدري ماذا يفعل المسكين إذا انضبط الناس وكفوا عن المخالفات . . إنه في المحرقة أيضاً ولقمة عيشه مرتبطة باستمرار الخراب ، مثله مثل المدرس الذي يُعد أسوأ كوابيسه أن يجد تلاميذه شُطّار لا يحتاجون لدروسه الخصوصية ، فيبذل أقصي ما في وسعه للإبقاء عليهم . . بهائم!

تتساءل السيدة المكلومة المتشحة بالسواد أثناء جنازة شهداء المسرح : هؤلاء المسؤولون عن الجريمة الذين تركوا أجل الناس يحترقون ويتفحمون . . ألا يخشون الله ؟ . . آسف يا سيدتي لأنني ضحكت رغماً عني من سؤالك . . إنهم يا سيدتي لا يعرفون عن الله سوي انه مادة طيبة يمكن استخدامها في الانتخابات لتخويف الناس من عدم التصويت لمرشح الحزب الوطني ، كما يمكن استخدامها لحث الناس علي طاعتهم باعتبار هذه الطاعة أمراً إلهياً ! هل نسيتم موقف شيخ الأزهر والبابا شنودة بعد أن أصبحا يهتديان بتعاليم كمال الشاذلي والسيد راشد .

في العزاء تكرر السؤال بصورة أخرى . . وقف أحد الطلبة رافعاً لافتة موجهة للمسؤولين عن الكارثة مكتوب عليها : هل أنتم مصريون مثلنا؟ يا أخي . . إن المتحكمين في مصر حالياً ليسوا مصريين . . بجد ليسوا مصريين ، ليس فقط لأنهم يحملون جنسيات أخري ولكن لأنهم بطبيعتهم ومصالحهم عولميون ينتمون إلى الكوكب كله ، رغم أنهم لا يحلبون سوي جزءاً بسيطاً وعبيطاً من الكوكب إسمه مصر .

و الذين يلومون مصطفي علوي باعتباره صاحب المحرقة لا يراعون ظروف الرجل . . يا ناس إنه مشغول بمستقبله السياسي في لجنة السياسات ولا يشغله قصر ثقافة بني سويف أو غيره ، لا أبالغ إذا تصورت أنه يحتقر كل قصور الثقافة وينظر بتقزز إلى الفنانين وعروضهم المزعجة ولا يري في الموضوع كله أي فائدة سوي أنه خطوة علي الطريق ليصبح وزيراً مثل سلفه أنس الفقي ولو كره الوزير الفنان .

و بمناسبة الوزير الفنان الذي أدخل المثقفين الي " الزريبة " أو الحظيرة بنص تعبيره ، فقد قام مثقفو الحظيرة بإرسال بيان ناشدوا فيه فاروق حسني البقاء وناشدوا الرئيس مبارك عدم قبول الإستقالة . . أضحكني البيان جداً لأنه ذكرني بلافتة شديدة العبقرية في سفالتها علقها أحد المشتاقين الظرفاء في بورسعيد أثناء انتخابات الرئاسة . . كتبها باللغة الإنجليزية كالتالي :

Some more hosny please

بيان المثقفين يشبهها تماما من حيث هو موجه إلى حسني الرئيس من أجل حسني الوزير والترجمة : "شوية كمان يا حسني عشان خاطري " .

إن مصر قد قطعت شوطاً كبيراً علي طريق الجنون ، فالمحرقة اليومية غيرت التركيبة الكيميائية للعقل المصري ، وأخشي أنه في وقت ليس ببعيد ستتحول كيمياء الدماغ لدي ملايين المصريين في

نجاء التوحش المنفلت فيضرمون النار في كل شيء حتي أنفسهم.

كلمة أخيرة:

قال أمل دنقل في "أغنية الكعكة الحجرية":

في الدرجات الأخيرة من سلم المقصلة

أتحسس وجهك

هل أنت طفلتي المستحيلة أم أمي الأرملة؟

زمن الموت لا ينتهي يا ابنتي الثاكلة

قبليني.. ولا تدمعي!

سحب الدمع تحجبني عن عيونك..

في هذه اللحظة المثقلة

كثرت بيننا السُتُر الفاصلة

لا تضيفي اليها ستاراً جديد!

مسرحية يصدر عنها قبح!

المشهد الأول

"القبض علي أحمد عبد الفتاح مستشار السيد يوسف والي وزير الزراعة متهما بتقاضي رشوة قدرها مليونين من الجنيهات من صاحب مزارع الريف الأوربي".

كان أحمد عبد الفتاح يعرقل مصالح الرجل ويعوق تسليمه الأرض المتفق عليها بينه وبين الوزارة والتي يقوم بتأهيلها وجعلها صالحة للزراعة، ثم يطرحها للبيع للجمهور. وقد لاحظ حميع الفارق الشاسع بين سعر بيع وزارة الزراعة للفدان لصاحب مزارع الريف الأوربي (مائتا جنيه للفدان) وبين بيع الرجل لنفس الفدان بعد استصلاحه (ستون ألف جنيه). هذا الفارق الوحشي ربما هو الذي دفع أحمد عبد الفتاح لمحاولة الدخول علي الخط والحصول علي نصيبه من الجيرة التي تثير غدد الإجرام في الإنسان وتدفعها للإفراز بقوة!

و علي الرغم من أن صاحب المزارع قد حاول تبرير السعر الغالي الذي يبيع به للجمهور بأن استصلاح الفدان يتكلف الكثير، فإن الناس لم تصدق هذا الكلام، وأحمد عبد الفتاح لم يصدق هذا الكلام واعتقد أن الرجل يريد أن يلهط وحده، فأراد أن يأخذ "كادر في الألولو" إلى جواره. فطلب الرشوة وتم القبض عليه وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن عشر سنوات.

المشهد الثاني

أحمد عبد الفتاح في السجن يجتر أحزانه ومراراته، تنهشه الوحدة يوماً بعد يوم ويأكله الغيظ والإحساس بالظلم، ليس لأنه بريئاً لا سمح الله، بل لأن أساتذته ومعلميه أصحاب براءات الاختراع لكل ما عرفه من فنون وما مارسه من إبداعات يرفلون في النعيم خارج السجن وقد ارتكبوا من الجرائم ما يفوق ما ارتكبه مئات المرات، هو وحده الذي دخل السجن، هو وحده الذي تم التشهير به وبأسرته، وصودرت أمواله ولاكت الألسن سمعته. تتداعي إلى ذهنه صور العمليات التي قام بها طواعية وتلك التي كُلف بها، ويشعر بأنه لا يستحق هذا المصير وحده، وبأن العدل كان يقتضي أن يجاوره علي البُرش آخرون ممن أكلوا لحم مصر ومصمصوا عظامها ونكّلوا بأهلها وعاثوا في الأرض إجراماً وإفساداً وإثراءً من الحرام، وقد كان أقلهم توحشاً وأهونهم شأناً.

المشهد الثالث:

أحمد عبد الفتاح يكتب بخط يده اعترافاً بمزيد من الجرائم التي ارتكبها ، والتي لم يعاقبه عليها القانون لأنها لم تكتشف ، ويدفع به إلى محاميه الأستاذ أمير سالم الذي يتقدم للنائب العام طالباً فتح التحقيق فيما ورد في اعتراف موكله . الإعتراف الذي كتبه عبد الفتاح خطير للغاية يتهم فيه أسماء كبيرة بأمور لا يتصورها عقل . . وكيف يتصورها العقل وهو يتهم اثنين يصعب في الظروف الطبيعية أن تعلق بمن كان في منصبيهما شائبة أياً تكون ، الأول هو هتلر طنطاوي رئيس الرقابة الإدارية السابق ، والثاني هو عادل عبد السلام جمعة . . القاضي الشهير أحمد عبد الفتاح يتهم نفسه بتقديم رشوة للقاضي الذي تم اختياره لمحاكمة صحفيي جريدة الشعب مجدي حسين وصلاح بديوي وعصام حنفي علاوة علي عادل حسين ، ويكتب عبد الفتاح في اعترافه أن الرشوة كنت مقابل أن يصدر القاضي حكماً في القضية ينتقم به للسيد يوسف والي من خصومه الذين فضحوه . لا يكتفي أحمد عبد الفتاح باتهام القاضي الذي حكم بالسجن علي كل خصوم الحكومة الذين وقفوا أمامه مثل صحفيي الشعب السالف ذكرهم ، إضافة إلى سعد الدين ابراهيم وأيمن نور والصحفي أحمد عز الدين وغيرهم ، وإنما يضيف إلى لائحة اتهامه رئيس الرقابية الادارية السابق هتلر طنطاوي ، فيقول بأن الأخير هدده بفضح العلاقة بينه وبين القاضي جمعة وأن شرائط تسجيل في حوزته تسجل جريمتهما بالصوت والصورة ، ويضيف عبد الفتاح بأن طنطاوي طلب مبلغ ٩٠ ألف جنيه مقابل سكوته ، مما اضطره للذهاب إلى منزل القاضي واستلام مبلغ الرشوة وتسليمه لطنطاوي .

المشهد الرابع:

اللواء هتلر طنطاوي يتوجه إلى النائب العام طالباً بنفسه التحقيق في الإتهامات التي ساقها السجين أحمد عبد الفتاح إبراء لذمته وصوناً لسمعته التي لا يقبل أن تعلق بها شائبة وهو الرجل الشريف الذي اشتغل بمحاربة الفساد . كذلك المستشار عادل عبد السلام جمعة لا يحتمل أن يتم اتهامه بالرشوة بعد هذا العمر في خدمة العدالة . فيذهب للنائب العام طالباً إجلاء الحقيقة من أجل سمعته وهو القاضي النزيه .

ملحوظة : المشهد الرابع لست متأكداً تماماً من أن أحداثه جرت بالفعل ، لكني غامرت بكتابته لإدراكي أنها سوف تحدث لا محالة ، وقد راهنت أحد أصدقائي علي ذلك بمبلغ كبير ، وأريد أن أحصل علي المبلغ ، ولكن بدون وساطة أحمد عبد الفتاح .

التجربة التي تذيب الجلاميد

لقد آلمني أشد الألم ما حدث مع التلميذة آلاء مما تناولته الصحف طوال الأسبوع الماضي. وسبب الألم أن الأمر مثّل عندي ارتفاعا كبيرا في منحنى كنت أظنه يرتفع بسرعة أقل. ذلك هو منحنى الاحساس بالجوع أو الرعب منه.

هل يظن أحد أن المدرس الذي كانت ورقة آلاء من نصيبه هو رجل يشعر بالأمان ويطمئن إلى أن ثلاجته بالمنزل ستظل ملأى بالأطعمة التي تكفيه وتكفي أسرته ما دام يؤدي عمله باحترام في وطن طبيعي يحفظ للبشر انسانيتهم؟ هذا الرجل بالتأكيد تسكنه المخاوف و ينهشه الشك في أن هذا الوطن يحفظ للناس حقوقا أو لقمة عيش كريمة، ولا أعتقد بحق أن ما كتبته التلميذة آلاء في موضوع التعبير قد أزعجه أو ساءه فعلا.. فهو لا شك في داخله يتفق مع البنت في سفالة سلوك الرئيس الامريكي الذي قتل مئات آلاف الأطفال العراقيين، وبالتأكيد يتفق معها في أن التعمير لا يمكن أن يتحقق علي يد حكومة تمضي بهمة نحو تخريب ما هو قائم ولا يخطر ببالها أي تعمير!

فما الذي دفعه إذاً بدلا من أن يمنحها الدرجة التي تستحقها طبقا لسمو تعبيرها عن أفكارها وجودته (و ليس فحوي هذه الأفكار) فيقوم سيادته بالجري نحو رئيس الكنترول يزف اليه خبر العثور علي جريمة في ورقة الأسئلة؟

السبب في تقديري أن الجوع يضغط علي أحشائه بشدة فيفقد صوابه في وقت يعلم فيه أن التجويد في المهنة وتحصيل مزيد من العلم والقيام بالتدريس بضمير يقظ لن تحمل إلى صحونه أي طعام إضافي، بالعكس.. قد تقلص ما يحصل عليه بالفعل وهو قليل بطبعه، لأن زملاءه ورؤساءه لن يسمحوا له بأن يحرجهم بأي أداء متميز أو حتي عادي!

و لا شك أن الرجل يلاحظ كما نلاحظ جميعا أن تناسبا طرديا يحدث في المجتمع بين "السفالة" التي تحدثت عنها آلاء وبين ارتقاء المناصب واعتلاء الكراسي الجالبة للطعام الفاخر، ويري كما نري أن الوشاة قد أصبحت لهم اليد الطولي في هذا الوطن فأصبحوا رؤساء جامعات ومحافظون ورؤساء تحرير وزراء أيضا، وأن الوشاية صارت هي الباب الملكي لعبور خط الفقر وولوج دنيا الأطايب. وربما لهذا فقد تصور المسكين أنه بوشايته قد يشق طريقه لفوق ويرضي الأسياد الذين لا

يرضيهم الطبيب من الأعمال ، فقرر أن يدمر مستقبل الطفلة العنيدة التي لم تتأثر بتدريسه هو وزملاءه ولم تتعلم منهم الخور والوهن وحب قاتلينا .

إن قصة آلاء مع مدرسيها هي قصة الموظف العمومي في بر مصر مع الجوع والحرمان ، وهي نتيجة طبيعية لسياسة تجويع الموظفين من أجل اغتيال ضمائرهم . لقد حذر أساتذة فضلاء كثيرون من خطورة تجويع الموظف العمومي وسحب ثوب الستر من فوق جسمه ، وبيّنوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت وقضية أمن قومي ، وها نحن نري ما حل بالوطن الذي أصبح خرابة نتيجة أن الموظف العمومي يتقاضي راتبا رمزيا لا يكفيه . ان أي بلد يحكمه أناس راشدون يدرك بالتأكيد كارثة أن يجوع المهندس أو رجل الشرطةأو المدرس أو القاضي ، ويدرك أن الموظف الذي يمتلك ختم النسر لا يصح أن نتركه في مسغبة وجوع لأنه ببساطة سيبيع الختم لمن يدفع وعندئذ تنهدم العمارات فوق ساكنيها ويتم الاعتداء علي الحقوق ونهب أموال الناس وموت المرضي المستحقون للعلاج وتلوث الغذاء واحتراق القطارات وغرق العبّارات . . ولو كان الموظفون الذين قاموا بالكشف علي مراكب ممدوح اسماعيل "الخردة" لا يشعرون بالجوع لما وقعوا له الأوراق التي سمحت بإغراق المصريين في البحر في أكثرمن كارثة بحرية . ثم الإفلات من العقوبة لأن الأوراق سليمة !

إن مستقبل هذا البلد وخططه التنموية وامكانية نهضته كلها مرهونة بحماية الموظف العمومي من الجوع والإهانة حتي لا يسرح علي الخريطة ينشر الخراب والدمار والعفن كما يحدث الأن بحيث تحولت مصر علي أيدي موظفيها الجوعي إلى خرابة تحيا فينا وليست فقط خرابة نحيا فيها !

كلمة أخيرة :

"بين أن تختبر الجوع بأمعائك وخمسين كتابا عن القمح . . مسافة من التجربة التي تذيب الجلاميد " الشاعر قاسم حداد .

مصر على شفا الحرب الأهلية

بصرف النظر عن الكذب الحكومي المزمن الذي جعل الناس تأخذ بسخرية أي كلام حكومي .
وبصرف النظر عن "المختل عقلياً" المسكين الذي حملته الحكومة كل الجرائم التي تعرف مرتكبيها الحقيقيين وتعجز عن مواجهتهم . . بصرف النظر عن هذا فإن الحكومة هذه المرة وهي تستخدم كذبة المختل عقليا التي أدمنتها طويلا في التعامل مع الجرائم المحرجة لها لم تكن تدري أن المجرم الذي أشعل الفتنة في الاسكندرية هو مجنون فعلا ، وانه أعفاهم هذه المرة من القبض على أسرته وتعليقهم في السقف حتي يكتبوا إقرارات بأن ابنهم متربي في السرايا الصفرا من يوم مولده ! .
ولكن هل جنون الفاعل يعفي الحكومة وأطراف أخري من المسؤولية؟ ألا يصح أن نحاسب من دفعوه للهوس والجنون ودفعوا الوطن كله إلى شفير الهلاك؟

أكاد أجزم أن الملايين من أبناء مصر المسلمين والاقباط يقفون الان على الخط الفاصل بين اخر درجات الإتزان وأولي خطوات الجنون وينتظرون فقط دفعة صغيرة ليبدأوا الحريق الكبير وسيكون للحزب الوطني شرف اندلاع أول حرب أهلية في تاريخ مصر على أياديه المباركة ، فالنظام الحاكم هو الذي يدفع الناس دفعا إلى التصرفات المجنونة وذلك في رعونة لا مثيل لها ، فالظلم الذي يتعرض له المواطن في هذا البلد أخذ في العصف بما تبقي في العقول من حكمة وفي النفوس من محبة وتسامح ، وإلا فليفسر لنا أحد مشاعر الرضا التي يستقبل بها المسيحيون في مصر إلقاء القبض على مسلمين أبرياء لا يقدمون إلى المحاكمة أبدا ويظلون في السجون بلا نهاية ، ولماذا لا نجد أي تعاطف من الأقباط مع هؤلاء المعتقلين؟

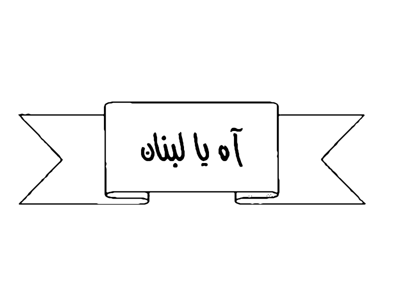
الاجابة الحزينة هي أن السلطة قد ألقت في روعهم أن هؤلاء الناس ينبغي سحقهم والقضاء عليهم دون شفقة ، وزرعت لديهم الرعب وجعلتهم يميلون للدفاع عن الطوارئ ويؤمنون بأن القانون الطبيعي فيه هلاكهم ! ، كذلك فاقمت السلطة من احساسهم بالاضطهاد وضيّقت مدي الرؤية لديهم فلم يعودوا يعرفوا عن حقوق الانسان في مصر سوي انها حقوق الانسان القبطي ! .
في نفس الوقت الذي سمحت للدعاة التليفزيونيين وخطباء المساجد الذين تملي عليهم خطب الجمعة بأن يشبعوا المسيحيين نقدا وتجريحا وتشكيكا في عقائدهم واتهاما صريحا لهم بالكفر ، وغذّت الاتهامات لهم بعدم الوطنية والاستعانة بالاجنبي ولي ذراع الدولة .

و لكي تبرهن السلطة للمسلمين علي ذلك فقد قامت عن عمد بتقديم تنازلات غير قانونية للاقباط في قضايا مثل حكاية وفاء قسطنطين، كما أنها احتملت ضرب المتظاهرين الأقباط لرجال الأمن ، وهذا ما رأي المسلمون فيه تمييزا وتدليلا للأقباط لا يحظون هم بمثقال منه . والنتيجة أن الأقباط باتوا يعتقدون أن الدولة تظلمهم وتحجب عنهم حقهم في الوظائف العليا وتمارس ضدهم التمييز وتشهر بمعتقداتهم لدرجة احساسهم بالغربة في وطنهم . . وكل هذا صحيح . والمسلمون باتوا يعتقدون أن الدولة تحاربهم وتناصر الاقباط الذين لهم ظهير دولي ممثلا في القوي الكبري وجماعات أقباط المهجر وان الكنيسة صارت هي دولة الاقباط التي تعلو فوق الدولة المصرية لدرجة احساسهم بالغربة في وطنهم . . و كل هذا صحيح أيضا !

فالسلطة في مصر تعادي المسلم والمسيحي من حيث كونها ضد الانسان المصري في العموم ، وما تقدمه للطرفين لا يخرج في حقيقته عن الخرز الملون الذي كان المستعمرون البيض يقدمونه للأفارقة مقابل الاستيلاء علي أراضيهم وحقوقهم . . أما الحقوق الحقيقية للمواطن المصري مثل الحق في الحرية والمساواة والاعتقاد والحق في العمل والمسكن وتكوين الاحزاب فدونها خرط القتاد . ويصل الأمر لدرجة تحريف الوعي الذي يجعل الأقباط يتصورون الحصول علي حصة طائفية من المناصب ومن مقاعد مجلس الشعب هو منتهي المني ، فتتركهم السلطة يمنحونها تأييدهم وبركات سلطتهم الدينية ثم لا تعطيهم شيئا . . فيتصور الأقباط أن المقاعد التي شغل معظمها المزورون وتجار الصنف والأميون والهاربون من التجنيد وأصدقاء سميحة . . يتصورونها تعبيرا عن انتصار المسلمين، غير مدركين أن المسلمين لم يحققوا أي شيء سوي انهم اشتروا السلطانية التي يأبي الأقباط إلا أن يأخذوا نصيبهم منها ! ، مع ان نضال المسلم والمسيحي يجب ان يصب في خانة وصول المناصب العليا لشرفاء الوطن دون النظر إلي دينهم . ووصول مقاعد المجالس إلي الوطنيين الذين يحبون هذا البلد ويرغبون في خدمته من خلال انتخابات خالية من التزوير دون النظر ايضا إلي دينهم .

فوق الدولةففوزب واليوم أسوأ صورة يمكن أن نراها هي صورة قسيس يعانق شيخا وهما يرسمان ابتسامة بلاستيكية متسامحة أمام الكاميرا ، في حين أن القاصي والداني يعرف أن هذا الشيخ وذياك القسيس غير صادقين في ابتساماتهما وان كلا منهما يحرض اتباعه ويملأهم بالحنق والتعصب لأن دروس الشيخ والقسيس نري أثرها في الشارع الحانق . فالشيخ أي شيخ هو موظف حكومي يدافع عن كل خطايا الحزب الوطني . والقسيس أي قسيس هو تابع للبابا ومؤتمر بأوامره التي تدعو لتأييد الحزب الوطني ومرشحيه ورجاله . .

أما الحزب الوطني وقادته الذين أمنوا لأنفسهم أوطانا بديلة سيهرعون اليها عند الحريق الكبير فهم يضحكون الآن ملء اشداقهم على الشيخ والقسيس وأتباعهما من البؤساء الذين يشنون هجمات على بعضهم البعض ثم يلوذون بالحزب الوطني ليحميهم من الآخر .. الشرير !


آه يا لبنان

أنت السيد وسواك... المسوخ

أشعر بالخجل وانا أنظر إلى مواقف الحكام العرب مما يجري في لبنان . لقد قاموا طوال الشهر الماضي ببذل كل ما يستطيعون من أجل إرجاع الأسير الاسرائيلي الذي وقع في أيدي الفلسطينيين . ومارسوا كل الضغوط علي حماس وعلي سوريا حتي يعود الولد إلى حضن أمه الست أم جلعاد . . فإذا بحزب الله يعمق جراحهم ، وبصعب الحياة عليهم بأسره جنديين آخرين . ويترك السادة يتخبطهم المس لا يدرون ما يفعلون .

و إذا كان اجتماع وزراء الخارجية العرب لم يفعل شيئا لإعادة الأسيرين لأمهاتهم الدامعات . فإن الأمل معقود علي قمة عربية تضع الأمور في نصابها وتعلن للعالم الموقف العربي المتحضر في إدانة الاعتداء اللبناني علي جيش الدفاع الاسرائيلي في مغامرة غير محسوبة بقيادة المغامر السيد حسن نصر الله .

بعيدا عن الهزل أقول انني لم أتمالك نفسي وأنا أستمع إلى بيان السيد حسن نصر الله وشعرت بشحنة كبرياء تملأ كياني ، ذلك لأنني لا أنتمي إلى فصيلة العقلاء ولا الحكماء الذين ذبحوا الأمة بحكمتهم وعقلانيتهم . إننا لا نملك أي شئ نخاف عليه ، وظهورنا إلى الحائط ، وبعد مرور ٣٣ سنة علي آخر الحروب أصبحنا نأكل طعاما ملوثا ونشرب مياها قذرة . . و ليس لدينا من حطام الدنيا الفاني سوي يوسف والي وكمال الشاذلي ومصطفي الفقي وأحمد عز والسيد راشد ، ومجموعات أخري لا تقل روعة عنهم . . فهل نخشي إذا قمنا باستفزاز اسرائيل أن يضيعوا منا في غمار عدوانها علينا؟!

إن الاستاذ شارل أيوب رئيس تحرير جريدة الديار اللبنانية يبدي الذهول من فكرة الوساطة التي يقوم بها الحكام العرب بين المقاومة العربية وبين إسرائيل ، ويراها مسألة مهينة للغاية . فماذا لو عرف الرجل أنه لا وساطة ولا يحزنون ، وأن الحكاية لا تخرج عن لعبة توزيع الأدوار التي يقوم بها الاسرائيليون بأجنحتهم المختلفة!!

و إذا كان العقلاء من بني جلدتنا ينعون علي حزب الله انه استفز الوحش وتسبب في دمار لبنان ، أو كما قال أحد المستظرفين العقلاء أنه يشفق علي العرب من ضربات اسرائيل المجنونة لأنها علي حد قوله : " خُلقها ضيق وروحها في مناخيرها ونظرها علي قدها وايديها طرشة " . . اه والله تحدث هكذا في قناة العربية . . فإنني أقول لهم أن الحياة تحت أنياب الوحش وفي أحضانه لا

تعد سلاما نخشي من فقده، وان اسرائيل لم تتوقف يوما عن ممارسة الاعتداءات علينا بسبب وبدون سبب، وللشيخ أحمد ياسين رحمه الله قول شهير هو ان "الاسرائيليين سيقتلونا إن قاومنا وسيقتلونا إن ألقينا السلاح . . فماذا تختارون؟"

لهذا فبدلا من أن نلوم حزب الله الذي حاول أن يسترد أسري العرب، يجب أن نحاسب الحكام الأشاوس الذين لم يمدوا للمقاومين يدا وتركوهم يقعون في الأسر ولم يبذلوا أي جهد لتحرير أسير عربي واحد كما فعلوا من أجل الجندي الصهيوني، وإذا كان رد الفعل الاسرائيلي عنيفا جدا فلا يجب أن نلوم من يتصدي للوحش، بل يجب أن نحاكم الحكام الذين أوصلونا إلى منتهى الضعف وأخرجوا مقاومة العدوان من المعادلة، وجعلوا الخيارات المتاحة أمامنا هي الاستسلام أو الموت. لهذا فمن الطبيعي أن كراهية كثير من الحكام العرب للسيد حسن نصر الله تفوق كراهية الاسرائيليين له، وحنقهم عليه يفوق الحنق الاسرائيلي. لأن اسرائيل علي الأقل تستطيع أن تنعته بما شاءت من أوصاف، أما أشاوسنا الحكماء فيجذّون علي أسنانهم وهم يتحدثون عن المقاومة المشروعة والأخري غير المشروعة، أو عن المغامرات غير المحسوبة وكأنهم يتحدثون عن أرسين لوبين أو سابايدرمان، وليس عن القائد العربي الوحيد الذي أخرج الاسرائيليين قسرا من أرض محتلة بدون اتفاقيات أو تنازلات أو جلوس علي طاولات.

أما الذين يتحدثون عن أجندة ايرانية أو أجندة سورية فأتوسل اليهم ألا يرددوا كلام العدو . . مالها الأجندة الايرانية إذا كانت مؤيدة للحق العربي ومعادية للوحش الذي يحتل أراضينا؟ وما المشكلة إذا كانت اسلحة حزب الله ايرانية أو سورية؟ وهل أمده العقلاء الذين ينفقون المليارات سنويا علي التسليح بأي شئ فرفض وقال أريد أسلحة ايرانية يا بلاش!

ان اسرائل لا تخشي أسلحة حزب الله، فلديها ما يفوقها الاف المرات، انما تخشي أخطر سلاح يملكه العرب والمسلمون اليوم: السيد حسن نصر الله . . هذا الرجل الذي إذا وعد أوفي، هم يعلمون أنه لا يكذب، فإذا قال لهم: علي سكان بئر سبع أن يلزموا الملاجئ هذه الليلة، فمن المؤكد أنهم سيمتثلون، لأنهم جربوه وخبروا أنه يعني ما يقول. هذا الرجل قدم للأمة العربية ما كانت في حاجة اليه . . الأمل، وبإذن الله لن ينحني ولو وقفت ضد سيفه كل الشيوخ، والرجال التي ملأتها الشروخ، أولئك الذين يحبون طعم الثريد، وامتطاء العبيد، وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ . . لا تصالح يا نصر الله، فليس سوي أن تريد، انت فارس هذا الزمان الوحيد وسواك . . . المسوخ.

مع الرصيص... ذاك أفضل!

مـا زال العدوان الإسـرائيلي يتواصل علي الشعب اللبناني، ومازال الزعماء العرب يبذلون كل ـ في طاقتهم لضمان القضاء علي المقاومة وقتل آخر نفس فيها.

لم يعـد المـرء يأمل في أن يقف الحكماء العرب إلى جوار شعب عربي يتعرض للإبادة، أصبحنا نضـرع إلى الله أن يقلل من منسوب حكمتهم وأن يُهدئ قليلا من تعقلهم، حيث أن أعداد الضحايا وحجـم الـدمار الناشـئ عـن هكذا حكمة لم يعد في الامكان احتماله. وأملنا أن يتوقفوا عن ضخ ـزيد من الحكمة التي أصبح الشارع العربي يراها مرادفة للذخيرة في مدافع العدو، ومرادفة للنزف ي شرايين الأمة.

نطلـب مـن الله أن يلـهم السـادة الـزعماء العـرب أن يقفوا علـي الحياد، وأن ينظروا إلى لبنان ـضرتهم إلى جواتيمالا أو نيكاراجوا، ولا يعقـدوا بشأنها أي جلسات أو اجتماعات ولا يدعون جامعـة العربية للإنعقاد وإصدار البيانات.. لأن بياناتهم الكاريكاتورية لم تعد تسلينا.. أصبحت ـزننـا وتدميـنا. ولقـد كـان السيد حسن نصر الله مصيبا عندما قال انه لولا الدعم العربي والغطاء ـعربي للعدوان الاسرائيلي لما جرؤ علي الاستمرار!.

لقـد كـنا نـتصور في السـابق أن العلاقات المتميزة بين معظم الدول العربية وبين اسرائيل –رغم ـفضنا لهـا- هـي شـيء يمكـن الإسـتفادة مـنه للجم الوحش العقور عبر ممارسة الضغط عليه عند حاجـة.. بمعـنى أن العلاقـات الدبلوماسـية والـتجارة المتبادلة واتفاقيات البترول والغاز والتعاون ـزراعـي الـذي لـوث غـذاءنا، والكويز والبكلويز.. كل هذه الأشياء كنا نتصورها أوراق ضغط ـستطيع أن نقـايض بهـا علـي وقف الاعتداءات علي لبنان أو فلسطين أو سوريا أو أي بقعة عربية تتعرض للعدوان. الآن أدركت حجم حماقتي إذ عرفت أن هذا التعاون هو سيف علي رقبتنا نحن، وأن اسرائيل هي التي يمكنها التهديد بسحب السفير ويمكنها التلويح بإغلاق المراكز الثقافية ومراكز التجسس في طول البلاد وعرضها. وهو الأمر الذي لا يحتمله الحكماء منا، لأن الحكماء فضلا عن حبهم العـارم لإسـرائيل يعـتمدون تمامـا علـيها ويـرون أن اسـرائيل القـوية هي الضمانة الأكيدة لاستمرارهم علي المقاعد وخلودهم السرمدي في الحكم.

و لا يستغربن أحد من الإستخذاء الذي يبدو عليه القادة العرب إزاء ايهود اولمرت رئيس الوزراء الاسرائيلي ، فالحقيقة التي لم تعد تدهش أحدا أن أي حاكم في أي دولة في أي بقعة علي الكرة الأرضية . . إذا لم يكن منتخبا من شعبه ووصل إلى السلطة بالإغتصاب فإنه مدين لأمريكا واسرائيل بكرسي الحكم . . هذا هو الأمر ببساطة ، والمسألة تشبه تماما الطريقة التي يتم بها اختيار المسؤولين وكبار الموظفين في بلادنا المنكوبة حيث كثيرا ما يتم استبعاد أي ذو مروؤة ، والقيام بالاختيار من بين المجروحين و " المتعاصين " المتخمة ملفاتهم بكل ما يشين ، ثم تركهم بعد ذلك يؤدون أعمالهم حتي بدون توجيه . . فهم يعلمون جيدا لماذا تم اختيارهم وأي نوع من الأداء مطلوب منهم !

و لهذا لا نستغرب عندما نري مواقف ايران وتركيا من الإعتداءات علينا في العراق وفلسطين ولبنان هي أشرف من مواقف العرب الذين منحوا المعتدين القواعد والمعلومات والدعم اللوجستي ، لأن الحكام في تركيا وايران قد أتوا عبر انتخابات حقيقية ، ولهذا فهم يعبرون عن شعوبهم . . و هذه هي أزمتنا وهذا هو مقتلنا . . حكامنا لا يدينون لنا بأي شئ ، فلماذا يحترموننا ! . انظروا إلى الحاخام الأكبر وهو يطلق تصريحا جديدا من تصريحاته الشقية يصف فيه السيدحسن نصر الله بأنه مصاب بجنون العظمة . . هذا التصريح لا نستغربه من هذا الرجل العاقل الرصين الذي سبق له أن أدان المقاومة في العراق ووصفها بالإرهاب ، وأدان العمليات الاستشهادية ووصفها بأنها انتحار مؤثم ، وسبق له أن لعن كل من يطلق رصاصة علي اسرائيل ، كما قام بمناشدة من يسبّون الرسول بأن يترفقوا بالموتي !

لقد هزني سيد المقاومة حسن نصر الله عندما سأله مذيع الجزيرة : مم تخشون في حزب الله ، فأجاب : (نخشي ألا نموت شهداء) . . فهل هذه الروح الجهادية لرجل قدم ولده شهيدا هي جنون العظمة يا عم الحاج ؟ !

كذلك تأثرت جدا للفتاة اللبنانية التي ظهرت علي قناة المنار بملابس مودرن وهي تقول : " شو بدي بجسر أعبر عليه وأنا بلا كرامة ، قضينا السنين بنقول يالله السترة ، وحتي السترة ما طلناها ، أنا بدي من السيد بعدها الحرب عباته باللي عرق فيها وهو عم بيدافع عني وعن إخوتي لأتمرغ فيها ، وبلكي بوزعها شُقَف لتنعطي للناس البلا كرامة " . . هذا كلام عاطفي . . نعم . وهل نسبت نفسي من قبيل إلى الحكماء والعقلاء وذوي الرصانة ، الذين يراكمون الثروات في البنوك والشحوم في الأرداف ، ويغارون علي اسرائيل من نسمة الجنوب في مارون الراس وبنت جبيل وعيترون !

أبو لهب الدبلوماسي وكوندوليزا حمّالة الحطب!

لم أكـن أحب أبدا أن يستقبل لبنان وزراء الخارجية العرب، لأن زيارتهم بعد أربعة أسابيع من حرب ليس مقصودا منها أي مصلحة لشعب لبنان. ودليلي علي هذا أن ثمانية علي الأقل من هؤلاء الوزراء هم من غلاة الصهاينة الذين يؤيدون العدوان الاسرائيلي بحماس بالغ وسعادة لا يقدرون علي إخفائها. وقد كان في مقدور بيروت لو كان لا بد من التعامل معهم أن يتم الأمر عبر وساطة فنزويلية أو اندونيسية وليس بشكل مباشر أبدا!

هذا القول لا يتضمن هزل أو مبالغة، فأنا حقيقة أرتعد خوفا من أن يكون أحد هؤلاء قد سمع أو التقط أي شيء أثناء وجوده في بيروت مما يمكن نقله للعدو الاسرائيلي عن تحركات حزب الله أو تسليحه أو أماكن قادته، أو أي معلومات يمكن لهؤلاء الاستفادة منها لصالح مخدوميهم في فلسطين المحتلة. وللأسف فوزراء الخارجية الذين أعنيهم يعملون في بلاط حكام هم أنفسهم يتجسسون لصالح اسرائيل.. و غير بعيد ما ذكره الاستاذ هيكل عن اثنين من الحكام العرب كانوا يعملون جواسيس بمرتب سنوي في خدمة الصهاينة، وكانوا ينقلون بالصوت والصورة اجتماعات القمة العربية والاسلامية إلى حيث يجلس رؤساؤهم ضباط الموساد في تل أبيب. ولو كان هؤلاء الوزراء يمكن أن يفيدوا لبنان مثقال ذرة.. فهل كانت اسرائيل تسمح لهم بالهبوط في بيروت وتيسر لهم الجلوس والاجتماع من أجل نصرة المقاومة ودعم استقلال لبنان؟ لقد ذهبوا استجابة لحمّالة الحطب كونداليزا رايس ووفقا لأجندتها السامة.

إن ذاكرتنا الملتهبة محملة بكل ألوان الخيانة التي دفع المقاومون ثمنها ولا يجب أن نمنح اسرائيل بالسياسة ما فشلت في اقتضائه بالحرب، والمؤامرة التي تنسج فصولها في مجلس الأمن الآن بمباركة عربية ليس منها غرض سوي سلب المقاومة اللبنانية انتصارها بعد أن دفع حزب الله فاتورة الدم كاملة، فهم يريدون أن يفعلوا بلبنان ما فعلوه بمصر بعد انتصار أكتوبر. لقد أخذوا منا النصر ومنحونا كامب دافيد، مع أننا كنا نستطيع الحصول علي كامب دافيد بعد هزيمة ٦٧ وبدون نصر أكتوبر. نفس الشيء يراد للبنانيين الآن، والأمر يشبه أن يتدرك بلطجي أن تنفذ طلباته وإلا قضي عليك.. فتقبل التحدي وترفض الانصياع لمشيئته، فيعمل كل ما في طاقته لتنفيذ وعيده والقضاء عليك فيفشل ولا يقدر.. فهل يصح وقتها أن تسلم له بطلباته؟!

إن لبنان يجب أن يحذر الفتنة كما يجب أن يحذر القنوات الفضائية المعادية . . فمشاهدة القنوات المختلفة في الأيام الماضية قد كشفت لي بمنتهي السهولة الهوية الواضحة للكثير منها ، فقنوات النيل للأخبار والعربية وإل بي سي ونليفزيون المستقبل والحرة لا يخطئ المرء في معرفة في خدمة من تعمل ، ولأي مشروع مسخرة ، فعلي سبيل المثال قامت قناة العربية وبدون أي مناسبة بإعلان مقتل أربعمائة مقاتل من حزب الله ، وأخذ شريط الأخبار أسفل الشاشة يلف ويدور بحمل هذه الكذبة . في نفس الوقت الذي كان وزير العدل الاسرائيلي يعلن أن عدد قتلي حزب الله هم ثلاثمائة !

ثم ينتبه الاسرائيليون للخبر الذي حملته القناة السعودية فيتلقفه وزير الصحة الاسرائيلي ويعلن أن اسرائيل قتلت اربعمائة مقاتل من حزب الله ، فما يكون من القناة إلا أن تذيع الخبر الذي اخترعته منسوبا لوزير الصحة الاسرائيلي ! !

أما قناة المنار فقد نقلت صورة مبني مهدم يخرج من بين أنقاضه أحد الناجين والمراسل يسأله عن المساعدات التي أرسلها العرب ومدي تأثيرها في صمود الشعب اللبناني ، فيجيب الرجل بعفوية شديدة : "عم بيعطونا علب البلوبيف بيد وباليد الأخري عم بيعطوا اسرائيل السلاح ! . . فيكن تصدقوا ان المواطن الامريكي بيدفع دولار واحد من جيبته كرما لعيون اسرائيل . . كل السلاح الاسرائيلي بتمويل عربي وكل البلدان باللي أعطت القواعد لأميركا بتدفع لتحرق أطفال لبنان" . . كان الرجل قاسيا في صراحته خاصة عندما استرسل وتحدث عن صفقة الطائرات الاسرائيلية التي دمرت المطارات المصرية في ٦٧ وكان الذي دفع ثمنها حاكما عربيا . . و بالمناسبة نسمي مصر باسمه واحدا من أكبر شوارع القاهرة!

و مع هذا لم يحفظ الأمريكيون له الجميل فقتلوه عندما بدأ يتململ ! وهذا ما تحدث عنه حسن نصر الله عندما قال للحكام العرب ان مريكا بعد كل ما قدموه لن تبقي عليهم في الشرق الأوسط الجديد ولن تحفظ لهم كراسيهم رغم فقدانهم لشرفهم علي مذبحها ، وقال لهم ان الدولة الكبيرة لن تظل كبيرة أي ستتعرض للتقسيم ، والدولة الغنية لن تظل غنية ، وأن العرش لن يظل عرشا ، وقد فهم الناس أنه يتحدث عن مصر والسعودية والأردن . .لقد كان سيد المقاومة في غاية القسوة عندما طالب الحكام العرب بأصعب طلب يمكن أن يوجه اليهم فعصف بعقولهم وجعل رغبتهم في تدميره وشعبه تزداد وتتفاقم . .لقد طلب منهم نصر الله أن يكونوا رجالا ولو لمرة واحدة . .باللطلب المر ! ما هكذا تورد الإبل يا أبا هادي ، رفقا بالقوارير . .خاصة إذا كانت القوارير مشروخة!

النوم مع العدو!

طالعتنا صحف الأسبوع الماضي بخبر إجتماع نفر من الساسة اللبنانيين ممن يسمون مجموعة ١٤ آذار في فندق بريستول في بيروت، وكيف أنهم خرجوا من الإجتماع بتوصية وحيدة هي ضرورة نزع سلاح حزب الله لأن هذا السلاح لم يستطع أن يمنع اسرائيل من تدمير المباني والجسور في لبنان.. فما فائدته إذن؟. عندما قرأت هذا الخبر شعرت بالحزن على لبنان، وتذكرت مسار الطائفية البغيضة والتعصب الأعمى والطبقية الشديدة في هذا البلد الصغير، وكيف أدت بشعبه المحب للحياة إلى الهجرة حتى من قبل الحرب الأهلية والانتشار بالملايين في كل بلاد الدنيا هرباً من واقع شديد القسوة والظلم، وشعرت أن المشكلة ليست فقط في أن هناك من يتبنى خيار المقاومة دفاعاً عن النفس والعرض و من يتبنى الخنوع ويؤثر السلامة.. لا المشكلة في لبنان أعمق من ذلك بكثير.. إنها تقبع في القشرة الخلفية للجمجمة عند من يريدون أن يكون أهل الجنوب وإلى الأبد مساوون لطبقة المنبوذين في الهند، أي محرومون من كل حقوق البشر. هذا هو المسكوت عنه في موضوع اللبناني.

عرفنا معارضين كثيرين للحرب الأمريكية في العراق من قطاعات واسعة في المجتمع الأمريكي ورأينا تظاهرات ضد صقور الحرب الذين تسببوا في قتل الجنود الأمريكيين، كذلك شاهدنا انتقادات قاسية من الاسرائيليين لقادتهم الذين تسببوا بعدوانهم على لبنان في وصول صواريخ حزب الله إلى غرف نومهم مما أقعدهم في الملاجئ لمدة ٣٣ يوم. لكننا لم نعرف من الأمريكيين من تمنى هزيمة الجيش الأمريكي أو قتل قادته وتدمير بنيته، ولم نر من الاسرائيليين من أبدى الشماتة لتدمير كريات شمونة وتحويل المستعمرات الشمالية إلى خرائب، ولم نعرف أحداً من الاسرائيليين طالب بنزع السلاح الاسرائيلي بحجة أن هذا السلاح لم يستطع أن يضمن سلامة المدن الاسرائيلية من القصف ولم يستطع أن يحمي الاسرائيليين عسكريين ومدنيين من ضربات حزب الله.

و لكن على الجهة الأخرى نرى بكل أسف قطاعات من العرب واللبنانيين ممن يخالفون حزب الله في الرأي والرؤية والموقف السياسي لكنهم لا يحتملون انتصاره، وقد كانوا يتمنون قتل رجال المقاومة وتدمير تحصيناتهم ونزع سلاحهم، فلما خيب الله رجاءهم ولم تستطع اسرائيل أن تقوم بالمهمة إذا بنفر منهم يجتمعون للتفكير في وسائل جديدة لتنفيذ المهمة بحجة أن سلاح المقاومة لم يحم

لبنان من العدوان الاسرائيلي ! وكأن تجريد المقاومة من السلاح هو الذي سيضمن الأمن للبنان . . ولا أدري كيف يتعامون عن حقيقة أن ضحايا هذه الجولة من الحرب كانوا حوالي ثمانمائة شهيد من المدنيين اللبنانيين ، في حين كان الشهداء في عدوان ٨٢ عندما لم يكن حزب الله موجوداً أكثر من عشرين ألف شهيد دون أن تقع أي خسائر في صفوف الاسرائيليين ! . و مبعث الدهشة أيضا في هذا الطرح أن من يلحون في طلب نزع سلاح حزب الله كان يمكن لإيهود أولمرت أن يصل إلى بيروت بقواته وأن يأخذهم "سبايا" ويعرضهم في أقفاص في تل أبيب لولا وجود حزب الله الذي يطالبون بتدميره ! !

وإذا كانوا يرون أن اسرائيل لم تكن لتفعل هذا بهم وليس لديها المبرر لأن تفعله لأن لديهم استراتيجية مختلفة في الدفاع عن لبنان وصيانة أمنه وهي أن يمدوا أيديهم إلى اسرائيل بالسلام وبهذا ينزعون شوكتها ويعيشون في تبات ونبات ويخلفوا صبيان وبنات . . فإننا نقول لهم " كان غيركم أشطر " لأننا من واقع تجربتنا في مصر نعرف أن السلام القائم علي الذل لا يصل بالشعوب إلا إلى القاع ، وهنا نكون قد وصلنا إلى بيت القصيد ، وهو أن اسرائيل لا تري في رجال ١٤ آذار أعداء ولا ترغب في إيذائهم . . والمعروف أن اسرائيل لا تسالم سوي من يعملون في خدمتها ويعينوها علي تنفيذ أهدافها ، ورغم هذا لا تسمح لهم سوي بالحياة الذليلة ، ونحب أن نذكّر من نسي أن ضباط جيش لبنان الجنوبي الذين رحلوا إلى اسرائيل بعد الهزيمة والانسحاب سنة ٢٠٠٠ يعمل أغلبهم خدم في المراحيض العمومية في تل أبيب !

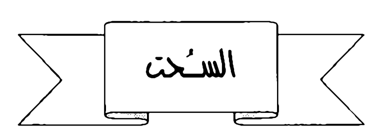
للأسف يبدو أنه مكتوب علي حزب الله ورجاله وعلي كل من يرفضون الذلة أن يخوضوا صراعهم ضد اسرائيل بينما أصدقاء اسرائيل يعيشون بينهم تحدوهم الطائفية والتعصب إلى استنكار الانتصار اللبناني ومحاولة تقويضه لمجرد انه أتي علي يد حزب الله ، في حين أن المسموح لرجال حزب الله ولسكان الجنوب في العموم طبقا لأجندة التعصب والطبقية أن يكونوا ماسحي أحذية أو ما شابه مثلما قال السيد حسن نصر الله . . وفي هذا فإن الباشوات اللبنانيين يشبهون بعض باشاواتنا الذين كانوا يفضلون بقاءالاحتلال البريطاني عن الجلاء الذي يتحقق علي يد الضابط (علي) ابن الريس عبد الواحد الجنايني الذي كان ينبغي أن يكون بستانيا عند الباشا مثل ابيه لا ضابطاً بالجيش .

لهذا كان البعض في لبنان يتمني هزيمة حزب الله حتي لا يرفع أهل الجنوب رؤوسهم خاصة بعد أن قام الحزب ببناء المدارس والمستشفيات وتوفير فرص العمل وأصبح من بين أبنائه العالم

والطبيب والمهندس والمخترع وهؤلاء هم أنفسهم المقاتلون الذين يصنعون الحياة في الشطر الأول من اليوم ويحملون السلاح ليدافعوا عما صنعوه في الشطر الثاني .

و من العجيب أن الذين أهملوا الجنوب وتركوه للفقر والجهل يوجهون اللوم لحزب الله اليوم بزعم انه استولي علي دور الدولة ببنائه للمدارس والمستشفيات وتشغيل العاطلين! مما حدا بالسيد حسن نصر الله ان يقول لهم انه مستعد اذا قامت الدولة ببناء مدرسة في قرية ان يغلق فورا المدرسة التي بناها حزب الله واذا قامت بانشاء مستشفي ان يقوم بهدم المستشفي التي بناها الحزب .. فقط فعلوا شيئا!

ما أسهل الحرب بالنسبة للمقاتلين الساعين للشهادة، لكن ما أصعب النوم مع العدو!


السُحت

الدبلوماسية المصرية و عدة الشغل:

المؤمن مُصاب . . هكذا قلت لنفسي حين قرأت عن حادث سرقة تعرض له الدكتور مصطفي الفقي . و اتهم سائقه بكسر مخزن الخمور الخاص بسيادته والإستيلاء علي حمولته من المشروبات . وقد نشرت الصحف أن الدكتور الفقي قال أنه يقدم هذه الخمور لأصدقائه الأجانب . حيث أن علاقاته الدوليه الواسعة تفرض عليه هذا .

نحن بالطبع نتعاطف مع الدكتور الفقي ونرجو أن يأخذ السارق جزاءه . . و لكن ربطاً غير مسنفي قد اقتحم رأسي ، فرأيت حفلات الكوكتيل ومادب الشراب التي يقيمها الدبلوماسيون أو يدعون إليها و قد حضرتُ شخصياً كثير من هذه المناسبات وأري أنها جزءاً مكملاً لعمل الدبلوماسي في الخارج يستطيع أثناءها أن ينسج علاقات بالكثير من صانعي القرار والشخصيات الهامة في المجتمع الذي يخدم فيه . . غير أن الأسف إعتراني لأنني أعرف أن هذا في الحقيقة لا يحدث ! .

في حديث تليفزيوني لوزير الخارجية السابق أحمد ماهر قال ان العمل الدبلوماسي ليس نزهة ولم يعد عبارة عن حفلات وبروتوكول وكوكتيلات ومأدب طعام ، لكنه عمل شاق ينطوي علي مخاطر ، وقرأت لكثير من الدبلوماسيين المصريين اراء مشابهة في الصحف خلال الأيام الماضية بعد مقتل السفير المصري في بغداد . والحقيقة أنني أشعر بالأسف عندما أسمع هذا الكلام يتردد وكأنه حقيقي لأنني أعلم أنه ينطبق علي العمل الدبلوماسي لبلاد أخري ودبلوماسيين أخرين غير بلادي ودبلوماسييها . إن البعثات الدلوماسية المصرية في أربعة أرجاء المعمورة لا تفعل أي شئ سوي حضور حفلات الشراب ومادب الطعام دون هدف . و للعلم هذا الأمر لا يقتصر علي السفارات والقنصليات التابعة لوزارة الخارجية . . إنه يشمل الجيوش الجرارة من الموظفين للبعثات المصرية الموجودة في ١٨٨ دولة كالتمثيل التجاري والسياحي والثقافي والإعلامي والعمالي والطبي . . الاف الموظفين يتقاضون مئات الملايين من الدولارات يدفعها الوطن الجريح من لحمه العاري لأناس لا يفعلون شيئا سوي تنمية مواردهم وارتياد صالات المزادات لشراء التحف والسجاد وبيع حقوق المواطن المصري بالخارج للجهة التي تظلمه وتشتري عليه نظير أجراً صار معلوما للكافة . هل تعلمون حصيلة جهد السادة المستشارين التجاريين في الخارج؟ الحصيلة هي إختلال الميزان التجاري

لصالح كل الدول التي تحتضن بعثاتنا التجارية الميمونة بموظفيها التنابلة الذين يتخذون من مقرات مكاتبهم المملوكة لمصر مقرات للبزنس الخاص بهم وبشركاتهم التجارية الخاصة .

و هل تعلمون ماذا يفعل مديرو المكاتب السياحيه في الخارج؟يستجمون ويقضون وقتا لطيفا بصحبة وكلاء السياحه من ذوي الأصول العربية حيث لا يستطيعون التواصل مع الأجانب لجهل معظمهم باللغات الأجنبية . أما عن المستشارين الثقافيين والتعليميين فحدث ولا حرج ، تجد أحيانا مكتبا يضم مستشار ثقافي وملحق ثقافي وفريق من الموظفين الإداريين يتقاضون أكثر من خمسين الف دولار شهريا لمتابعة ٢٠ طالب دراسات عليا! ، وعندما تسأل طلبة البعثات عن علاقتهم بالمكاتب الثقافية ، يخرج لهيب النار من أفواههم عندما يحكون لك عن الغطرسة والصلف الذي يلقونه في أي معاملة مع المكاتب المفترض أنها مفتوحة لخدمتهم ، ويكفي لها مجرد موظف إداري لإنجاز العمل الهزيل المتمثل في دفع رواتب المبعوثين الشهرية! ، وإن المرء ليشعر بالغثيان عندما يعلم أن مستشارا ثقافياً تافهاً كان يطلب من أحد أكبر المخرجين في الصحافة المصرية وأكثرهم موهبة أن يقوم بعمل نشرة هزيلة يضع فيها انجازاته الوهمية ويرص صوره ليرسلها لأسياده بالقاهرة كدليل علي الهمة والنشاط ، مستغلاً أن هذا الفنان كان واقعا تحت براثنه أثناء عمله للدكتوراه في الإعلام .

أما الأفندية أصحاب المكاتب العمالية فكلكم تلمسون مأثرهم ، فحقوق العمال المصريين في العراق وليبيا والأردن والسعودية وغيرها شاهدة علي أعمالهم . إنهم يبيعون حقوق العمالة المصرية بأكلة كباب مع الكفلاء الساديين ويشاركونهم في ارتشاف دماء المصري ومصمصة عظامه .

حتي الصحفيين . انظروا إلى الصحفيين المبعوثين من الجرائد الحكومية إلى مكاتبهم الخارجية بعواصم العالم ، وليدلنا أحد علي موضوع صحفي له قيمة أخطأ أحدهم ذات مرة وأرسله ، ذلك أن فهمهم للعمل الصحفي قاصر علي تغطية أخبار الغذاء والعشاء الذي حضره السيد السفير والسيد القنصل والسيد المستشار ، وليس لديهم سوي أخبار عن إفطار الوحدة الوطنية وسحور الوحدة الوطنية الذي أقامه رئيس الجالية ، وقد ولّدت صورة هذا الصحفي قناعة لدي السفراء بأن الدولة كما تصرف لهم مرتبات وبدلات ، تصرف لهم صحفياً من الأهرام يغطي أخبار الكوكتيل والغذاء والعشاء والطبيخ والسندوتشات . وعندما يقارن المرء بين الرسائل الصحفية التي يبعثها مراسل صحفي مثل "روبرت فيسك" مثلا وبين الرسائل الواردة من مراسلينا يعرف الفرق بين الجد . . و الهزل في موضع الجد .

على أن من أخطر الأسباب التي تدفع الدبلوماسيين إلى حياة الدعة و "الهمبكة" والتنكر للعمل حقيقي هو أن أحداً لا يطلب منهم القيام بأي عمل له صلة بالعلاقات الخارجية والسياسة خارجية، بل إن المفاجأة الكبري هي أنه يُحظر عليهم الإدلاء بأي تصريحات سياسية! وأن هناك منشورات دورية تؤكد على هذا الأمر حتى لا ينسى أحد فيكون مصيره مثل مصير السفير الأسبق في تركيا الذي تمت إعادته للقاهرة لأنه تجرأ وتصور أنه سفير "بحق وحقيق" وأدلى بتصريح أدان فيه ممارسات العدوانية الإسرائيلية. . و من بعدها وصلت الرسالة واضحة للدبلوماسيين في الخارج: لا تصدقوا أنكم دبلوماسيين بجد، لا تصدقوا أنه يمكنكم الحديث باسم مصر، السياسة الخارجية لمصر ليس لوزارة الخارجية علاقة بها!، كل المطلوب منكم هو أن تأكلوا وتشربوا في حفلات الأنس والسمر وأن تدعوا للسلطان بالنصر، ويكون دوركم الوحيد هو القيام بالتشهيلات وحمل الحقائب عندما تكون هناك زيارات من أصحاب المعالي وعائلاتهم، وعليكم أن تضعوا خبراتكم في "الشوبنج" تحت الطلب حين يقتضي الأمر إحضار أخر صيحة في دنيا "اللانجيري" أو توفير أقراص الفياجرا للرجال منتهى الصلاحية.

إن غياب الدبلوماسية المصرية الفعالة هو أحد الأسباب الرئيسية لإختفاء الدور المصري وهوان مصر على الجميع، وليسمح لنا السيد أحمد ماهر أن نختلف معه في رأيه بشأن العمل الدبلوماسي فنحن لا نراه سوي تشريفات وبروتوكول وثرثرة وشراب ومرح.

غير أن المشكلة الحقيقية الأن تتمثل في أن أقبية الخمور المعتقة اللازمة للعمل الدبلوماسي لم تعد في مأمن بعد أن استطاع اللصوص كسر مخزن الويسكي بمنزل الدكتور مصطفى الفقي، وفي هذا خطر داهم على الدبلوماسية المصرية، إذ بإمكانهم أن يكرروها في مواقع أخري فتمتد أيديهم الآثمة بسرقة "عدة الشغل" أو جانباً منها من بيوت مسؤولين أخرين.

موسم الشحت الكبير

منذ أن وعيت علي الدنيا والتمثيلية الموسمية لا تتغير . . فمع اقتراب عيد الأضحي تبدأ الصحف تحدثنا عن موسم الحج والاستعدادات العظيمة التي تقوم بها الدولة لخدمة زوار بيت الله الحرام، وعن التوجيهات التي صدرت من أجل تيسير الرحلة المقدسة، وقيام الدولة بكل أجهزتها بالعمل علي راحة الحجاج ووضعهم في حدقات العيون، بحيث يصير شأن الحجاج في حلهم وترحالهم، في سعيهم وطوافهم، حصاهم ورجمهم، نومهم وصحوهم، دعاؤهم وصلواتهم هو الشغل الشاغل للدولة . . ولا يتواني السيد المحافظ والسيد مدير الأمن والسيد رئيس الحي والسيد مدير الاستاد عن الذهاب في مشهد درامي مؤثر لوداع الحجيج في الموانى والمطارات وفي مواقف الأوتوبيس .

و لاحظ معي أنها نفس الدولة التي اعتادت أن تهمل المواطنين، بل وتحرمهم من كل أسباب الحياة، نجدها فجأة تستنفر كل أجهزتها وتقوم بإرسال عدة بعثات لرعاية الحجاج حتي عودتهم إلي أرض الوطن بسلام . فنجد بعثة لوزارة الأوقاف يقال انها تسافر بغرض رعاية الحجاج دينيا وثقافيا وتضم موظفين من كل نوع بحوزتهم بدل السفر مربوطا تحت ملابس الإحرام ومعهم كل أنواع الفتاوي . . عادة وإكسترا وكومبو! بالاضافة لبعثة أخري لوزارة الصحة تضم أطباء وممرضين وإداريين يصطحبون معهم شحنة ضخمة من الدواء تكفي لإغاثة مدينة منكوبة . ولا يهم أن أحدا لاناأ يستعمله لأن أحدا لا يعلم بوجوده وإن علم فلن يصدق أن وزارة الصحة التي لا ترعاه في الداخل يمكن أن تفكر فيه خارج الحدود! . ثم نأتي إلي البعثة الأكبر وهي بعثة وزارة الداخلية . . العين الساهرة التي تضم الضباط الذين يذهبون مع حجاج القرعة من أجل رعايتهم وتوصيل الخدمات الأمنية اليهم حتي خيامهم في مني وعرفات، ولا يغمض لهم جفن حتي يُحكموا الغطاء ويشدوا اللحاف فوق كل حاج ويتأكدوا أنه نام وينعم بأحلام سعيدة .

أما باقي الوزارات والهيئات والمجالس الشعبية فإن عظوظيها يصطحبهم معه عادة أحد الوزراء الذي يتم تكليفه برئاسة البعثة الرسمية للدولة المصرية . وتكون مهمة رئيس البعثة عادة هي إصدار بيانات النفي القاطع أن يكون أي مصري قد تعرض لصداع أو أصيب بنزلة برد أو حموضة زائدة، حيث أن رعاية سيادته للحجيج لا تترك لهم فرصة التعرض لتيار هواء بارد أو فيروس شارد . ولن

نتحدث عن الموت حرقا أو دهسا أو عصرا، ولا للإصابة بالأوبئة كما يحدث لغيرهم من حجاج الدول التي لا تقدم الرعاية لمواطنيها!

لا أعرف متي نترك الهزل ونكف عن استغفال شعبنا . . إن الولايات المتحدة تصدر إلى العالم عشرات الملايين من السياح كل عام منهم عشرين مليون يذهبون إلى انجلترا وفرنسا فقط . . و مع هذا لم نسمع أن جهاز ال إف بي أي قام بارسال بعثة رسمية إلى باريس ولندن، ولا قامت وزارة الصحة الأمريكية بشحن عشرات الأطنان من الدواء مع أطبائها وممرضيها ليقيموا معسكرا لهم بالشانزليزيه أو بميدان الطرف الأغر . . ذلك أن أي دولة ذات سيادة تكون مسؤولة عن حفظ الأمن لمواطنيها وزوارها، كذلك تكون مسؤولة عن توفير الرعاية الصحية لمواطنيها وزوارها ولا أعتقد أن المملكة العربية السعودية قد شكت من عجزها عن رعاية الحجاج من كل جنس ولون .

و الحقيقة المؤسفة هي أن الحجاج المصريين لا يعرفون شيئا عن البعثات التي تذهب لتكون في خدمتهم . . هم مثلنا يقرأون عنها ويرون صوررؤسائها في الجرائد فقط! والحجاج يتندرون علي وزارة الأوقاف التي تذهب لتبيع الماء في حارة السقايين حيث أن المملكة هي المنتج الرئيسي للوعاظ والدعاة ولديها منهم ما يكفي الاستهلاك المحلي والتصدير، والداعية المصري يظل محليا حتي يتم تعميده في الفضائيات السعودية فيظهر ليحذرنا من سرقة السلك بتاع الشيخ صالح!

ومن الطبيعي أنه إذا مرض الحاج المصري أو غيره أثناء أداء المناسك فإنه يذهب إلى المستوصف السعودي وتحمله سيارة الاسعاف السعودي، وإذا فكر في البحث عن البعثة المصرية لمات ودُفن في البقيع قبل أن يعثر عليها!

ثم ما معني أن تقوم وزارة الداخلية بتنظيم حج ما يسمي بالقرعة، وما معني أن تقوم هذه الوزارة السيادية المثقلة بالمهام والأعباء بمنافسة وكلاء السياحة فتقوم بحجز الفنادق والمساكن وحجز تذاكر الطيران والاتفاق مع المطوفين . . ما معني هذا؟ وهل هذه هي وظيفة وزارة الأمن؟ . . و إذا كان الرد بأن حج القرعة يكون منخفض التكاليف نسبيا ويساعد راغبي أداء الفريضة من الفقراء، فإن هذا القول هو الهزل بعينه أولا لأن الفقراء غير مكلفين بالحج ولن يُسألوا عنه وثانيا لأن الدولة التي رفعت الدعم عن كل شئ وتركت الناس تموت من نقص الغذاء واختفاء العلاج ليس معقولا أن تقوم بتقديم الحج المدعم عن طريق وزارة الداخلية!!

ثم هل تعلمون أن الحج السوبر الذي يتيحه الأمراء السعوديون لنظرائهم المصريون كل عام،

والذي يخلو من أي مشقة ويعقبه العودة بالهدايا والنفحات.. هل تعلمون أن مصر تدفع ثمنه من كرامتها ومن سيادتها وقرارها الذي صار يتخذ في الرياض.

ولا أعتقد أن الأمر في حاجة إلى فتوى من عالم جليل أو شيخ متفقه، إن الأمر واضح وضوح الشمس وبسيط لدرجة أن أي سمكري أو عجلاتي أو مبيض محارة يملك قلبا نظيفا وفطرة سليمة يمكنه أن يشرح للسادة الأكابر أن السفر على حساب شعب مصر الفقير هو حرام شرعا وهو إثم عظيم لو كانوا يعلمون.. وهم بالتأكيد يعلمون!

وطن في السبنسة

من بين أخبار هذا الأسبوع اللافتة الخبر المتعلق برفض الولايات المتحدة الأمريكية منح تأشيرة دخول للسادة الشيوخ الذين رشحهم الأزهر للسفر هذا العام خلال شهر رمضان. رغم توجيه الدعوة لهم من المراكز والجمعيات الإسلامية بالبلدين.

ما الذي يمكن أن يثيره خبر مثل هذا في النفس؟.. فيما يخصني فقد أثار عندي شعورين متناقضين أولهما بالاستياء من الغطرسة الغربية تجاه رجال دين لا يوجد منهم أدني خطورة تبرر رفض منحهم التأشيرات. لكن من جهة أخري خالجني شعور بما يشبه الارتياح.. ذلك أنني ومن خلال تجربتي الشخصية وما شهدته بنفسي لسنوات في الخارج أصبحت أتمني ألا تقع هذه الزيارات لا في رمضان ولا في غيره، لأن الأزهر لم يعد هو الأزهر ورجاله لم يعودوا رجاله!.

و لا أستطيع أن أري أن رقة الحال يمكن أن تكون عذرا للسلوك الذي يؤخذ علي بعضهم حين يتفرغون طوال الشهر الكريم لجمع الهدايا والأموال وكل ما يمكنهم أن يحصلوا عليه بسيف الحياء من أفراد الجاليات العربية، وتنافسهم مع بعضهم البعض في هذا المضمار، ومحاولة كل منهم الاستئثار بالغنائم وحده، ونشر الشكوك حول زملائه، ويصل الأمر أحيانا إلي تصرفات مزرية بالنفس والكرامة إلي أبعد حد من أجل تحقيق الهدف الخاص من رحلة القنص هذه!.

و الأمر المدهش أن المراكز الاسلامية بالغرب ليست خالية من علماء أفاضل من كل البلاد الاسلامية الذين استوطنوا واستقروا بالخارج، ويديرون شئون هذه المراكز بكفاءة واقتدار. ومعارفهم الفقهية تبعث علي الاعجاب، ولم يعودوا يحتاجون إلي من يأتيهم من مصر أو غيرها.. خاصة وأن المواقف السياسية لمصر في السنوات الأخيرة، ودعمها لكل من قاموا بالعدوان ضد العرب والمسلمين في أي مكان، واندفاع الأزهر في تأييد ومباركة كل المواقف الرسمية مهما بلغت من شطط.. كل هذا قلل من قيمة كل ما يأتي من مصر بدءا من المدرس والطبيب حتي البطاطس المصابة بالعفن البني!

غير أن ما يحدث هو الإلحاح إلي حد التوسل في الحصول علي خطاب دعوة من المراكز الاسلامية، أو خطاب تزكية من السفير المصري يشهد فيه بأن فلانا قد أبلي بلاء حسنا وأن الجمهور هنا قد أحبه دون غيره ويريده أن يأتي في العام القادم!

و للقارئ الكريم أن يتخيل أن هذه المحاولات يقوم بها كل منهم علي حدة من خلف ظهر

أقرانه ومع نفس الشخوص، الأمر الذي يجعلهم مادة للتندر بعد رحيلهم!

و لما كان الشيء بالشيء يذكر، فللأمانة ليس الشيوخ وحدهم الذين يذهبون إلى مهمات في الخارج وفي أذهانهم أجندة خاصة بهم لا علاقة لها بالمهمة التي قدموا من أجلها، فكل موظفي الحكومة والوزارات والهيئات العامة حين يسافرون في مأموريات ومهام بالخارج تجد حالتهم تدعو للرثاء. . فإذا كانوا بصدد حضور اجتماع دولي تشارك به وفود دول عديدة، هنا تجد الوفود الغربية وقد حضرت مستعدة وبحوزة أعضائها أجهزة الحاسب الشخصي، والاحتمالات كلها قد قتلت بحثا وهناك سيناريوهات أساسية وسيناريوهات بديلة وكل فرد يعرف دوره في الاجتماع، وعملية "الدهلزة" وتنسيق المواقف قد تمت في الليلة السابقة علي الاجتماع، ولا يبقي غير عرض الاقتراحات التي تتحول إلى توصيات يتم مناقشتها ثم فرضها لتصير ملزمة لكل من حضروا الاجتماع، دون أن تتاح لجماعتنا الفرصة للمشاركة أو المساهمة أو الاعتراض. ذلك أنهم قد حضروا وثقتهم بالنفس معدومة، وثقتهم بمؤسساتهم أكثر انعداما، وهم في الغالب مشغولون بأمر آخر أكثر أهمية من الاجتماع وما يدور فيه هو كيفية الحفاظ علي بدل السفر وعدم إنفاق دولار واحد منه ما أمكن والعودة بقرشين للعيال، وهذا يقتضي بطبيعة الحال التزود قبل الرحلة بالأطعمة الجافة التي تعيش كالجبن الرومي والبسطرمة والعيش المحمص وغلاية الشاي وكيس السكر . . وهذه الأشياء تعتبر من الأساسيات في سفريات موظفي الدولة في مهام بالخارج . . وكثيرا ما تمت مصادرة التموين بالمطارات، خاصة إذا تعفن من طول الرحلة أو كان يحتوي علي مأكولات نفاذة الرائحة كالفسيخ أو المش!

ثم نأتي إلى موضوع الاقامة بالفندق حيث ينزل كل ثلاثة أو أربعة في غرفة واحدة وطبعا من وراء ظهر الأونيل، ولن أتحدث عن الحسرة التي يشعرون بها حين يمرون بأحد مطاعم الفندق ويشاهدون أعضاء الوفود الأخري يجلسون لتناول العشاء.

لا أقصد بالطبع أن أسخر من فقر أهلي المصريين (فلقد مررت شخصيا بكل هذا) لكنني أفكر حقيقة كيف يمكن لوكيل الوزارة الذي يضع في غرفته في الفندق برطمان جبنة قديمة ينتظره علي الغداء. . كيف يمكن له أن يجلس مع نظيره الغربي أو الشرقي ليناقش بنود عقد أو بروتوكول أو اتفاقية ترتب حقوقا والتزامات للطرفين. . سأفترض أن هذا الرجل شريف ولن يتربح من بيع حقوق وطنه. . لكنه مع هذا لن يكون مدافعاً صلباً عن هذه الحقوق لأنها بالأساس لا تشغل تفكيره. . وسوف يدفع الوطن ثمن الحرمان الذي فرضه علي هذا الرجل عندما تبدأ آثار ما وقع عليه في الظهور مع بدء تنفيذ بنود العقد أو الاتفاقية.

على حساب صاحب المحل

مسكين الشعب المصري .. هو ليس منكوبا فقط في من يحكمونه، لكن حظه مع نخبته وقادة الرأي لديه لا يقل سوءا، وأشعر أن الجميع يستغفلونه ويرتزقون من المتاجرة بعذابه.

منذ عدة سنوات كنت في نيويورك عندما هاتفني صديق عزيز وأخبرني بأنه قادم غدا إلى أمريكا للمشاركة في احتفال بتسلم مصر قطعة أثرية تم استردادها إيذانا بعودتها للوطن، وأن وفدا مصريا كبيرا يضم كتابا وصحفيين ومشتغلين بالفكر والثقافة وبالطبع رجال الآثار سيحضر إلى مدينة طلانطا حيث الحدث الكبير!.

ورغم أني لم أفهم مغزى المناسبة ولا معناها ولا سبب وجود الأسماء التي ذكرها لي في حدث كهذا، إلا أن فرحتي بالمكالمة ورغبتي في لقاء هذا الصديق جعلتني أقرر أن أطير إليه والقاه هناك. خصوصا وأن مجموعة من الأصدقاء والمعارف كانوا ضمن المجموعة.

توجهت من المطار مباشرة إلى فندق الريتز كما أخبرني صديقي، وأدهشني أن تكون الإقامة بهذا الفندق الباذخ المعروف بمستواه الفاخر وأسعاره المرتفعة. وهناك التقيت بجمع كبير من أهل الفكر والصحافة والإعلام وممثلين للصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون. وجدت أيضا عددا من أركان السفارة والقنصلية ومسؤولي المكاتب الإعلامية والثقافية والتجارية لمصر. أفضيت إلى صديقي بدهشتي من أن ترسل مصر الفقيرة البائسة على نفقتها كل هذا الجيش الجرار في مناسبة هي في أحسن الأحوال عادية وكان يكفي فيها مسؤول من هيئة الآثار، فأخبرني بأن مصر الدولة لا علاقة لها بهذا الحدث وإنما يتولى الأمر كله أحد رجال الأعمال ممن لهم بيزنس في مصر ومثله في أمريكا، وأنه قد دعا كل هذا الجمع على نفقته ودفع لهم تذاكر الطائرة والإقامة الكاملة، علاوة على مصروف الجيب.

قلت له إن هذا أسوأ بكثير.. وأعتقد أن إقامة الصحفيين ورجال الإعلام على نفقة مؤسساتهم هو أكرم وأدعى لاحتفاظ المرء بحياده وكبريائه في أدائه المهني. أما والحال هكذا فقد تحول كل أصحاب الأسماء الكبيرة من قادة الرأي إلى مندوبي إعلانات وموظفي علاقات عامة يعملون في خدمة رجل الأعمال هذا. طلب مني صديقي أن أهون على نفسي لأن الأمر لا يستحق هذه

الحدة . فرؤساء المؤسسات الصحفية يقومون منذ سنوات بالحفر العميق و قد "لهطوا" كل الميـ
وتركوا الصحفيين يتدبرون أمرهم بمعرفتهم . . من يستطيع أن يجلب إعلانات فليجلب ومـ
يستطيع أن يصادق تايكوناً ويتخذه راعيا رسميا فليصادق ، والحياة في النهاية لا بد أن تجد مخرج
وتمني صديقتي أن يقوم كل رجال الأعمال باصطحاب الاعلاميين في رحلات خارجية حيث الأ
والشرب والأنس والفرفشة !

ثلاثة أيام كاملة تواجدت فيها مع كُتاب مصر وصحفييها وقادة الرأي بها ، شهدتهم يجلسو
في المطعم يأكلون كمن خرج للتو من مجاعة جنوب الصحراء ، وأما عن السهر فقد أرغموا الـ
علي أن يظل مفتوحا حتي الفجر ، والفاتورة مفتوحة وما عليك سوي أن توقع وتكتب رقـ
الغرفة . . وكله علي حساب الممول الكريم . ولا أنكر أن الأصدقاء قد تلطفوا وعرضوا علي أ
يتحدثوا إلى "صاحب الليلة" فيضمني إلى الفاتورة ، حيث لاحظوا أنني الوحيد بين النزلاء الذي
يدفع لنفسه ويقيم علي نفقته الخاصة . شكرتهم علي الأريحية والذوق ورفضت العرض الطيب .
وأعترف أنني لم أندم أبدا علي قراري هذا خاصة عندما مر من أمامنا رجل الأعمال صاحب
الأيادي البيضاء وكنا نجلس في ردهة الفندق ، ووجدت الرجال الكبار والنساء الفضليات يقفو
انتباه وابتسامات واسعة تملأ وجوههم لتحية الرجل ، وقد حياهم في لطف وركب سيارته من أما
الفندق . وأكدت لي هذه اللحظة الفارقة معني لم أشك فيه لحظة . . أكدت لي أنك تكون حر
بقدر استغنائك ، إذ وجدت نفسي الشخص الوحيد الذي ظل جالساً بمكانه ولم يقف أثناء مرو
المحسن الكريم .

و أنا لا أحكي هذا من باب التفاخر ، لكن لأني شعرت وقتها أن مصر ليست بخير ، وأن الكثـ
من كُتابها وحملة مشاعل التنوير بها ليسوا كما يظنهم الناس الطيبين . ولا أستطيع أن ألوم رجـ
الأعمال الشاطر علي إدارته الناجحة لأعماله وقدرته علي استقطاب رجال الفكر والإعلام .
خصوصا وأن كل النفقات التي دفعها والتي بلغت ملايين الدولارات كلها مخصومة من الضرائب
في أمريكا ، أي أنه لم يتكلف شيئا ! أقول أنني لا ألومه علي شطارته ، لكني ألعن الفقر و ألعـ
الانسحاق الانساني الذي يجرد الانسان من اعتداده بنفسه ويجعله أسير السيد المانح .

و في الوقت نفسه أرثي لحال المواطن المصري العادي الذي أسمعه أحيانا يتحدث بفخر عن
الكاتب الفلاني الشجاع أو الصحفي العلاني الجسور . وأضحك ملء فمي ولسان حالي يقول
للمواطن المسكين : لقد شاهدت بأم عيني بطلك الهُمام مصطحبا زوجته يقومان بالشوبنج

ويستمتعان بالإقامة المجانية على حساب صاحب المحل في رحلة أطلانطا. بينما صاحب محل حقيقي أي المواطن المصري يغط في نوم عميق دون أن يدري أن كتابه المحبوبين يوزعون بين بحث عن كرسي على الطائرات الرئاسية يأخذه إلى حيث الأسمطة المليئة بالأوزي والبعرور.. أو ينتمس عزاء في صحبة رجل أعمال كريم.. أو... يلتقط الحب في عشة الوزير الفنان!

اللصوص وأصدقاؤهم اللصوص

كتب الدكتور جلال أمين يصف بعض طبائع المصريين المثيرة للحيرة فقال : " إستعداد مدهش للصبر وتحمل المكاره ، وعزوف عن مواجهة الأمر المعوج ووقفه عند حدّه ، وتسامح أكبر من اللازم مع المخطئ ، واستعداد للمجاملة حتي عندما تكون المجاملة مكروهة أو بالغة الضرر . ويزيد هذا الاستعداد المدهش للتسامح والصبر والمجاملة عندما يكون الشخص المطلوب مجاملته أو الصبر عليه منتمياً إلى شريحة من الشرائح الإجتماعية العليا وعضواً من أعضاء الطبقة الممتازة . "

جال هذا كله بخاطري بينما كنت أجلس علي مائدة للعشاء في إحدي عواصم الغرب تلبية لدعوة رئيس الجالية المصرية بحضور السفير المصري ونخبة من أساتذة الجامعة والعلماء والأطباء من أصل مصري الذين هاجروا واستقروا في هذا البلد منذ سنين .

كان نجم السهرة المقام علي شرفه هذا الحفل هو أحد المسؤولين الرسميين الذي يطيب له أن يقدم نفسه باعتباره ينتسب لأصحاب الفكر والثقافة ، ولهذا فقد اعتمد عليه أهل الحكم في محاولة تبييض وجه النظام ، ودفعوا به لشاشات التليفزيون وصفحات الجرائد مُنظراً وفيلسوفاً يبيع الوهم ويبرر المفاسد وينشر بضاعته المعطنة بدأب وإصرار عجيبين ، حتي أصبح إسمه مقترناً لدي الناس بالضجر وثقل الظل .

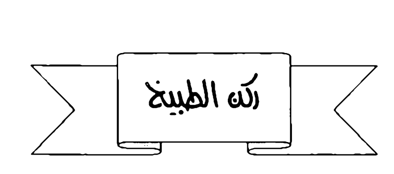
أخذ الضيف يتحدث وينتقل من موضوع إلى موضوع وسط مجاملات الحاضرين وترحيبهم . . قام بالحديث عن السياسة المصرية داخليا وخارجيا ، ولم ينس أن يتندر علي حكام مصر السابقين ، كما تناول زملاءه الوزراء بالسخرية والتجريح ، وعلي مدي أكثر من ساعة لم يكف عن الكلام والثرثرة . . لغو وكلام مُعاد سبق ترديده مئات المرات . . أقول لكم الحق لقد شعرت بالإختناق وبالرغبة في مغادرة المكان ولم يمنعني غير أن الضيف تفضل وأبدي استعداده للإجابة عن أسئلة الحاضرين . . استبشرت خيراً وأملت أنهم سيمطرونه بأسئلة تحرجه وتكشف تهافته وخواءه ، وحلمت بأن أراه مرتبكاً في دفاعه عن كل خطايا الحكم ، لكن خاب أملي . . كل الأسئلة رقيقة ، ساذجة ، سخيفة ولا تمس أياً من القضايا الحقيقية التي تشغل المصريين ، مع أني أعلم أن هؤلاء الناس جميعاً قد هاجروا وتركوا الوطن منذ سنوات بعيدة بعد أن خنق أحلامهم ، وكلهم حققوا نجاحات كبيرة ليس لهذا الرجل أو لحكومته فضل فيها ، بالعكس كل الفضل كان لفرارهم من

وطـن يحكمـه أمـثال هـذا الرجل ، وهم علي علم تام بحقيقة الأوضاع المأساوية في مصر ، ومع ه يجاملـون الـرجل ويـتوددون إلـيه ، ولم يكـن ينقـصهم سـوي أن يُخـرجوا أوتوجرافاتهم ويطلب توقيعه !

تذكـرت مـا قـرأته للدكـتور جـلال أمـين عـن الشخـصية المـصرية وشـعرت بالأسـف لهـ الشخـصيات المـرموقة الـتي تحـيا في وطـن حـر يـستطيع المـرء فـيه أن يناقش حكامه وأن يعزلهم ويـسـجنهم أيـضاً إذا انحرفوا ، ومع هذا تهزمهم جيناتهم في مواجهة مسؤول تافه يجلس معهم بعيد عـن نفـوذه وهيلمانه وأمن مركزه . استأذنت في طلب الـسؤال وقلت له : لعلك تعلم أنه هنا في هـ الـبلد يقـبع عـشرات من المجرمين الهاربين من مصر الذين فروا بأموال المصريين بعد أن اقترضو بـدون ضـمانات مـن البنوك ، فقال : نعم أعلم . قلت له : ولعلك تعلم أننا لا نستطيع استعادتهـ إلى مـصر نـتيجة أن الأحكـام الـصادرة ضـدهم بالـسجن هي أحكام صادرة من محاكم غير طبيعي (عـسكريةأمن دولة . . الي اخره) ومن المعروف أن الغرب لا يعترف بهذه المحاكم التي لا تتوفر بـ ضـمانات العدالـة ، كذلك المتهمون بارتكاب أعمال ارهابية . . الأحكام الصادرة ضدهم من غ القاضـي الطبيعـي يجعلـها أشبه بالأوامر الإدارية التي لا قيمة لها ، فمتي نتخلص من هذا النوع م المحـاكم حـتي نـستطيع اسـتعادة أمـوال مصر من اللصوص الهاربين؟ . . شكرني الرجل علي هذ الـسؤال الهام(طبقا لقوله) وشرع يتحدث عن ذكرياته عندما كان طالب بعثة في الخارج وحدثنا عـ علاقاتـه الدولـية وصداقاته بقادة العالم ، وعن نفوذ الولايات المتحدة وتأثيرها الحضاري ، ونظر إلى حـال مصر قبل الرئيس مبارك وحدثنا عن صلاح نصر وزوار الفجر . تحدث عن كل شئ وأي شئ ولم يجب عن سؤالي !

هممت بأن أنفجر فيه قائلا : ما هذا يا عم الحاج ؟هل حكايتك مع الزمان هذه هي ردك علي سؤالي؟ . . لكني تراجعت مدركاً أنه لا فائدة مع هذا الرجل المراوغ في وجود هؤلاء التنابلة الذين لن يساندني منهم أحد . بعدها أخذ الحديث منحي كوميدياً عندما طلب أن يسمع منهم اخر نكتة . وعلت الضحكات والقفشات خصوصا مع قدوم الطعام . . و نظرنا حيث اتجهت أنظار المسؤول نحو باب المطعم في اهتمام عظيم ، ورأينا شابا صغيراً في حوالي العشرين من العمر يقترب من مائدتنا ودهشة المسؤول تتسع ثم فوجئنا بسيادته ينتفض من علي كرسيه مهللا مرحبا فاتحا ذراعيه من علي البعد . . يا أهلاً يا باشا . . أهلا يا باشا . . ازاي معاليك . . المتحدث هنا هو المسؤول الكبير وليس الشاب الصغير ! أهلا يا باشا كيف حالك وكيف حال الباشا الكبير ؟ تفضل يا سعادة الباشا

وجلس هنا بجانبي. وجدت نفسي أنظر في ذهول إلى صديقي الذي بجواري والباشا الصغير يجلس بجوار أفندينا، وسألنا بعضنا في همس عمن يكون الولد الذي انتفض المسؤول المفتخر لدي رؤيته. دنتحي بنا أحد العارفين وأخبرنا أن هذا الشاب هو أخو فلان اللص الشهير الذي سرق مصر وهرب بفلوس البنوك وترك مصر تبكي علي بختها المايل مع حكامها وأصدقائهم اللصوص. وعندما تساءلت عما يجمع هذا الشاب وأخيه اللص من ناحية مع رجل السلطة هذا. حكوا لي حكاية كاملة وأظنني سأقصها عليكم في حديث اخر.


ركن الطبيخ

مدرسة أبلة نظيرة الصحفية

من المعروف أن الفلاسفة والأدباء وكبار الكُتّاب الذين سبروا أغوار الحياة وهتكوا أستار المعرفة ووقفوا أيامهم ولياليهم على البحث والقراءة والتأمل . تتميز كتاباتهم دائماً بأنها تثير من الأسئلة أكثر مما تقدم من إجابات .

هذه المقدمة أراها ضرورية لأني أنوي الحديث عن رجل من هؤلاء وأيضا لأني أعلم أن القراء عندما يرون عنواناً يتعلق بحديث الطشّة والتخديعة والتقلية قد يقولون : "إنت لسه فاكر" إشارة إلى أنّ المقال الذي نشره ممتاز القط في أخبار اليوم بعنوان "حمّال الهموم" قد مضي عليه أكثر من أسبوعين، ولكن ماذا أفعل إذا كانت كل التعليقات التي تناولته لم ترو ظمأي للمعرفة ولم تتطرق لجوهر الموضوع ولم تطرح إجابات للأسئلة التي فجّرها المقال المدهش، معظم ما كُتب كان نقدا لاذعاً وسخرية مرة وإتهاماً بالنفاق والموالسة حتي أن الأستاذ بلال فضل لم يعرف ماذا يفعل بعد أن منحه أوسكار الموالسة ثلاثة مرات تجيز له الإحتفاظ بالتمثال للأبد! . لا شأن لي بهذا ولا شأن لي بالأشرار الذين يقولون أن أخبار اليوم صارت تصدر في طشّة أولي وطشّة ثانية. إنّ كل ما يعنيني هو أن أستعيد السلام الداخلي الذي فقدته بعد أن إضطربت أفكاري وتشوشت بفعل المقال " الواعر " للكاتب الأكثر وعورة .

عندما يكتب القط أن الرئيس محروم من أكل محشي الكرنب ومحروم من طشّة الملوخية بالتقلية ومن الصيادية ويكتفي فقط بالخضار السوتيه فمن حقنا أن نعرف هل هذه معلومات موثقة وحقيقية عن الرئيس أم أنها محض إجتهادات، فإذا كان الرئيس لا يتناول هذه الأطعمة لأنه لا يستسيغها مثلاً أو لأن معدته لم تعد تقوي على الأكل المسبك شأن كثيرين فإن هذا ينسف مقال القط من الأساس ويجعل إشادته بالرئيس في معرض الإمتناع عن الأكلات المصرية غير ذات معني .

لا بد أن القط يقصد أن الرئيس يفعل هذا من أجل الوطن، وهذا بالتحديد ما لم أفهمه. فكيف يكون الإمتناع عن تناول أصناف يحبها المرء، غير محرّمة دينياً ومعدته قادرة على هضمها تضحية من أجل الوطن؟ وأي وطن ملعون هذا الذي يقبل بحرمان رئيسه من اللقمة؟ وهل أخبره الرئيس أنه يحب الملوخية ويمتنع عنها لأسباب رئاسية . . هناك أشياء لم يوضحها القط ونناشده أن يتكلم . .

إن أنبياء الله جميعا كانوا يأكلون مما يأكل منه الناس ولم يؤثر هذا على رسالات السماء . ونعرف أن سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام كان يأكل في اعتدال الثريد واللحم وكل ما يأكله قومه ، فكيف تتعارض لدي الأستاذ القط أكلات المصريين مع واجبات الرئاسة؟

إننا لا نعتقد أن الرؤساء بهذه الرهافة التي يظنها القط ، فنحن نشاهد الرئيس الأمريكي يشارك شعبه إلتهام الديوك الرومي العناقي في عيد الشكر دون أن تتأثر مكانة أمريكا في العالم ، والرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران وكما حكي الأستاذ هيكل كان يدعوه على الغذاء لتناول خد الراس ، ولم نعرف أن دولاب الحكم الفرنسي قد تفككت ضلفه أو تخلعت قوائمه ، كما أن الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري كان يتناول الكبد والكلاوي في الإفطار ، ولا نظن لها علاقة بالإنقلاب الذي أقصاه عن السلطة . . ولا نريد أن نتطرف ونحكي عن امبراطور أفريقيا الوسطي المخلوع بوكاسا الذي عثروا في ثلاجته على رجال متخبين وجاهزين على الطهو ، ويقال أنه أطعم ضيوفاً له يوما أحد وزراءه .

هل تعلم يا أستاذ قط أن معاييرك هذه قد حرمتني من حقي الدستوري في الترشح للرئاسة حيث خجلت أن أقدم أوراقي وأنا الزبون الدائم في الناصرية عند محلات الطحال والممبار والسمين ، ولقد بدأت أتساءل : هل تضاؤل حظوظ المرشحين المنافسين للرئيس مبارك يعود إلي دناوة ' أغلبهم وإيثارهم للطعام على مصالح الوطن العليا؟ لكن هذا القول ينفيه أن أحد من حضروا لتقديم أوراقهم كان حافياً ، رث الثياب وشكله لا يذوق الطعام إلا لماماً ومن الواضح أن سعيه للكرسي الكبير هو بالأساس من أجل أن ينفتح على دنيا المحمر والمشمّر والصواني ، فإذا بالقط يصدمه ويحدثه عن الحرمان والخضار السوتيه .

من الأشياء التي لم تكن واضحة أيضاً هل هذه القيود يتعين فرضها على كل رجال الحكم أم أنها قيود رئاسية فقط ، وما موقف الوزراء والمحافظون وكبار رجال الدولة وإمكانية أن "يضربوا كشري بالشطة أو حواوشي ملتهباً مثلاً"؟ ، وإذا نحّينا الكرنب جانباً . ماذا عن بقية المحاشي بتنجان وكوسة وفلفل ، وهل يسري الحظر على الملوخية بنوعيها الخضرا والناشفة؟ وما حكم الخُبّيزة؟ وهل نأخذها بذنب الملوخية نتيجة القرابة؟ خاصة وأنها تتضمن أيضاً نوع من الطشة ، وما موقف الطواجن خاصة إذا إمتلأت بالعكاوي والمخاصي والكوارع؟ وماذا عن الفتة بالخل والثوم وأسياخ الكفتة وورقة اللحمة بالبهار وورق اللاوري وجوزة الطيب .

نحن نحسن الظن بالأستاذ ممتاز القط ولا نساير من يوجهون اليه الإتهامات . فقط نرجو أن يسمح لنا ما استغلق على عقولنا الصغيرة ونحن نثق أنه يدشن مدرسة صحفية جديدة ستحتاج بعض الوقت حتي "تتسبك" وعليه أن يحتمل رزالة الجهلاء والحمقي فهذا هو قدر أصحاب الرسالات أمثال جاليليو وكارلوس البرتو و . . زكي جمعة ، ولن يمر وقتاً طويلاً حتي يتتلمذ الوطن تلاميذ المدرسة الصحفية الجديدة . . مدرسة أبلة نظيرة .

٤- الدنيا إلا مسمط كبيرا

من ألذ وأمتع المقالات التي قرأتها في الفترة الماضية ما كتبه الاستاذ محمد علي ابراهيم رئيس تحرير الجمهورية بعد عودته من رحلته مع السيد الرئيس إلى السعودية ورحلته مع الوفد المصري الذي زار بيروت أثناء العدوان الاسرائيلي.

و على عكس كل من انتقدوا كتابته عن المشويات والسلاطات والكنافة باللوز ... فانني أري أن الرجل لو صام عن الطعام وعن الكتابة ما أفاد لبنان بشيء. وأري أن ... فضيلة يجب أن نشجع على ممارستها وألا نهب لقمع من يؤدونها وهي فضيلة الصدق.

حكي الأستاذ ابراهيم بكل صراحة عن السماط الذي تم مده للسادة الصحفيين في مدينة ... السعودية وفي بيروت، واستفاض في وصف الموائد العامرة بما لذ وطاب من كميات ... الصغيرة "الأوزي" والجمال الصغيرة "البعرور" و التيوس والنعاج المشوية والملوخية التي ... كان. و حدثنا عن علاقته باللحوم فوصف نفسه بأنه من الناس "اللحميين" الذين يرفضون حالة ... لا لحم والذين إذا لم يتناولوا اللحم أبيض أو أحمر مرة يوميا فإنه يشعر بإعياء وعدم ... غللة، ولكن من إن تنزل في جوفه قطعة لحم أو دجاج مشوية حتي يشعر أنه استعاد وعيه ... الكامل وتنتبه مراكز الشعور والاحساس عنده وينطلق إبداع العقل.. (ما سلف هو نص كلمته عن رحلة السعودية، أما رحلة بيروت فقد قال عنها: "لم أذق في حياتي مزات لبنانية بهذه الحلاوة، ربما لأن كل ما كنت أكله من طعام لبناني قبل ذلك كان تقليدا، أما ما أكلته في مقر رئيس الوزراء فهو الأصلي الوحيد ولن أحكي لكم عن البقلاوة وعجينة اللوز ... المكسرات.. بصراحة.. يا دلي.")

لا أكتمكم أن من ضمن أسباب إعجابي بالرجل أن الناس العاديين إذا ما ملأوا بطونهم باللحوم ثم سدوها بالحلويات.. بالتأكيد سيسري الخدر في أوصالهم ويحل عليهم التثاقل والوخم ... قد يدفع بهم إلى التبسة التي تفضي للنوم والشخير بصوت عال!، أما الأستاذ ابراهيم عند تعرضه لهذه التجربة الدسمة (مشويات وسلاطات، تبولة وفتوش، بقلاوة وعجينة اللوز) فانه يشعر بالصفاء والانتباه مما يدفع ببحور الابداع لتتلاطم على شواطئه!

و أنا لا يخالجني شك في صدق ما يقول مع أنه دون أن يدري قد كشف ما يحدث في الرحلات التي يصاحب فيها الصحفيون السيد الرئيس أو سفرياتهم بصحبة الوفود المصرية، حيث يتم حل

الصحفيين إلى المركبة التي تطير بهم إلى وجهة ليست معلومة لهم بالضرورة، في زيارة لا يعرفون عنها شيئا، ثم يتم إجلاسهم حيث تمد الأسمطة وتفرش الموائد وتزري جحافل الخراف المشوي والوز المحمر والبط والفراخ والحمام. . فيأكلون حتي يشمون، ثم إذا سمعوا المنادي ينادي أن هيا يا رجال تركوا الأكل والشرب وهرعوا إلى الطائرة التي تعود بهم من حيث أتوا دون أن يشرح لهم أحد شيئاً! . لقد كشف الأستاذ محمد على ابراهيم بصدقه ورفضه للإدعاء ما يفعله زملاء الصحفيين من اختراع لقاءات لم يجروها وإدعاء حضور مباحثات لم يحضروها وكتابة تحليلات يزعموا أنها من وحي رحلتهم السياسية مع أن الرحلة لم تكن سوي محض مأكلة!

لقد أحببت هذالرجل لأنه كتب عن أشياء محببة الينا عكس زملاءه الذين يكتبون عن شخصيات واشياء لا نحبها، لهذا فإنني أتمني عليه في زياراته القادمة إلى بلاد الله المختلفة ألا يبخل علينا بالمعلومات والحقائق عن الأطعمة اللذيذة التي سيصادفها . . فإذا حطت راحلته مرة في جنوب شرق اسيا فليحدثنا عن ضفدع الهيمالايا المحمر الذي يأكله الناس في مملكة نيبال ويقدمونه مع الخضار المسلوق والرز على البخار، وإذا عرج على تايلاند ورأي البُرص (الذي نتعامل معه بالشبشب) يغلي في القدور على عربات تقف على النواصي وبداخلها الأبراص والسحالي والجرذ التي يفطرون بها مع الأرز فلا يشمئز ولا يجفل . أما إذا هبطت طائرته يوما في بيرو على المحيط الهادي فلا تفوته المطاعم الشعبية التي تقدم وجبة إحليل القمة الشاطئية المغموس في صوص الريحان مما يجعل المرء يقول من قلبه يا دلي!

أما في رحلاته الأفريقية لمساندة الأشقاء وتغطية صراعات القارة السمراء أدعوه للتركيز على مطاعم اللحوم الصرفة مثل المطعم على أطراف العاصمة الكينية نيروبي الذي يقدم لحم الأسد والنمر والغزال والنعام، غير أن أغلي ما لديهم هو طبق مخ الشمبانزي بالزبدة الذي يعتقدون في سره البانع لشد العصب. ولن أحدثه عن أوربا وسلسلة مطاعم "كو دي شوفال" أي ذيل الحصان التي يعرفها بالتأكيد وتقدم لحم الخيول الصغيرة مشويا وطواجن وسنجاري.

و لكن مهما لف وطاف وشاف في الخارج لا بد أن يعود في النهاية إلى القاهرة . . و أدعوه بصدق إلى زيارة المربع الأمني الغذائي بوسط القاهرة الممتد من الرويعي إلى درب القطة والذي يحوي مسمط عربي تسقية حيث الكارع النخاعي الشرح، وبجواره الحويجي ملك سندوتشات اللبّة، والحلو لا بد أن يكون عند الحوري صاحب صاج البسبوسة الأشهي والأطعم من بسبوسة فؤاد السنيورة في بيروت! . و أنا واثق أن الدسم هناك لن يصل به فقط إلى مرحلة يا دلي . . بل قد يدفع به إلى الاورجازم!

كشري أبو طارق ومهلبية هاني سرور

التقيت أحد الأصدقاء مصادفة في الشارع، فتكرم بدعوتي على طبق كشري عند أبو طارق وسألني: هل تعرفه؟ قلت: طبعا أعرفه وتستطيع أن تقول أنني شاهد على مسيرة صعوده من عصر أيام عربة الكشري على نفس الناصية إلى أن صار له موقعا على الإنترنت يضع عليه صورته التي يعتز بها ويضعها في صدارة المحل من الداخل كما تحتل واجهة البناية بأكملها.

علق صديقي على مسألة الصورة بامتعاض كأنما استكثر على الرجل أن يفرح بنفسه. لكني لم أشاركه اعتراضه وقلت له: صحيح أن صورة الرجل تشي بالسعادة الواضحة على محياه، ونظرته وهو يرنو ببصره للأفق متكئا بذقنه على راحة يده تبدو كنظرة مفكر حداثي أو بعد حداثي محنطين، لكنني في الحقيقة أشاطر الرجل فرحته بنفسه، فهذا رجل يتقن ما يعمل وينشر السعادة على زبائنه. ولئن أرادت هيئة الأيزو أن تجد له غلطة ما استطاعت، فكل مقاديره مطابقة للمواصفات القياسية.. عدسه وأرزه، حمص شامه وصلصته، مكرونته وتقليته.. كله بالمازورة وجميع المكونات ترقص في القدور بنسب منضبطة في اتساق بديع.. لهذا يحق للرجل أن يفرح بنفسه ولا يحق لنا أن نلومه!

قال صديقي: لعلك محق فيما تقول، وبما أنك تشجع اللقمة الحلوة فإني قررت أن أصطحبك حتى نأكل الحلو عند رجل آخر من صناع السعادة طبقا لتوصيفك، ذلك هو هاني سرور صاحب محل طبق مهلبية في البلد، وهو لا يقل عن "أبو طارق" افتتانا بنفسه وإعجابا بصورته. سألته في دهشة: هاني سرور صاحب شركة هايديلينا الذي يقف أمام النيابة للتحقيق في اتهامه بعدم مطابقة منتجاته للمواصفات ووجود عيوب جسيمة بها؟ قال: هو بعينه. سألته: هل هو يبيع مهلبية؟ قال: نعم له محل لمنتجات الألبان يقدم مهلبية فاخرة، ومنذ أن تذوقت منها طبقاً آمنت ببراءة الرجل وأدركت أن من كان مثله لا يمكن أن يغش في المنتجات الطبية لأن الجودة لا تتجزأ.

قلت لصديقي: لا بد أنك تهزل لأن الرجل لا يعمل في منتجات الألبان. قال: تعالى معي وسترى بنفسك. وبالفعل اصطحبني معه إلى حي الظاهر.. ولدهشتي الشديدة وجدت المحل كما وصفه تتصدره لافتة كبيرة عليها صورة هاني سرور وتحتها اسمه.. نظرت إلى الصورة فأسرتني ابتسامته وأشاعت في نفسي إحساسا لا يسهل وصفه.. بصراحة لقد خطف الرجل قلبي

بنظرته الحانية كأنما يشجعني على الدخول وتناول طبقين وثلاثة بين مهلبية ورز بلبن وعاشورة

قضيت و صديقي ساعتين من السحر عند ساحر المهلبية العظيم ، وأحسست أن الزبيب وجوز الهند فوق سطح الطبق هي فصوص زبرجد ولؤلؤ نضدها صائغ فنان يتعامل مع زبائنه بحب وحنان .

صارحت صديقي بأنه محق في تقديره لبراءة الرجل لأن مواصفات الجودة في طبق العاشوراء تكشف عن حب جارف للإتقان ، ولا يمكن لمن يبيع السعادة في سلاطين فخار أن يصدر الموت في أكياس ملوثة .

و الحقيقة أنني لفرط انبهاري بما أكلت تساءلت : هل مر العضو حيدر بغدادي بتجربة كالتي أخوضها الآن؟ هل جرب واحد رز بالقشطة والمكسرات في هذا المحل؟ أشك . . لأنه لو فعل لكف أذاه عن الرجل وسحب استجواباته وأسئلته ، ولا شك أن الدكتور حمدي السيد قد سبقنا وعاش لحظات جميلة في هذا المكان مع سلطانية زبادي على الأقل ، ومنه خرج يعلن على الناس براءة الدكتور هاني سرور ويصرح بأن مصانعه تعتبر فخراً لمصر ويتهم حيدر بغدادي بالعمل لحساب شركات أجنبية يهمها تخريب الصناعة الوطنية . . كذلك السيد وزير الصحة ربما يكون قد أدرك معدن الرجل مع أول قطمة من سندوتش قشطة بالعسل .

أشركت صديقي في أفكاري وذكرت له أن رواية " العطر " للكاتب الألماني باتريك زوسكند تحوي موقفا مشابها عندما اجتمع الناس وقد سحرهم العطر الذي صنعه بطل الرواية وأصدروا حكمهم له بالبراءة لأنه لا يمكن أن يكون قاتلا بعد أن صنع هذا العطر المعجز .

عند خروجي وصديقي من المحل فاجأنا وجود دكانا آخر يحمل اسم هاني سرور وصورته أيضا يبيع الخردوات ، وعند الناصية دكان طرشجي عليه نفس الإسم ونفس الصورة . . يا إلهي . . ما هذا إن كل المحلات تقريبا تحمل نفس الاسم والصورة ، وهذا ما لم ألحظه عند قدومي أيعقل أن يكون الرجل قد اشترى كل المحلات على اختلاف انواعها وأصبح يمتلك حي الظاهر بجميع حواتيه؟ دخلت دكان علاف وسألت الواقف بالباب : قل لي يا عمنا . . هذا الدكان ملك الدكتور هاني سرور؟

فقال : هاني سرور مين؟ هذا الدكان ملكي أنا ورثته عن أجدادي ، فسألته مندهشا : ولماذا إذ تعلق صورته على دكانك؟ فضحك وقال : قبل الانتخابات الماضية حضر رجال هاني سرور

.. قالوا أنهم سيقوموا بدهان المحل وتركيب يافطة جديدة مقابل وضع صورة الرجل للاستفادة منها في الدعاية الانتخابية، ولما كانت ابتسامته حلوة كما ترى فلم أجد ما يمنع، وكذلك فعل أصحاب المحلات الأخرى.. أما الذين طلبوا أن تطلى لهم دكاكينهم دون أن يضع صورته فقد حرمهم من دهانه ومن صورته!

ودعت صديقي وقد طارت النشوة وتبخرت السعادة بعد أن أصيب خيالي في مقتل. لكني مع هذا كنت أعزي النفس بأن " أبو طارق " ما زال موجودا وأن صورته المبتسمة تقبع فوق دكانه وأنه لم يدهن لأحد.. الهوا دوكو!

ت. ..نيفتيكم أعناق الرجال!

كتب الأستاذ فهمي هويدي، بصحيفة «الدستور» تحت عنوان: «فضيحة في طب الأزهر» عن تجربة محزنة أشد الحزن ومؤلمة أشد الألم، ملخصها أن أستاذاً بالكلية كان منهمكاً في إلقاء محاضرته، عندما انفتح باب المدرج فجأة، ودخل ضابط وبعض المخبرين، وأن الضابط قد أخبر الأستاذ المحاضر بأن ينهي محاضرته، فما كان من السيد الأستاذ إلا أن انصاع لسيادة الضابط. ... أوراقه وانصرف!!

بعدها انفرد الضابط بأحد الطلاب لتأديبه وتهديده إلخ. هذا هو مضمون الموضوع. كما ... الأستاذ هويدي، الذي بدا مصدوماً بل مفجوعاً من المدي الذي بلغته استباحة الحرمات ... التقاليد والأعراف من جانب الشرطة في مصر.

كما وضح التأثر الشديد للكاتب الكبير من موقف الأستاذ الجامعي، الذي كان متوقعاً منه أن ... بطرد الضابط الذي انتهك حرمة المدرج، وأن يحرر محضراً لدي العميد ورئيس الجامعة. لكنه ... من ذلك قبل أن يقوم رجل الأمن بإنهاء محاضرته على مرأى من الطلاب دون أي غضاضة!

حقيقة أن الأستاذ فهمي، قد نكأ جرحاً مفتوحاً منذ أن بدأ السباق الرهيب في الحصول على ... التافهة، مقابل كل ما كنا نعتز ونفخر به في حياتنا. مثل الاعتداد بالنفس والشعور بالعزة ... الكرامة.

تساءلت بيني وبين نفسي، عن السيناريو الذي كان من المتوقع أن يحدث، لو أن الأستاذ قد قام ... نحو منتظر ممن كان مثله. ورفض أن يتم انتهاك محاضرته من قبل الأمن، وهو السيناريو الذي ... الأستاذ عواقبه .. لكن ترى ما هي تلك العواقب؟ في ظني أن شيئاً خطيراً لم يكن ليحدث. ... الهواجس في الأمر أكبر بكثير من المخاوف الحقيقية، لكن يبدو أننا أصبحنا نخاف من ... خرافة»!

على سبيل المثال، لو أن الذي مر بهذا الاختبار كان فراشاً بالكلية أو عاملاً بسيطاً محدود ... الدخل والتأثير لعذرناه، لأنه ربما يخسر رغيف الخبز المدعم الذي لا يملك غيره، وربما يتم قطع ... خط الإمداد والتموين، الواصل بين عربة الفول على الناصية ومائدة الأسرة! لكن ماذا كان يضير

الأستاذ الجامعي بكلية الطب، الذي هو بطبيعة الحال طبيب، وطبيب كبير بالضرورة، ومن الأرجح أن له عيادة خاصة أو معمل أو مستشفي، وأن لقمة عيشه لم تكن على المحك، وصحن البُفتيك في البيت لم يكن عرضة لأي هزة.

فلماذا آثر السلامة، وأنهي المحاضرة في هدوء وانصرف؟ هل لأنه علم أن الأمن له الكلمة الأولي في الترقيات ورئاسة الأقسام وعمادة الكليات؟ وما الجديد؟ . . هناك أشياء أقيم بكثير خاصة لمن كان مستوراً ولا يقف على شفير الهلاك.

لكن يبدو أن الأمر في حقيقته أعمق بكثير، وأن المسألة ليست بهذا التبسيط. تذكرت صديقاً كانت لديه نظرية عجيبة تفسر مثل هذه المواقف، مؤداها أن الإنسان يسعي من المهد إلى اللحد للحصول على نصيب عادل من البُفتيك، ثم يظل يسعي للحفاظ على هذا النصيب وتأمينه من الأعداء وتدعيمه ضد غدر الأيام.

ثم عندما يستتب له الأمر، يبدأ في السعي نحو زيادة رقعة البُفتيك على مائدته، حتي لو كان أكبر من حاجته، وأن هذا السعي المحموم لا يتوقف حتي النفس الأخير، وإليه يعزي كل السلوك الذي يخلو من النبالة، ويجنح إلى الاستكانة وعدم الصدام أو مقاومة الظلم الذي قد يترتب عليه تقلص قطعة البُفتيك، ويطمع فيها غيره من أكلة اللحوم.

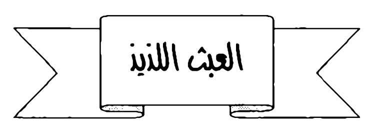
أعتقد أن نظرية «الإسكالوب» التي ابتدعها صديقي - على ظرافتها - تصلح لتفسير كثير من مواقف النخبة، التي تنكرت لكل ما كانت تصدع به رؤوسنا، ومن بينهم بعض أساتذة الجامعة الذين كنا ونحن طلبة نستمع إليهم، فنود لو نخرج في التو واللحظة لنطبق ما تعلمناه على أيديهم

ونملأ الأرض عدلاً ورحمة، فإذا بالأيام تمر ونجدهم يعملون شماشرجية في خدمة الماليك ويظهر من بينهم ترزية للقوانين في مجال التشريع، يقومون بقص الباترون على مقاس الزبون ثم يهرعون إلى الحاني لتذوق كبابه وكفتاه.

كما رأينا من القضاة من يحبون البُفتيك حبا جما ويصدرون الأحكام ونصب أعينهم الفتة المشوي مع صوص الباربكيو. ووجدنا صحفيين ورجال إعلام يكتبون أشياء تزري بهم أمام الرأي العام دون وجل أو خشية، حتي إن بعضهم لم يخجل من التصريح بحقيقته، فقال في مناسبة ترأى الناس جميعا أنه من الناس «اللحميين» الذين يعشقون اللحوم، ولا يطيقون غيابها عن المائدة . . ولو ثواني!

وربما أن هذه النظرية تفسر لي شيئاً آخر قد حرت طويلاً في تفسيره، وهو لماذا بالمصادفة أن كل البشر الذين عرفتهم في حياتي من النباتيين في كل بقاع الأرض التي زرتها، الذين يعافون اللحم ويرفضون أكل أي كائن حي، ويعيشون على الخضر والفاكهة.. لماذا تصادف أنهم كانوا دائماً من النبلاء أصحاب الأخلاق الرفيعة، ولماذا كانت لديهم دائماً القدرة على اتخاذ مواقف شريفة، والقدرة على لجم الظالم ووقفه عند حده، ولماذا اتسموا دائماً بالشفافية والبساطة والكبرياء؟!

أظن أن السبب واضح، وهو ترفعهم عن كل ما يذل النفس وفي مقدمته.. البُفتيك المشوي!


العبث اللذيذ

حمام جاهز يا باشا

منذ الطفولة المبكرة وهذا الحلم يداعب خيالي، لم يغب عني أبداً. كنت أشاهد في الأفلام التي يعرضها التليفزيون الفنان زكي رستم أو سليمان نجيب وأحيانا حسن فايق جالساً يتناول الشاي في بيت ساعة العصاري عندما يقترب منه الخادم معلناً بصوت جهوري: الحمّام جاهز يا باشا.

كان لهذه الجملة مفعول السحر في نفسي وكنت أسرح في تخيل كيف يمكن تجهيز الحمام. وما الذي يفعلونه بالضبط ليجعلوه لائقاً باستقبال الباشا؟ وما هو شكل الحياة وحجم المتعة التي يحصل عليها انسان تجري استعدادات سابقة على دخوله الحمّام؟ خاصة وأن الأمر لم يكن يعدو –على حد خبرتي– صابونة وليفة وصفيحة ماء ساخن مع كوز بلاستيك، فما الذي يفعله الخادم بالتحديد وما الذي يجعله مزهواً كل هذا الزهو وهو يعلن الخبر؟

مع مرور الأيام تبدلت الصفيحة وظهر في بيتنا سخان الغاز والدُش، ومع هذا ظللت على حيرتي.. الماء في المواسير والصابونة على الرف وما على سوي أن أفتح الحنفية و.. أعيش، فأين دور الخادم الفخيم؟. حاولت أن أُشرك أصدقائي في الأمر لعل أحدهم يكون ذا إطلاع، لكن سؤالي أدهشهم وأثار فضولهم، وأصبحنا مجموعة تسعي وراء الحقيقة بعد أن كنت وحيداً!

تمر المزيد من الأيام ويدخل البانيو بيتنا مع زمن الإنفتاح وأستبشر خيراً بعد ما أصبحت على مقربة من كشف السر، لكن.. لا شيء يحدث، إن ملء البانيو بالماء وحتي بالشامبوهات التي تصنع الفقاقيع لا يحتاج تجهيز أو إعداد ولا يقتضي وجود خادم.

وطّنت نفسي على أن أحيا مع السؤال المؤرق وطويت جوانحي على الحيرة.. ثم دارت الدنيا دورتها وصارت أم تيتو الشغالة تأتي لزيارتنا مرتين في الأسبوع، فقررت أن أجرب حظي معها وقلت لها ذات مرة دون أن يبدو على الإهتمام: حضّري لي الحمام من فضلك يا أم تيتو، ففغرت المرأة فاها دهشة وقالت لي: يعني أعمل إيه يا أستاذ.. أشد السيفون؟!

و لما عشت في الخليج لفترة واستعنت بخادمة أسيوية مقيمة ظناً مني أنها قد تعرف ما يحدث في حمامات البيوتات الكبيرة.. طلبت منها تجهيز الحمام ففاجأتني وهزت رأسها بالإيجاب وغابت قليلا ثم عادت وأعلنت: الحمام جاهز بابا.. رقص قلبي من الفرحة لكن عندما دخلت وجدت

الحمام كما هو ، لا شيء تغير . . الحوض في مكانه ، البانيوهو البانيو ، الليفة منفوشة كالعادة. سألتها : ماذا فعلتي؟ قالت : لا شيء ، وجدنه جاهزا!

مع مرور السنوات بدا اليأس يتسلل إلى نفسي ، وأصبحت أكثر ميلاً للزهد وقبول الحياة قليلة المتع كما هي . ورغم كثرة التنقل والأسفار ومخالطة شتي الأجناس لم أحصل على إجابة شافية أبداً . حتي عندما عشت في مونتريال وسكنت في شقة تحتوي على جاكوزي كنت أضغط على زر فتنفتح الرشاشات ، وعليه لم أجد ما يغري باستخدام خادم لا أضمن أن يكون لديه موهبة وخبرة تجهيز الحمّام على نحو مبهر لا أعرفه .

غير أن الحياة التي لا تكف عن إدهاشي حملت إلى مصادفة سعيدة أحيت عندي الأمل بعد أن فقدت طموحي وكدت أستسلم لقدري وأتخلي عن الحلم القديم . . كنت أتصفح جريدة الدستور عدد ٦ ابريل وكان المقال عنوانه "خدم" . . كتب ابراهيم عيسي : " قالها كده وسط تلاتين بني أدم في الاجتماع الرسمي الفخيم . . أحني رأسه ووطي ظهره وقال بحروف واضحة فصيحة : أنا خدامك يا هانم . . المذهل أنه قال هذا الكلام أمام شهود وكأنه لا يستحي من نفاقه الرخيص . والغريب أنه استخدم تعبير (خدامك) وليس تحت أمرك أو حتي في خدمتك . . لأ قالها كدة بالمفتشر وبلا حيا وينتهي الصفاقة الذليلة (أنا خدامك يا هانم) طبعاً ليس غريباً بعدها أن يتم تزوير الانتخابات لصالحه بنفس الصفاقة ، فالخدم في حاجة إلى مكافأة" ومضي ابراهيم عيسي يتساءل : " ما الذي يجعل هذا الرجل الذي يجب أن يطلق على نفسه لقب مفكر ينحدر إلى هذا الدرك؟ ما الذي يدفع شخصاً يوشك الناس أن يعتبرونه محترماً أن يتدحدر به الحال إلى مآل الخدم وخصيان القصور؟ "

عندما قرأت السطور السابقة اجتاحتني موجة من التفاؤل وأحسست أن دفعات من الريح تندفع في أشرعة حلمي القديم ، وأن هذا الرجل هو من انتظرته طوال عمري ، وهو الوحيد القادر على تجهيز الحمام على النحو السلطاني الذي داعب خيالي في الأفلام القديمة ، وندمت على السنوات التي ضاعت مع أم تيتو الجاهلة البليدة أو مع الأخري الأسيوية التي لا يحتوي سجلها المهني سوي على الخدمة في بيوت "فقريين" من أمثالي! . كان ينبغي منذ البداية أن أبحث بين من خدموا في بيوت باشوات . . أحمدك يا رب .

و لكن مع موجة التفاؤل التي اعترتني انتبهت إلى مشكلة . . هل تراه يقبل العمل في خدمة

رجل مثلي؟ وما الذي سيحصل عليه مني وهو الذي يملك المال والجاه والمعارف الأُبهة؟. نصحني أحد الأصدقاء بألا أيأس لأن مفاجآت الحياة لا تنتهي، وأنه من واقع خبرته فإن مثل هذا الرجل وقد بلغ من العمر أنطعه وأكثره سخافة قد يرغب في التطهر والقيام بأعمال خيّرة مثلما فعل يوسف شعبان في مسلسل الشهد والدموع عندما اختار أن يعمل خادماً بأحد المساجد في نهاية المطاف بعد رحلة طويلة حافلة بالآثام.

لهذا سأظل على أمل.. فقد يفتح العمل في حمّامي للرجل باباً للتوبة ولي باباً للمسرات عندما يقترب مني وأنا أتناول شاي الساعة حداشر وتلت معلناً الخبر الجميل: الحمام جاهز يا باشا!

عبادتك كوبانية ولا طياري؟!

في فيلم بين السماء والأرض الذي أخرجه صلاح أبوسيف عام ٥٧ مشهد جميل لا ينساه . . أستعيده في مخيلتي دائماً وأراه يعبر بكل الصدق عن الحالة السياسية في مصر .

كان المشهد داخل المصعد للفنان محمود المليجي الذي يقوم بدور لص وقد أمسك بيد النشال عبد المنعم مدبولي داخل جيبه محاولاً سرقته . . سأل المليجي النشال الذي أصيب بالذعر : كوبانية ولا طياري؟ فقال مدبولي : يعني ايه؟ أجاب : يعني حد مسرحك ولا شغال لحسابك؟ فقال : هب الريح ، بمعني أنه شغال لحسابه!

من يومها أدركت أن الناس جميعاً لا بد وأنهم يخضعون لتلك التقسيمة التي وضعها محمود المليجي . . كوبانية أو طياري ، دون أن يعني هذا بالضرورة أنهم حرامية أو نشالين .

في الصحافة نجد الصورة أشد ما تكون وضوحاً . . صحافة حكومية يديرها رجال الكوبانية وهؤلاء تم اختيارهم بسبب تسطيحهم الشديد ، وعدم صبرهم على فهم كلام له معني و كذلك قدرتهم على التعبير البليغ عن فكر الكوبانية الجديد بنفس طريقة شعبان عبد الرحيم وبنفس أدواته تقريبا . بالإضافة إلى صحافة لا تنتمي للكوبانية ، حزبية ومستقلة ، وهذه تشبه ما عبر عنه عبد المنعم مدبولي بتعبير هب الريح . .

فهي وباستثناءات قليلة لا تفعل سوي إرسال رسائل الغزل للكوبانية على نحو يتراوح بين الفج والمستتر حتي لو تظاهرت بعكس ذلك . ويلاحظ في الصحف الطياري أنها تعمل في خدمة الكوبانية بشكل أكثر ذكاء وحرفية ، فكُتابها لا يتحدثون عن طشة الملوخية والمحشي ، ولا يتغزلون في لحم البعرور والبقلاوة بعجينة اللوز ، ومن هنا يدلسون على القارئ الذي لا يعرف حقيقتهم ويوهمونه بأنهم من الأحرار!

و من هذا ما قرأته مؤخراً لكاتب فخيم بُعيد انتخابات مجلس الشوري التي تحدثت عن تزويرها الركبان . كتب الدكتور الأهرامي الاستراتيجي عن أنواع الإنتخابات في العالم وعرّفها بأنها ثلاثة أنواع : انتخابات حرة يعرفها العالم في الشرق والغرب ، وانتخابات مزورة نعرفها في الديكتاتوريات ، ثم انتخابات مصرية تختلف عن الإثنتين السابقتين . طبعاً أراد الكاتب الطياري أن

ينفي عن الانتخابات المصرية أنها مزورة فقام بارنداء روب الباحث وشبشبه وتحدث عن خصوصية الحالة المصرية في تدليس لا يليق بالاستراتيجيين، وقد كان يمكن أن نغفر له لو كان مجرد كاتب تكتيكي! . كاتب آخر من فصيلة هب الريح يحاول كل أسبوع في مقالته أن "ينكش" جمال مبارك فيمتدحه بشدة ثم ينتقده برفق ويوجه اليه سؤالاً أو اثنين عسي أن يقوم الرجل بالرد عليه أو الإتصال به دون جدوي، حيث أن الكوبانية تمتلئ بأمثاله والخرابة مش ناقصة عفاريت!

فإذا انتقلنا إلى الحياة الحزبية وجدنا الظاهرة لا تقل وضوحاً . . الحزب الوطني ومجموعة من الأحزاب التي تعطي أصواتها للحزب الوطني وهؤلاء يمثلون الكوبانية الخربة، أما بقية الأحزاب فهي طياري تقوم بتلقيط رزقها يوم بيوم وتتطلع إلى فتات الحزب الوطني . . مقعد بالتعيين في مجلس الشعب أو مقعد بالتزوير في مجلس الشوري، ويخطئ من يراهن على أي حزب يخرج للنور بموافقة لجنة الأحزاب التابعة للكوبانية حتي لو كان برئاسة الدكتور يحيي الجمل وبقيادة الدكتور اسامة الغزالي حرب وعائلته، لأن ختم اللجنة شبيه بختم السلخانة كما عبّر ببراعة الأستاذ محمد القدوسي . . لا تحصل عليه إلا بعد قطع الرقبة!

و لا يفوتني بالطبع أن أذكر النائب الطياري المعارض الذي تناول الإفطار في معية الرئيس مبارك فخرج يحكي عن الحاجات اللي محشية حاجات التي أكلها عند الرئيس ويبشرنا بأن الرئيس الذي تضم مائدته أصنافاً حلوة سيحل كل مشاكل مصر قريباً!

و من الأمثلة المضحكة أيضاً حكاية سفر الدكتور مفيد شهاب إلى باريس الأسبوع الفائت لتسلم جائزة من جهة ما باعتباره أحسن وزير في مصر من واقع أدائه المتميز!! . قيل أن الجهة التي قدمت الجائزة هي أحد المكاتب الرسمية المصرية التابعة للسفارة ولا أعرف إن كان المكتب الثقافي أو الجيولوجي أو الأنثروبولوجي الخ هذه المكاتب التي لا يقوم أصحابها بأي عمل على الإطلاق سوي تكريم أنفسهم أو تكريم الوزراء الذين توسطوا لهم في السفر .

و قالت رواية أخري أن التكريم كان "طياري" قام به رئيس الجالية المصرية أو جمعية رجال الأعمال، وأحب هنا أن أؤكد أن المصريين في الخارج يضحكون كثيراً من أمر الجمعيات التي تزعم أنها تمثل الجالية والشخصيات التي تدعي رئاسة الجالية. وكذا جمعيات رجال الأعمال في الخارج التي تضم بقالين ونقاشين ومواطنين غلابة يعيشون على إعانة البطالة!

الحقيقة أن هؤلاء جميعاً ليسوا أكثر من رجال طياري يحلمون بالقرب من الكوبانية بكل فسادها

ونهرؤها على الرغم مما حققه بعضهم من نجاح، ودائماً في كل عاصمة غربية تجد عشرة أشخاص على الأقل يطبع كل منهم كروت تعارف تحمل صفة رئيس الجالية المصرية. ولا أبالغ عندما أقول أنني أعرف شخصياً أربعة أشخاص يزعم كل منهم أنه رئيس اتحاد المصريين في الخارج.. أي أنه يمثل ما يقرب من عشرة ملايين مصري لا يعلمون عن وجوده شيئاً!

أخيراً فإني أقترح أن نتخلى عن التصنيفات التقليدية في الحياة السياسية مثل ليبرالي ومحافظ أو عمال وفئات، حكومة ومعارضة، ونتبنى التصنيف الجديد: كوبانية وطياري!

أنا مش كافر!

كنت أجلس في البيت أتصفح الجرائد وأقلب محطات الراديو . الصحف كالعادة حافلة بأخبار تغم وتسد النفس . . احتل خبر القبض على الشاب المصري الكندي بتهمة الجاسوسية حيزا كبيرا في معظم الصحف . استفاض الكُتاب في رجم الجاسوس الزنيم (هكذا اعتبروه) ولم ينتبه أحد للظاهرة الخطيرة التي استشرت في الخارج وبالذات في كندا، وقد كنتُ مشاهدا لها وشاهدا عليها . . ظاهرة اعلان بعض الشباب المصري بمجرد ان يطأوا أرض مطار مونتريال رغبتهم في اللجوء السياسي بحجة أنهم قد آمنوا بالمسيحية ولا يستطيعون العودة إلى مصر حيث سيتم قتلهم !!

نعم هذه هي الصيحة الأحدث في جعبة سماسرة الهجرة الذين يتصيدون الشباب اليائس ويرسمون له السيناريو الذي لا يخيب : عليك أن تطلب اللجوء فور وصولك وتعلن أنك قد غيرت دينك وأصبحت مسيحيا، وعليك أن تقنعهم أن الإسلام دين وحشي يعاقب بالقتل من يغير عقيدته، ولا تقلق . . سوف يقتنعون لأن فكرتهم عن الإسلام والمسلمين سيئة من الأساس . وأحق أن السلطات الكندية التي تولي اهتماما كبيرا بحقوق الإنسان تتعاطف بشدة مع هذه الحالات غير مدركة أن صاحبنا لا تربطه بالمسيحية أي صلة، كما لم تربطه بالإسلام أي صلة من قبل، وأنه يحلم فقط بالإقامة والجنسية والهرب من وطن لا يعرف الرحمة .

و من بين هؤلاء الذين بدّلوا الوطن وغيّروا الولاء واستهانوا بالعقيدة تتصيد أجهزة الاستخبارات المعادية من تقوم بإغوائهم وتجنيدهم، بينما الوطن الغارق في خيبته يتجاهل الأسباب التي تخلق المأساة . . يتجاهل الفقر والظلم والقهر، ويكتفي بلعن المتهم بالتجسس وينسى أصل المشكلة المتمثل في انسداد منافذ الحياة وانعدام الأمل في الغد بعد أن أحكم القراصنة سيطرتهم على البلد .

. لست أدافع عن الجاسوس فهو يستحق الحرق إن ثبتت إدانته، لكني أعجب من قدرتنا على خلق الظروف التي تُنبت الخونة وتجعلهم يتكاثرون وتلقي على رجال استخباراتنا أعباء ما كان أغناهم عنها .

أقلب المزيد من الصحف وأحول مؤشر الراديو فأستمع إلى إعلان فج موجه من الحكومة إلى

الشباب المصري ترجوهم ألا يسافروا إلى الخارج إلا عند وجود فرصة عمل مؤكدة حتي لا يسيئوا إلى مصر . أستغرب من البجاحة وادعاء البراءة . . الحكومة لا يهمها أن يضيع الشباب بالداخل . يزعجها فقط أن يفضحوها في الخارج عندما تلقي بهم المراكب على شواطئ أوروبا ـ إن لم يغرقوا ـ فيندمجون في أعمال غير لائقة تحرج الحكومة المصرية ، وكأن الحكومة تقدم لهم فرص العمل والحياة الكريمة فيرفضونها ويفضلون " البهدلة " !

قصة أخري مثيرة للحسرة وجدتُ الصحف طافحة بها هي موضوع حلقة " بنات الليل " التي قدمتها هالة سرحان على قناة روتانا واستعانت فيها بفتيات كومبارس من الذين يجلبهن السماسرة للتصفيق في برنامجها ، فقامت بتحفيظهن سيناريو فاضحا وقدمتهن على أنهن عاهرات يروين تجربتهن مع الرذيلة مقابل مبلغ مالي ووجبة بيتزا !

وقد أدي الأمر كما قيل إلى خراب بيوت الفتيات بعد أن تم فضحهن بالصوت والصورة عندما ادعين على أنفسهن أنهن مومسات .

أنا لا يهمني ما فعلته هالة سرحان ولا يعنيني مستوي برنامجها ولا أساليبها في العمل . كما لا يشغلني اتهامها بالإساءة لسمعة مصر ، فمصر قد ساءت سمعتها من زمان بفعل حكامها . لكن الذي يدفعني للجنون هو حجم الفاقة والحرمان الممزوج بقوة التطلع التي تدفع فتيات في مقتبل العمر إلى الإقدام على تجربة مريرة محفوفة بالعار في كل الأحوال حتي لو لم يتعرف عليهن أحد . لقد ذبح الفقر كبرياء هؤلاء الفتيات وأفقدهن الحياء الذي يزين الفتاة . ومجرد اشتغالهن " مصفقاتية " في البرامج هو شئ مهين لهن ومهين للوطن الذي أنجبهن .

أقلب المزيد من الصحف بينما يفاجئني الراديو في مصادفة عبقرية بأغنية بديعة للفنان زياد الرحباني بعنوان " أنا مش كافر " . .

يقول زياد :

انا مش كافر بس الجوع كافر

انا مش كافر بس الفقر كافر

انا مش كافر بس المرض كافر والذل كافر

انا مش كافر لكن شو باعمل لك إذا اجتمعوا فيّا كل الإشيا الكافرين

ياللي بيصلي الأحد وياللي بيصلي الجمعة

راجعوا الكتب السماوية راجعوا كلام القادر

عم تاكل اللقمة بفمي وأكلك قدامك يا عمي

أنا مقبور ببيتي ومش قادر أهاجر

معمم ع الدول الغربية ومبلغ كل المخافر . .

أنا مش كافر

يا الله يا زياد يا رحباني لقد لخصت الموضوع كله على لسان المواطن العربي الحزين الذي يحل بضيافته قسراً كل أنواع الكفرة من جوع إلى فقر ومرض بينما هو أكثر الناس إيماناً وأكثرهم قناعة ورضا .

أزحت الجرائد وأغلقت الراديو وفكرت في الفقر الذي تمنى علي بن أبي طالب أن يقتله لو كان رجلاً ، بمعنى لو كان إنساناً يمكن منازلته ، وفكرت في الحكام العرب الذين لم يجرؤوا على محاربة الفقر أبدا ربما بسبب أنه بدا لهم امرأة . . والأشاوس لا يقتلون النساء .

مركز صيانة القفا!

بدأ العام الدراسي الجامعي منذ أسبوعين تقريباً، ومع هذا فوجئت بأن إبني الذي يدخل الجامعة للمرة الأولى لا يذهب إلى كليته ولا يحفل بأن يلحق بالدراسة من أولها. أدهشني موقفه العجيب هذا، إذ أنني عندما كنت في مثل سنه لم أنم ليلة دخولي الجامعة من الفرحة والتهيب. فما الذي حدث وجعل الشباب ينظرون إلى دراستهم الجامعية بهذا الإستخفاف الذي يصل إلى حد الازدراء؟

نبدأ الحكاية من أولها.. في اعتقادي أن الانسان المصري على مدى عصور التاريخ التي مر بها قد تعرض إلى انتهاك آدميته والتعامل معه باحتقار شديد، لدرجة أن الضرب على القفا كان ممارسة يومية يتعرض لها من جانب السلطة وممثليها. لكن الأمر الجدير بالملاحظة أن السلطة على غلظتها وجفائها كانت في الغالب توقر العلماء وطلاب الأزهر، وكان ارتداء الجبة والقفطان الدال على العلم يضمن لصاحبه أماناً نسبياً من الإهانة عند التعامل مع السلطة. ولهذا فإن أعدادا قليلة من المواطنين (الأعيان ورجال العلم) هي التي تمتعت بشيء من الكرامة على مدى قرون. ومع هذا فإن المصري لم يفقد الأمل في أن تتغير الظروف ويأتي يوم يتمكن فيه من صيانة قفاه وحمايته من الأيدي الباطشة.

وهنا بالتحديد يكمن الخلاف مع المعادين لثورة يوليو ولا يرون فيها إلا نزقا وتهورا ومصادرة ومعتقلات وهزائم.. تجربة الثورة تضمنت بعضا مما سلف بالفعل، لكنها تضمنت بالأساس شيئا رائعا لا أدري كيف يغفل عنه الغافلون.. لقد أتاحت التعليم ونشرته على أوسع نطاق وأوصلته إلى القرى الصغيرة و الأماكن النائية فمنحت الإنسان المصري للمرة الأولى فرصة لطالما حلم بها.. منحته إمكانية الصعود الاجتماعي الذي يضمن صيانة القفا!. أعلم أن البعض سيقول إن تعذيبا وحشيا قد وقع على خصوم الثورة، وأنا لا أنفي هذا ولا أدافع عن الإجرام، أنا فقط أقول إن ملايين المصريين الذين لم يعادوا الثورة ولم ينازعوها في الحكم قد حظوا بالأمان والكرامة. فاندفعوا لتعزيز المكاسب المفاجئة وألحقوا أبناءهم بالمدارس والجامعات. وكان الاندفاع نحو التعليم جنونياً وخصوصا من جانب الفقراء أملا في تحقيق المكانة التي تمثل حائطا لصد العدوان على الكرامة وانتهاك القفا. ومن هنا فإنني كنت أنظر دائما إلى من يعادون مجانية التعليم على ضوء

ظروفنا هذه على أنهم فاشيست معادون للإنسانية ذاتها، وكان يجدر بهم أن يوجهوا نضالهم في اتجاه تحقيق المساواة والعدل بين الناس.

ولعلهم يفهمون أسباب انهيار التعليم الفني الصناعي والزراعي والتجاري، وعدم إقبال الشباب عليه إلا مرغمين على ضوء هذه الحقيقة. فالشباب في العالم الغربي في أغلبهم يكتفون بالمدرسة الثانوية ثم ينطلقون لتحقيق ذواتهم كل فيما يهواه، فيلتحق بعضهم بورشة نجارة أو ميكانيكا، ويذهب البعض الآخر ليعمل بائعاً في محل أو نادلاً في مشرب أو كمسارياً في ترام. والقليل هم الذين يذهبون إلى الجامعات لاستكمال تعليمهم، على الرغم من أن التعليم الجامعي لديهم مجاني أو شبه مجاني. ذلك أن المساواة بين الناس وسيادة القانون هي التي تضمن كرامة الإنسان وليس الشهادة الجامعية أو المركز المرموق، على العكس من الحال عندنا حيث لا قانون ولا مساواة ولا احترام لأي قيم انسانية، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإقبال على التعليم الفني بدل الجامعات لم تجد إلا السخرية من جانب المواطنين الذين يعلمون أن دبلوم الصنايع لا يغري حتى بالعدوان!.

كل ما سبق كان ينطبق على حياتنا حتى نهاية الثمانينيات. كانت الشهادة الجامعية مصدر فخر للأسرة، وكان الرجل يقوم بوضع شهادات أبنائه داخل براويز أنيقة ويعلقها على الحائط في الصالون كرمز لنجاحه في أداء رسالته وصيانة قفا العائلة إلى الحد الأقصى.

ثم انفجرت في وجوهنا الثروات الفاحشة مجهولة المصدر، وانفتحت بوابات الجحيم ورأينا طائفة من الناس تستولي على كل شيء فتبني المتجمعات الفاخرة وتسكن داخل حصون لها أسوار تحجبها عن المصريين، وترسل أبناءها للتعليم في أمريكا وكندا، ورأينا المصانع والشركات تباع بتراب الفلوس والموظفون والعمال يجلسون في البيوت، والتعليم ينهار في الجامعات بعد أن انهار في المدارس، ورأيناالسلطة المتعجلة في بيع ممتلكات المصريين تمارس أقصى درجات الوحشية في التعامل مع المواطن العادي خشية أن يعترض على البيع، ورأينا قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين يداسون بالأحذية وصار قفا الجميع مستباحاً، وأصبحت الهجرة هي السبيل الوحيد لحماية الكرامة الانسانية.

وهكذا سقطت الشهادة الجامعية من عليائها بعد أن فقدت قيمتها في منح صاحبها عملاً محترماً ووجاهة اجتماعية ولم تعد الجامعات تؤدي الدور الاجتماعي الذي طالما لعبته بجدارة كمراكز معتمدة لصيانة القفا!.

هل تعتبر مخالفك في الرأي حماراً؟

ما الإجابة التي ستحصل عليها إذا سألت أي إنسان عما إذا كان يعتبر من يخالفه في الرأي حماراً؟.. من المؤكد أن أحداً لن يوافق على هذه الصيغة، وسوف يسارع الجميع إلى النفي القاطع.. سيهاجمك أهل التنوير ومنظمات المجتمع المدني وجمعيات حقوق الإنسان ويرفعون في وجهك مقولة فولتير الشهيرة: " قد أختلف معك في الرأي، لكني على استعداد لدفع حياتي ثمناً لأن تقول رأيك "، أما المتمسكون بالتراث فسوف يذكرون قول الإمام الشافعي: " رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" وسوف يؤكدون على أن اختلاف الفقهاء رحمة... أما ذوو المزاج الفني ومحبو الشعر فقد يجدون لدي صلاح جاهين رباعية جميلة تتحدث عن مزايا الإختلاف تقول: لولا اختلاف الرأي يا محترم.. لولا الزلطتين ما الوقود انضرم.. ولولا فرعين ليف سوا مخاليف.. كان بيننا حبل الود كيف اتبرم؟ عجبي. وطبعاً قبل هؤلاء جميعاً سوف يأتي الإسلاميون بآيات قرآنية محكمة وأحاديث نبوية شريفة تبين موقف الاسلام الذي يؤيد حرية الإعتقاد ويمنح غير المسلمين حقوقاً متماثلة.

و حتى الحزب الوطني سيتحدث رجاله عن الرأي والرأي الآخر وأهمية وجود المعارضة القوية لتعميق الديموقراطية. ولن تعدم وجود مثقفين ومفكرين يتحدثون حديث العقل والمنطق.. أحدهم قال لي ذات يوم: " أنا لا أعتقد أبداً أن من يخالفني في الرأي هو بالضرورة جاهل أو حمار. لكنه قد يكون سلك دروباً ومسالك في الحياة سوى التي سلكتها أنا، وبالتالي فهو لم يعش تجاربي التي صاغت آرائي وشكلت قناعاتي، ومن يعلم.. ربما كان هو على حق".

يا سلام.. منتهى الحكمة والتعقل لولا أني أعرف أن الرجل قد سحق في طريقه للصعود كل من اختلف معه!

كل الأحزاب والهيئات والمؤسسات.. كل الأفراد على تباينهم سيؤكدون لك أنهم يحترمون الحق في الإختلاف وأنهم لا يمكن أن يتهموا من يختلف معهم في ذكائه أو في خلقه لا سمح الله.

لكن ما أحلى الكلام وما أتعس الممارسة.. كلهم كذابون، لا أحد منهم يطبع كتابه المقدس أو يستلهم خطى فيلسوفه أو يتمثل قول شاعره.. كل ألوان الطيف السياسي والطائفي والفئوي لا يعتقدون فقط أن من يخالفهم في الرأي حماراً.. إنهم في الغالب يرونه دون الحشرة.. الحزب الوطني مثلا ينظر إلى معارضيه على هذا النحو، ولهذا يدهسهم دون أي شعور بالندم.

ونقابة المحامين بدافع جناح بها عن المحامي مرتضي منصور ولا يبالون بمحام آخر هو ممدوح اسماعيل ، والجناح المضاد له في النقابة يفعل العكس . الإخوان المسلمون يقيمون الدنيا من أجل الإفراج عن خيرت الشاطر (و هذا حقهم وواجبهم بالتأكيد) لكن صوتهم يخفت إذا كان المعتقل من حركة كفاية! وحركة كفاية لم تهدأ دفاعاً عن الناشط السياسي محمد الشرقاوي (و هو يستحق بالتأكيد) بينما لم تتحرك من أجل عصام العريان .

والسلطة في مصر تضطهد المصريين جميعاً ، لكنها تدفع الأقباط تحديداً للهجرة الجماعية بعد تنامي التعصب واستمرار التمييز . ومن جهة أخري الكنيسة المصرية لم تعترض أبداً على سجن المصريين بالألاف دون أحكام قضائية لمجرد أنه ليس بينهم مسيحيون!

كل الذين يدّعون مناصرة حقوق الإنسان يقصدون إنساناً بعينه ينتمي اليهم . . الي حزبهم أو طائفتهم أو قبيلتهم ، وأما المختلف عنهم فليذهب إلى الجحيم . أنظر إلى أبسط م السادة " المنوراتية " حملة لمبات التنوير من المثقفين ومنظمات المجتمع المدني الذين يُكثفون الإضاءة فقط على " جماعتهم " . ثم تخبو مصابيحهم إذا كان المنتهكة حقوقه من خارج الجماعة!

حتي الشباب الوطني من المدونين رأيناهم يتنادون للدفاع عن شاب اسمه عبد الكريم دخل السجن لأنه تطاول على الإسلام . . هو بالتأكيد لا يستحق السجن . . يستحق الإهمال لأنه لم يقدم أي طرح فكري وإنما مارس السخافة على نطاق واسع . . لكن ما يدهشني أن أصدقاء فولتير ومونتيسكيو تجاهلوا (إلا فيما ندر) مدوناً آخر اسمه عبد المنعم لأنه يحب الإسلام ولا يسبه!!

نعود إلى سؤالنا من جديد : هل تعتبر من يخالفك في الرأي حماراً؟ إجابتي دون أدني شك هي نعم . هذه هي حقيقة البشر في كل زمان ومكان حتي وإن أنكروا (باستثناء الأنبياء والقديسين) . . وعلي فكرة ليس هناك بأساً في أن يكون البشر كذلك ، لكن البأس كل البأس في ألا يكون القانون سلطاناً عليهم ، وأن تكون الديموقراطية غائبة والحكم أبدي والسلطة مطلقة .

في ظل سيادة القانون وتداول السلطة لا يستطيع أحد أن يؤذيك أو يضطهدك لأن شكلك لا يعجبه . ولا يستطيع أحد أن يسجنك لأنك تختلف عنه أو أن لك طريقاً في الحياة يختلف عن طريقه . ولعل الديموقراطية وحكم القانون في الغرب هي ما يجعلنا نتصور أنهم يمتلؤون بالسماحة والحب فيما بينهم ، مع أن الحقيقة أنهم على مستوي الإعتقاد والتصور لا يقلون عنا فاشية . وقد يتمني رجل الشرطة عندهم أن يسحق جمجمة المتهم الذي يحقق معه ، لكن ما يجعل الأمر يقف عند حدود التمني ولا يتعداه إلى مرحلة التنفيذ . . أن جمجمته هو شخصيا ستكون هي الثمن!

أصحاب الدال و..أكتب يا شيخ حسن!

تلقيت رسالة من القارئ أيمن غنيم من بني مزار بالمنيا صدرها بقوله: الأستاذ الدكتور حسن غريب.. تحية طيبة وبعد.. إلى آخر الرسالة. توقفت طويلا عند كلمة الدكتور هذه.. أنا لست دكتورا ولا حتى تومرجيا، ولم يُعرف عني الولع بضرب الإبر. فما الذي جعل القارئ الكريم تأخذه بي الظنون الطيبة؟ لا شك أنه أراد أن يجاملني، أو ربما قد حسبني من أصحاب شهادة الدكتوراة في أحد فروع العلم، وهذا على أي حال شرف لا أدعيه.. ولا أسعى إليه أيضا: خاصة وأن لي صديق لا يطيق أصحاب الدال ويزعم أن معظم شهاداتهم مضروبة وأبحاثهم مسروقة ومن كان بحثه نتيجة جهد ذاتي وغير مسروق فهو جهد لا قيمة له ولا فائدة للبشرية منه. وحتى الرسائل في الخارج مشكوك فيها والدليل أن البعض يحمل دكتوراة من فرنسا ولا يعرف الفرنسية، أو من روسيا دون أن يعرف شكل الحروف الروسية! ولهذا السبب لا أريد لصديقي أن يضعني في خندق الأعداء إذا لمح عندي ميولاً أكاديمية!

الأسبوع الماضي دارت بيني وبينه مناقشة حادة بعد الاستفتاء على الدستور وكان رأيه أن أساتذة الجامعة هم سبب أساسي من أسباب نكبة الأمة. وأن الأمر لا يتعلق بقلة باعوا أنفسهم للشيطان وزيّنوا للحاكم الإستبداد والديكتاتورية في مواجهة أغلبية شريفة.. لا.. هو يرى أن العيب موجود من الأساس في بنية من يرغب في أن يكون معيدا ومن ثم أستاذا بالجامعة، وكان منطقه للتدليل على هذا في غاية الغرابة، قال: لعلك تعرف أن أوائل الدفعات في الجامعة الذين يعينون كمعيدين ويصيرون بعد ذلك مدرسون وأساتذة ويتولون رئاسة الأقسام وعمادة الكليات والجامعات هم في الغالب الأسوأ بين طلبة الدفعة قاطبة! قلت مفزوعا: كيف يكونون أسوأ الطلبة وهم أكثرهم إجتهاداً وتفوقاً؟

قال: هذا هو بيت القصيد، إن رغبتهم الجامحة في التفوق تجعلهم أكثر أنانية من غيرهم وتجعلهم أكثر استعداداً للدوس على المبادئ والتضحية بالأصدقاء إذا اعترضوا الهدف المرسوم، وأردف: وعليك أن تستعيد في ذاكرتك أوائل دفعتك وتخبرني كم واحد منهم تعتبره صديقاً وفياً أو صاحب صاحبه؟ وهل كان من بينهم من يتعاون ويمنح كشاكيله للزملاء؟ والأهم من هذا كله هل رأيت أحدهم يوماً يشارك في الشأن العام أو يخرج في مظاهرة أو يأخذ موقفاً محترما من أي قضية؟ هل رأيت من بينهم من ينتصر للحق أو يدافع عن مظلوم؟

عـندما هممت بالإجابة لم يسمح لي وأكمل : وأستطيع أن اؤكد لك أنهم في غالبيهم جامدون عقليـاً ، يتصفون بثقل الظل وليس من بينهم صاحب دم خفيف أو ابن نكتة ! أما تعاونهم مع أجهزة الأمـن ووشـايتهم بـزملائهم فأمر ليس في حاجة إلى برهان . قلت له : أراك تخطئ في التوصيف وفي التعميم فالـتفوق في حـد ذاتـه لـيس شراً وهو ليس قريناً بالضرورة للأنانية وسوء الطوية ، والموهبة تحـتاج لمـن يديـرها ويرعاها في جو من السماحة والديموقراطية بدلا من استغلالها وامتهان صاحبها وتحويله إلى مخبر ، وأنا شخصياً!!! لي من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات بعض من أوفى أصدقائي وأقـربهم إلى قلـبي ولا ينطـبق علـيهم أي ممـا تقـول ، بالعكس يتسمون بالشهامة والجدعنة ودمهم خفـيف أيـضا ، وغير أصدقائي هؤلاء يمكنك أن تنظر إلى جماعة ٩ مارس وستجد من بين أعضائها أنـاس يفخـر بهم الوطن ، يجمعون إلى جانب العلم الشجاعة في الحق والأخلاق الرفيعة . رد بحدة : يـا صـديقي إن الأمـثلة التي ذكرتها هي قطرة في بحر الجامعات العجاج واستثناءاتك التي قد تكون حقيقـية تـؤكد القاعـدة الـتي أتحدث عنها ولا تنفيها أما الأغلبية فهي من النوع الذي يبيع أباه لقاء نظـرة رضـاً مـن أصحاب العزبة ، ولهذا السبب فقد وجد فيهم أهل الحكم ضالتهم من زمان . ألم نعـرف أن العـسكر بعـد الـثورة لجـأوا للجامعة معقل العلم والفضيلة ليختاروا منها الوزراء فماذا وجـدوا؟! وجـدوا أسـاتذة قانـون يـباركون الاستهانة بالقانون ، وجدوا أساتذة دستور يباركون العـصف بالدسـتور ، وجدوا كائنات طيعة مارست التحريض ضد الشعب بأبشع مما فعل أي أحد آخر ، ثم أضاف منفعلا هل شاهدت قناة الجزيرة عشية الاستفتاء الأخير ؟ قلت : لا

قـال : استـضافت إثـنين هما أقرب إلى ذناب الجبل في ضراوتهم ضد كل ما هو وطني وشـريف أحدهما أستاذ علوم سياسية والآخر أستاذ قانون . . لم يتركا باطلا لم يدافعا عنه ولم يتركا حقا لم يمحقـاه ، كـان منظـرهما مـزريا وهمـا يـباركان الإجـرام في حـق الـشعب ويمتدحان العدوان على الحـريات ويعـددان فوائد المحاكم الاستثنائية ومضار الإشراف القضائي على الانتخابات! . والحق لقـد ذكرنـي منظـرهما بالفـنان حـسن البـارودي في فيلم الزوجة الثانية عندما طلب من المأذون أن يكـتب كـتاب العمـدة علـى امـرأة تم تطلـيقها منذ دقائق فلما تعلل الشيخ حسن بوجوب انقضاء العدة ، لكزه مذكّرا إياه : البلد بلدنا والدفاتر دفاترنا . . اكتب يا شيخ حسن .

ألجمـتني حكاية الشيخ حسن فلم أعد قادرا على الكلام خاصة أن الشيخ حسن الجامعي وتربته الشيخ حسن الأزهري وكلاهما من حملة الدال ما زالا يكتبان ، ويا لهول ما يكتبان !

العبث اللذيذ والجدية التي لا تطاق

أُحب شعبان عبد الرحيم ويعجبني ذكاؤه الفطري وقدرته على استغفال المذيعين الجهلاء الذين يحاولـون السخرية منه وإظهاره في صورة مزرية ، فإذا به يسحبهم إلى منطقته ويستثمر وجوده على الشاشة ، فيدلي بآراء في السياسة والفن والحياة مليئة بالسذاجة المتعمدة التي أدرك منذ زمن أنها تقربه من الجمهور ، وفي الوقت نفسه تداعب غرور المذيعين الحمقى ، بينما هو يضحك في سره من الإثنين الذين منحاه الفلوس والشهرة مقابل حكايات عبيطة لا يعنيها وشيء من الغناء البدائي !

و لكـن إعجابي بذكائه لا يعني أنه مطربي المفضل أو من ضمن المفضلين . . صحيح هو يتواجد مـع آخـرين في الشرائط بالسيارة وأسمعه من وقت لآخر ، إلا أن الأمر يظل عند حدوده الطبيعية باعتبـار هـذا النوع من الغناء يخاطب الجانب العبثي من الوجدان . بالضبط كما أستمع إلى الجميل محمود شكوكو ، مع الفارق أن شكوكو كان يغني لشعراء حقيقيين كالقدير فتحي قورة ، ولملحنين حقيقيين كالعظيم محمود الشريف الذين تظل موهبتهم حاضرة حتى مع أغنية تقول : يا دابح قلبي بـإزازة . . لماذا الهجر دا لماذا؟ . لكني مع هذا لا أستطيع أن أستمع إلى هذا النوع طول الوقت ، ولا أن أعتبر أن هذا هو الغناء .

مـا يحـدث الآن ويا للغرابة أن الجانب العبثي من الوجدان الذي كان يغطيه شكوكو واسماعيل ياسـين أو حـتى عدوية قد تمدد ليستحوذ على الوجدان كله . ومن الممكن أن تسأل شابا عن مطربه المفـضل فيقول لك : شعبان عبد الرحيم أو حكيم أو محمد عطية ، ومن الممكن كذلك أن تسأله عن نجـوم التمثيل المفضلين فيجيبـك : محمـد هنيدي ومحمـد سـعد وعبلة كامل . . مع أن هؤلاء مع احترامي لهم لا يغطون سوي الجانب الذي كان يشغله زمان استيفان روستي وعبد السلام النابلسي وزينـات صـدقي ، أمـا النجوم فكانوا شادية وكمال الشناوي وعماد حمدي وليلي مراد . ولم يكن متصورا أن تسأل أحدا عن نجمه المفضل فيقول لك الخواجة بيجو أو الدكتور شديد! وذلك على الـرغم مـن موهبـتهم وحـب الجمهور لهم ، ولكن المساحة المخصصة لهم في الوجدان كانت محددة ومحدودة . لكن الآن فقد اضطربت الأمور وصار العبث هو سيد الموقف!

و مـن آيـات هـذه الحالـة العبثية أن الـناس قـد فقـدت ليس فقط التمييز بين الغناء الجيد وبين سـواء . . لقـد فقـدوا القـدرة على التمييز بين الغناء الحزين والأغاني المفرحة ، وأصبحوا يعيشون

الأفراح على أنغام أغاني حزينة . ولقد تكرر في أكثر من مناسبة أن أحضر عُرسا فأجد الراقصة والفتيات المدعوات ينهمكن في الرقص على أغنية صارت تميمة في كل الأفراح ، مع أنها واحدة من أكثر الأغاني جلبا للحزن واستدعاء للشجن وهي أغنية ع اللي جرا التي كتبها الشاعر محسن الخياط وغنتها المطربة عُليا التونسية منذ ربع قرن . وهي أغنية تتحدث عن عذاب امرأة تشعر بالغربة القاتلة وتعيش الوحدة والوحشة منذ أن سافر حبيبها وتركها تجتر أحزانها مع الرسائل . وهي تحكي له عما تفعله بها رسائله وكيف تتحرق شوقا في انتظار عودته ، وتقص عليه معاناتها وهوانها على الناس في غيابه ، لأنه منذ تركها وسافر لم تسمع خبرا واحدا مفرحا ، وهي تحلم بأنها عند عودته ستحكي له عن كل ما جري وستطلق العنان لعواطفها وستترك الدموع تنهمر من مآقيها ولن يجفف دمعها سوي منديله . هذه هي الأغنية . . لكن الناس تنفصل تماما عما تسمعه وتنطلق الزغاريد وتعلو الضحكات بينما الفنوة تحكي عن عذاب بلا حدود . . منتهى العبث !

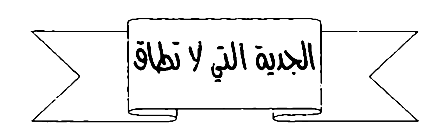
نفس الأمر يحدث في حفلات الغناء لأي مطرب . . لا أحد يستمع ولا أحد يريد أن يستمع . الشباب يقفون في مجموعات ويعطون ظهورهم للمغني ويدخلون في فاصل من الرقص يستمر طوال الليل على كل الأغاني ، والمطرب وأغانيه وألحانه في الخلفية بينما الرقص هو الأساس .

و لا أتصور أن أسباب هذه الحالة غامضة أو خفية . . نحن مجتمع صار يضحك ملء شدقيه على ما يستوجب البكاء . مجتمع ينزف بينما ضحكه الهيستيري يملأ الفضاء . ذلك أن الناس لم تعد تصدق أي شيء يكتسي ثوب الجدية الزائف ، و صارت الجدية بالنسبة اليه مرادفة للكذب . ولعل هذا هو السبب في أن جيلا كاملا من نجوم السينما المصرية قد تمت احالته إلى المعاش بفرمان جماهيري بعد أن أدرك الشباب أن هؤلاء الذين يتكلمون جد ليسوا في الحقيقة جادين .

و لقد قرأت بكل أسي في " المصري اليوم " ما يعزز هذا الظن . قرأت عن التطابق التام في فقرات مقالين نشرا بالمصادفة يوم ٢ديسمبر الماضي أحدهما في المصري اليوم كتبته أستاذة في الإعلام والأخر نشر في الأهرام كتبته أستاذة في القانون ، وكانت الفقرات المتطابقة تعني شيئا واحدا هو أن أيا منهما لم تكتبه وإنما نقلته وقدمته للقراء باعتباره من بنات أفكارها دون أن تشير إلى مصدره . وأستطيع أن أؤكد أن هذا يحدث في الصحافة المصرية كل يوم دون أن يهتم أحد . الصدفة فقط جعلت النشر يتم في نفس اليوم ومن ثم لاحظه الجميع ولم يمكن تجاهله .

ولعل هذا ينزع الدهشة عن أي أحد يتساءل لماذا تمدد العبث واحتل الوجدان العام للمصريين .

ولماذا هجر الناس الجدية وابتعدوا عن المعنى وعن الجدوي واعتمدوا الهلس قانونا وديدنا . و لماذا نستق الشباب لغة جديدة غير لغتنا ، مفرداتها شديدة الغرابة وأحدث ما سمعته منها لفظ "الإستكنياص " بمعني الاسترخاء وهدوء البال . ولعل الشباب معذورون لأنهم بفطرتهم النقية قد أدركوا أن الفيلم كله هندي وأنه بالضرورة زائف وغير حقيقي . وأن العبث هو الشئ الوحيد الذي يلجئون اليه لأنه يعصم عقولهم من الإنهيار ويمنحهم الإستكنياص الذي يستحقونه !


الجدية التي لا تطاق

... ظل السلطة.. والإنسان المحترم

شاهدت بعد غياب عن مصر وتليفزيونها السعيد لمدة خمس سنوات برنامجا تليفزيونيا استضاف أحد القيادات الشابة بالحزب الوطني ضمن ضيوف آخرين يتحدث بمناسبة تعديل المادة ٧٦ من الدستور بالسماح بالانتخاب المباشر لرئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح .

كان الحوار يدور حول الضمانات الواجب توافرها في العملية الانتخابية واللجنة المزمع تشكيلها لإدارة الانتخابات المشكلة من قضاة لا يمكن الخلاف عليهم ، علاوة على آخرين ممن نهم شخصيات عامة ، وهم بالتأكيد شخصيات حكومية طيعة ، تأخذ تعليماتها من الحكومة مباشرة .

دار حوار غريب بين الشخصيات التي استضافها البرنامج . . أول ما لفت أنتباهي أن الشخصيات كلها ، بمن فيهم القيادي الشاب بحزب الحكومة يتحدثون حديثا واحدا ويعزفون نفس اللحن . ويتفقون في كل شيء وليس بينهم جميعا أي تناقض . . فكلهم يرفضون الإشراف القضائي الحقيقي على الانتخابات ، وكلهم يؤيدون التعديل المعيب على المادة الدستورية ٧٦ ، وليس بينهم من يؤمن حقا بالديمقراطية وتداول السلطة .

عجبت أشد العجب لأن البرنامج يفترض أنه برنامج حوار ، والحوار كما نعرفه يتضمن جدلا وخلافاً وتضادا في وجهات النظر ، أما السادة الضيوف بمن فيهم القيادي الشاب بحزب الحكومة فمن الواضح أنهم أتفقوا قبل التسجيل على كل شيء فهناك من لقنهم الأسئلة وهناك من حفظهم الإجابات . الأمر برمته بدا لي عبثيا وتساءلت بيني وبين نفسي : هل نفس مقاول الأنفار الذي حمل المتجمهرين إلى ساحة التظاهر لقاء ٢٠ جنيه وساندويتشا . . هو نفسه الذي ساق هؤلاء الناس إلى الاستديو بماسبيرو ووقف خلف الكاميرا بجوار المخرج يشير إلى هذا بالكلام وهذا بالصمت ، ثم انصرفهم بعد التسجيل ليدفع لكل مرتزق منهم حسابه .

بالرغم من عبثية الفكرة وغرابتها فإنني أكاد أجزم أن ما حدث في الحقيقة ، لا يبتعد كثيرا عن هذا السيناريو الفانتازي ، خاصة إذا علمنا أن السادة الإعلاميين وسائر العاملين بمبنى الإذاعة والتليفزيون قد تم حملهم حملا دون إرادتهم وتم إكراههم على المبايعة والتأييد في الاستفتاء ، الذي عبرت رائحته المحيط الأطلنطي ووصلت إلى البيت الأبيض .

جال في خاطري بعد البرنامج التعيس سؤالاً لطالما سمعته في السنوات الأخيرة مشفوع . . علامات التعجب والدهشة ، السؤال المؤرق يقول : كيف يمكن للإنسان أن يك وضيعا ، خسيسا ، ذليلا ، حقيرا ، متجردا من الإنسانية في أدائه لعمله وفي أدائه لدوره العام . نفس الوقت يستطيع أن يكون في حياته الخاصة أباً حنوناً وزوجًا عطوفاً وجاراً ودوداً و . . خدوما . . . كيف؟

طوال سنوات الغياب عن الوطن كنت أتابع انحداره وسقوطه بقلب واجف . و . . . الحكايات المهولة تترى عن مظاهر الخراب التي لو سمعها إنسان غريب عن مصر لما صدقها . .

سمعت عن نموذج الطبيب الذي يرسل مرضاه إلى معمل تحاليل معين بالاسم لإجراء تحا . يحتاجها المريض ، ثم يأخذ عمولته آخر الليل من شريكه في الجريمة أستاذ التحاليل و . . المعمل ! . وقص علي أصدقائي قصصا عن المحامي الذي يبيع موكله ويتفق مع الخصم . . بطرف له جفن . وعرفت عن التراخيص التي تباع ولها تسعيرة معروفة ، والتي يمكن أن . . بكل شيء وتمنع كل شيء .

و وصلت إلى أخبار الوظائف التي صارت متاحة لمن يدفع أكثر ، والتجنيد الذي لا يقتضب . إلا أبناء الفقراء والضعفاء ، أما أصحاب الواسطة فإذا أصابهم الدور فإنهم يتعافون . . البيت . . إلى جوار ماما ! .

وعرفت بنفسي طعم الماء الملوث والطعام المرشوش بالموت وتنسمت الهواء الذي لوثه . . بالهباب المماليك الجدد حتى لم يتركوا بيتا في مصر يخلو من التهاب الكبد أو فشل الكلى السرطان .

كيف يمكن لكل هؤلاء أن يكونوا بكل هذه الخسة ، وكل هذا الانحطاط في أدائهم المهني ويكونوا في نفس الوقت آباء وأزواج وأبناء بررة في منازلهم وبين أهليهم؟ كلما طرحت . . الأسئلة وأمثالها قفزت إلى ذهني صورة صديقي المخرج العبقري عاطف الطيب – رحمه . . عندما تناول هذه المسألة في تحفته الفنية التي قدمها عام ٨٥ في فيلم "البريء" ، كل الذين شاهدوا الفيلم قد أعجبهم الأداء الرائع للفنان أحمد زكي في دور جندي الأمن المركزي البريء . لكنني . . لا أقصد الحديث عنه . . بل أقصد الدور الذي أداه الفنان محمود عبد العزيز . دور الضابط بالسجن .

يبدأ الفيلم ومحمود عبد العزيز أو الضابط توفيق شركس يحتفل في منزله بعيد ميلاد طفـ .

ـصغيرة في جـو عائلي ودافيء . . والصغيرة تغني وترقص وسط الأهل والأصدقاء في كنف الأب ـطـوف المتلىء بالحنان والرقة .

ـذا عـن الأب في بيـته . . . فماذا عنه في عمله؟ على النقيض تماما . . . ضابط بالسجن يمارس ـتعذيب بمنتهى القسوة والوحشية ضد السجناء العزل . . . يؤدي وظيفته متجردا من كل نوازع ـرحمة والأنسانية . . . فمـن أيـن يأتـي هذا التناقض؟ وكيف يمكن أن يكون الرجل إنسانا في بيته ـبعا ضاريا ينتشي لرائحة الدماء خارج البيت؟

لاجابـة البسيطة القائلـة في تقديري هي : أن الترقي في العمل والعلاوات والسفريات للخارج ـصعود الاجتماعـي وتصدر المشهد البشع والوصول للمراكز العليا، صار مرهونا بشيء واحد ـو : أن يقـوم المـرء بعكـس ما يتوجب عليه عمله . أي أن يقوم رجل الأمن بنشر الترويع بدلا من ـشر الأمـن، ويقـوم المعلم بنشر الجهل بدلا من نشر العلم . . . ويقوم الإعلامي بترويج الأكاذيب ـلا من إتاحة الحقائق . . . ويقوم الطبيب بأمراض الناس حتي يصيروا زبائن دائمين ومصدر رزق لا ينقطع . . . وهكـذا . بمعنـى أن الترخيص والتدني وانعدام الضمير، قد صارت شروطا لازمة ـلارتقـاء والصعود الاجتماعي . . لأن الشقة الفاخـرة والسيارة الفارهة والشاليه، والاشتراك في ـذي هي أشياء لا يمكن أن يحصل عليها أي صاحب ضمير .

و حتـى يكـون الكـلام عمليا . . دعوني أسألكم : هل الضابط الذي يخدم المواطنين ولا يمارس ـقسوة – إن وجد – هل يحلم مثل هذا الضابط المتخفي بأن يحصل على حقه في الترقيات ويحصل ـلى دورات تدريبـية في الخـارج وترقيات أستثنائية . وهل يحلم بأن يصبح بعد ترك الخدمة رئيس ـؤسسة أو محافظا أو وزيرا .

و الـصحفي الـذي يمـارس المهـنة كمـا تعلمـناها في كلـية الإعـلام . . هـل يحلـم بأن يكون له ـستقبل؟ و الطبـيب الجـاد الـذي يقـضي حياته في البحث والتعلم . هل يستطيع أن يحقق لأسرته ـرد السـتر . . وهـل يسـتطيع أن يكـون نجـم مجـتمع ويحـل ضيفا على التليفزيون والصحافة . ـسياسي الـذي لا يتـصف بالـسماجة وثقل الظل والبلادة والجهل وإنعدام النخوة والوطنية . . . ـل يستطيع أن يشغل منصبا مهما ومؤثرا؟

الأبـرياء والسـذج من الناس يسألون أنفسهم : كيف يمكن للواحد من البشر الفاسدين أن ينظر ـي عـيني إمـرأته، أو أن يـضحك في وجـه أبـنائه وهـو علـى مـا هو عليه من فساد وخراب روحي

وضمير مقتول؟ السذاجة في السؤال تكمن في أن السائلين لا يمكن أن يتصوروا أن الزوجـ ـ والأبناء هم عائق حقيقي أمام أي فاسد فيما لو أراد أن يتراجع ويتوب في أي مرحلة من مر ـ حياته!

إن الرجل الفاسد يفسد أول ما يفسد زوجته وأبناءه . . . هؤلاء الذين يعتادون على حب ـ والترف والعيش فوق القانون . . فينشأ لديهم شعور بالتعالي على الناس واحتقار الفقراء والنـ ـ إلى حد الموت بالثراء والنفوذ . . . فهل أسرة من هذا النوع هي التي يستحي منها الرجل الفاسـ

إن العفن والفساد الذي استشرى، قد وصل إلى حجم مهول لا يصدقه العقل . كنا دا ـ نسمع مقولة أن الفاسدين هم قلة صغيرة ولكن القاعدة العريضة بخير، هذه المقولة المضللة تـ ـ في تكريس الأمر الواقع وتحجب رؤية الحقيقة . الحقيقة المؤلمة هي أن القاعدة العريضة قد أصـ ـ العطب والبوار وأن المستمسكين بالشرف، السائرين على طرقات النار هم الذين صاروا قلة .

إن الطريق إلى صلاح حال هذا المجتمع طريق شاق وطويل . . وأول خطوة فيه هي تد ـ السلطة، و هي كلمة السر في أي إصلاح . هل يتصور أحد أن مسئولا في ظل انتخابات حـ وسلطة يتم تداولها طوعا بين القوى السياسية . . هل يتصور أحد أن يتنع هذا المسؤول عن تنـ حكم قضائي كما هو الحال الآن؟ لا يمكن طبعا، لأن هذا المسؤول سيعلم أن الانتخابات الـ ـ قد تقصيه عن الكرسي، فيكون مصيره المحتوم هو المحاكمة والسجن .

إن تداول السلطة يساعد المواطن الذي يريد أن يكون محترما على أن يكون كذلك دون خسـ ـ تذكر .

ضربة الجزمة الدوّارة!

بعد انقطاع طال لسنوات قررت أن أصل خيوط الود مع صديق قديم، قمت بزيارته في مكتبه بشركة التي يشغل بها مركزا مرموقا. استقبلني بحفاوة بالغة وأخذنا نسترجع أيامنا السابقة وذكريات الصبا عندما دخل علينا المكتب بدون استئذان شخص غاضب، تحدث إلى صديقي بوقاحة فاجأتني وأخذ يعنفه ويلقي في وجهه اتهامات بالغفلة وعدم الإحساس بالمسؤولية!. تحدث لغرابة الموقف ولم أدر ماذا أفعل بينما استمر الرجل في فاصل البذاءة، ثم ختم إهاناته بأن سب آباء وأمهات الموظفين جميعا وصفق الباب وراءه في عنف. نظرت في ذهول إلى صديقي الذي لم ينطق بكلمة وهو يتلقى شتائم الرجل وإهاناته.. كل ما فعله أنه أطرق إلى الأرض وهو يردد: تمام سيادتك، حاضر سيادتك!.. شعرت بأسف بالغ أن جعلتني الصدفة ألقاه في هذا الموقف المخزي منسحقا تماما أمام رئيسه، خاصة وأن هذا الرئيس تعمد أن يهينه بزيادة لما وجد لديه ضيفا. نهضت مستأذنا في الانصراف حتى أتخلص من الموقف المحرج، لكنه استبقاني وأصر على طلب فنجان آخر من القهوة، وبرر لي ما حدث بأن رئيسه وإن بدا عصبياً حاد المزاج إلا أن قلبه طيب وسرعان ما سيهدأ!! أدهشني تبريره للإهانة بأكثر مما أدهشني تلقيه لها وكأنها أمر روتيني معتاد يحدث كل يوم.

بينما أشرب القهوة استدعى صديقي بالتليفون أحد الموظفين فحضر على الفور ودخل بعد أن طرق الباب وتنحنح ثم ألقى تحية الصباح فرددتها أنا عليه ولم يرد صديقي، ثم لدهشتي في يوم العجائب هذا رأيت صديقي "يتجعص" في كرسيه ويتحدث بلهجة غريبة عليه مليئة بالعجرفة والاستهانة سائلا مرؤوسه عن بعض الأشياء ثم لا ينتظر إجابة بل ينطلق قاذفا في وجهه وابلاً من السباب والإهانات كالتي تلقاها منذ دقائق والموظف المسكين يردد: حاضر سعادتك، تمام سعادتك.. يا الله لقد تكرر الموقف بحذافيره.. نفس جرعات الألم التي تلقاها قام بتصديرها إلى شخص آخر وكأنها كرة النار يتقاذفونها فيتلقاها الواحد منهم ثم يقذف بها في حجر زميله وهذا يسرع بإلقائها للذي يليه.. الطريف أن آذان الظهر ارتفع في هذه الأثناء فرأيتهم جميعا يهرعون إلى الوضوء ويفرشون السجاجيد ويصلّون، ثم يسلمون على بعض متمنين اللقاء في الحرم!

استأذنت في الانصراف لأنفد بجلدي من هذا المسلخ، وصادفت لدى خروجي الأسد الهصور الذي مسح بكرامة صديقي الأرض، رأيته يفتح الباب لرجل الأعمال الكبير صاحب الشركة

وولي النعم وينحني في مواجهته حتي تكاد جبهته تكنس الرصيف! وفكرت في سعيد الحظ ... يمكن أن ينحني أمامه رجل الأعمال الكبير هذا ولكني تذكرت أنه أيضا سيكون لديه من ينحني . وهلم جرا .

مضيت وكلي ألم على ما آل اليه حال صديقي الذي رأيت له وجهين في غاية البشاعة : حـ . رعديدا لا نخوة عنده ولا حمية ثم جباراً غليظ القلب واللسان في صورة أبعد ما تكون عن الشخـ الذي كانه أيام الدراسة .

إنصرفت إلى التفكير في أحوالنا وأدركت أن ما شاهدته في مكتب صديقي يحدث يوميا في كـ مكان ، وكأن الناس جميعا قد ارتضوا هذه الصيغة في الحياة واعتادوها فلم تعد تُخجلهم ، وعدّ... صيغة عادلة تمنحك بمقدار ما تأخذ منك حتي إذا صادفوا رجلاً أبياً يرفض الإهانة اعتبروه مجـ . يريد أن يحرجهم ويعلو عليهم ، لهذا لا يترددون في التنكيل به وتدميره . ولعل هذا يفسر وحـ رجال الشرطة مع من يرفض الإهانة من المواطنين ويصر على أن يُعامل باحترام . يعذبـ . ويلفقون له القضايا ويقضون على مستقبله لأنه يكشفهم أمام أنفسهم . فقد إعتادوا أن نأتمـ يتلقوا من رؤسائهم إهانات لا نهائية ثم يصدرونها لمرؤوسيهم وللمواطنين فكيف بهذا المواطـ المجنون يحاول التحليق خارج السرب ويرفض ما يقبلونه ويعدونه جزءاً لا يتجزأ من قوانـ الحياة .

وأتصور أن شيوع ألقاب بك وباشا ومماليك وجنابك مع تعدد مستويات استخدامها خـ تعبير صادق عن نظرية كرة النار هذه حيث الكل راكب والكل مركوب ، ظالم ومظلوم ، جارـ ومجروح ، معتد ومعتدي عليه .

و إنـي لأتذكر في مذبحة الأقصر التي وقعت بالدير البحري عام ٩٧ أن الجناة قد عُثر عليهـ مقتولين داخل إحدي المغارات بعد أن يئسوا من المقاومة وقرروا الانتحار فوقفوا على شكل دائر وصوّب كل منهم سلاحه للذي أمامه وضغطوا على الزناد في نفس اللحظة فتحوّل كل منهم إلـ قاتل وقتيل معا! .

و أتصور أن المصريين يعيشون نفس الحالة وينصبون لأنفسهم نفس الدائرة ، فكيف لمجتمع العبيد هذا أن يحلم بغد أفضل في وطن كل واحد فيه يضرب بالجزمة آخرين ويضربه آخرو أيضاً . . بالجزمة .

حظ آل سعود.. وانحياز البنتاجون

أتابع بإعجاب أعمدة الرأي اليومية بصحيفة المصري اليوم، ومن بينها عمود الأستاذ سليمان جودة الذي عرفناه كاتباً ليبرالياً ومدافعاً صلباً عن الحرية والديموقراطية.

ولا يقلل من تقديرنا له اختلافنا التام مع ما كتبه في عمود الخميس أول سبتمبر تحت عنوان " حظ آل سعود وانحياز السماء"

يتحدث الأستاذ جودة عن انحياز العناية الإلهية للأسرة السعودية واصطفاء الله لآل سعود وشمولهم برعايته، ودلل على ذلك بثلاثة مواقف قام الله فيها بقصم ظهر كل من اختلف مع آل سعود أو جرؤ على محاولة المساس بهم، وهم على الترتيب مصر الناصرية وايران الخومينية وعراق صدام حسين. ورغم غرابة أن يخرج الكاتب عن الشأن المصري المحلي المتعلق بالإنتخابات الرئاسية التي يتناولها يومياً بالنقد والشرح والتحليل، ويتحدث عن رعاية الله لحكام السعودية دون مناسبة، فإننا لا ننكر عليه حقه في اختيار موضوعاته، ولنا نفس الحق في مناقشته.

يشير الأستاذ جودة إلى مساندة عبد الناصر لثورة اليمن، وإرساله قوات مصرية لمؤازرة الثوار، واستياء الحكم السعودي من وجود الجيش المصري بالقرب من حدودهم، حتي قوله: " وكان وجود القوات المصرية هناك بمثابة الخنجر في خصر الملك سعود وقتها. . ولما لم يستمع عبد الناصر لرسائل الرياض العاقلة والناصحة، نزلت عليه بعدها بأربع سنوات طير أبابيل في عام ٦٧، وكأن ما حدث، في زاوية من زواياه كان عقابا له من السماء لتحرشه بآل سعود. . ثم راح يسألهم العون في قمة الخرطوم الشهيرة بعد الهزيمة!". طبعاً نبرة الشماتة واضحة تماماً لدي الكاتب، خاصة في جملة الأخيرة، بالرغم من أن شعب مصر وكُتّابها لم يشمتوا في الملك سعود بعد أن خلعه إخوته عن العرش وطردوه خارج المملكة فلم يجد أحن من حضن مصر وعبد الناصر!

واستمر الأستاذ جودة فتحدث عن الثورة الإيرانية وكيف أراد الإيرانيون تصديرها إلى السعودية، ثم ما كان من حرب ضروس دارت رحاها بين إيران والعراق استمرت عشر سنوات حتي أرهقت البلدين خصوصاً طهران التي أصبحت عاجزة تماماً عن مجرد إلحاق الأذي بأولاد سعود. . وبدا الأمر مرة أخري وكأنه رسالة من السماء إلى آيات الله في طهران بأن يبتعدوا عن حدود السعودية".

و المثال الثالث الذي قدمه الأستاذ سليمان هو محاولة صدام حسين التحرش بالسعودية بعد غزوه الكويت، واتجاه مدرعاته نحو حفر الباطن، " ولكن عاما واحدا مضي، لتنفجر الأرض بالنار من كل ناحية، ولاذت قوات صدام بالفرار . . أما ما تبقي منها فقد تناثرت بقاياه على طول الطريق من حفر الباطن إلى بغداد! وكانت رسالة للمرة الثالثة من السماء " .

و تعليقاً على هذا الكلام لا نستطيع أن نخفي دهشتنا من كاتب عهدناه عقلانياً لا يلجأ للشعوذة وتلبيس الدين وإقحام السماء في الصراع السياسي، ولا نستطيع أن نقبل أبداً أن ما حدث لنا في ٦٧ كان "في زاوية من زواياه" انتقاما ربانياً نتيجة التحرش بآل سعود . . إن الأمر ببساطة أن الولايات المتحدة تربط أمنها القومي بأمن دولتين في الشرق الأوسط هما السعودية واسرائيل . . ويل من تغضب عليه إحداهما! فما بالك إذا غضبت الإثنتين، هنا يكون انحياز التاجون وليس انحياز السماء . لقد كان العدوان الإسرائيلي على العرب في٦٧ نتيجة الرغبة في تحطيم مصر وكسر كبريائها، حتي لا تكون نموذجاً لأي دولة عربية في تحدي الهيمنة الأمريكية أو التفكير في التصدي للتوسع الإسرائيلي، وكانت فداحة الهزيمة بسبب الخيبة الثقيلة وعدم الإستعداد وخطايا كثيرة أخري ليس من بينها بالتأكيد غضب الله على شعب مصر لصالح أبناء عبد العزيز، و ليس هناك داع لمغازلة آل سعود على حساب دماءالمصريين . كما أن تشبيه الطيران الإسرائيلي بقيادة مجرم الحرب موردخاي هود بالطير الأبابيل ينطوي على انتهاك صارخ لحدود العقل والضمير، فلم يكن عبد الناصر هو أبرهة الأشرم الذي أراد هدم الكعبة ولم يكن الشعب المصري هم جند أبرهة حتي يستحقون أن يقصفهم الطير الأبابيل الإسرائيلي، وإلّا فليخبرنا الأستاذ جودة لماذا قامت اسرائيل وطيرها ومجنزراتها الأبابيل بقصف سوريا والأردن واحتلال أراضيهما مع ما تبقي من فلسطين؟ . فهل قام الدكتور نور الدين الأتاسي أو الملك حسين بالتحرش بالسعوديين وإثارة غضبهم؟ وهل سلاح الجو الإسرائيلي هو يد الله التي تبطش بأعداء العرش السعودي؟!

إنّ حديث الكاتب عن انتقام السماء من عبد الناصر وشعب مصر يُذكّرنا بالشيخ الشعراوي عندما سجد لله شكراً بعد الهزيمة، ولا نري أن أي خلاف سياسي أو كراهية لشخص عبد الناصر أو سياساته تبرر التشفي والسعادة لحظوظ آل سعود خاصة إذا كان هذا الحظ نتيجة مقتل عشرات الآلوف من أبناء مصر، وتدمير المدن المصرية، وملايين المشردين الذين تم تهجيرهم من منطقة القناة، فضلاً عن المآسي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استتبعت العدوان . كذلك الظن بأن ما حدث للإيرانيين والعراقيين هو إنتقام إلهي لمصلحة آل سعود هو ظن عجيب، إذ أن ...

حدث سواء لمصر أو للعراق وإيران هو انتصار أمريكي اسرائيلي، فإن كانت هزائم العرب ... على يد أعدائهم تحقق للسعوديين أمنهم وسعادتهم. فأنا أعتقد أن هذا مما يُخجل ... السعوديين ويشينهم، ولا أظنهم يوافقون الأستاذ سليمان جودة على رأيه، أو على الأقل لا يمكن ... يمنوا قبولهم بهذا الطرح الذي يضعهم في صورة من ترتبط مصالحه بمصالح اسرائيل وترتبط ... سعده بدمار أشقاءه.

لقد استنكرنا أن يقوم رجل دين مسيحي بتعليق لافتة تأييد لمرشح الحزب الوطني في انتخابات ... يقول فيها: لقد اختارك الله فكيف لا نختارك، مثلما استنكرنا ادعاء بعض المشعوذين ... المسلمين بأن الرئيس مبارك ينتسب لآل بيت النبي، ونحسب الأستاذ سليمان جودة في طليعة المعترضين على هذا الهراء، لهذا لا نحب أن نراه يضع أبناء سعود في منزلة أصفياء الله الذين خصهم برعايته لمجرد وجود الحرمين بأرض يحكمونها، بالضبط كما أنّ وجود المسجد الأقصى ... فلسطين، لا يجعل محمود عباس ومحمد دحلان وأصحابهما من أولياء الله الصالحين!

ي حضرات القضاة : لستم باشوات ولا بكوات!

تثير اعجابي المواقف المحترمة للسادة القضاة واصرارهم على الاستقلالية، ويبهرني تحديهم لسلطة المتعسفة التي تبغي خنقهم ماليا لاحتواء غضبتهم وطيهم تحت جناحها.

و برغم انحيازي التام لنادي القضاة واستعدادي لأكون أول المتبرعين بقروشي القليلة لو تم فتح باب التبرع من أجل ألا ينحني قضاة مصر لغير الله.. برغم هذا يظل هناك شيئا ما يثير قلقي وحيرتي.. ما الذي يجعل نضال القضاة ومواقفهم الصلبة وشجاعة ناديهم العتيد لا تحظي سوي باهتمام النخبة، أما عامة الشعب فلا أعتقد أنهم يحملون تعاطفا يذكر مع مطالب القضاة ولا هم حتي مستعدون للتأييد بأضعف الايمان وهو القلب. ولا أعتقد أن مجرد الرد الجاهز عن لقمة العيش والطاحونة التي يدور فيها الناس يفي بالغرض.

في ظني أن هناك مسافة تفصل بين الناس وبين السادة القضاة، وهي ليست المسافة المطلوبة لحفظ الوقار والاحترام للقضاء وما يمثله، وإنما هي مسافة ناشئة عن نظرة الناس العامة إلى أصحاب السلطة باعتبارهم كلهم شيئا واحدا، إذ لا فرق عند الناس بين القاضي ووكيل النيابة وضابط الشرطة.. فكلهم يمثلون سلطة تستطيع أن تضع المواطن في الحجز بإشارة اصبع، ولا أعتقد أن أحدا يستطيع زحزحة الظن الراسخ والمتجذر في الوجدان الشعبي بأن الخلاف بين المواطن وبين أحد هؤلاء يعني الهلاك المحقق ويعني خراب البيت ودهس الكرامة. ولا أتصور أن الرجال الشرفاء بنادي القضاة الذين نجلهم ونثمّن مواقفهم الشامخة.. لا أتصورهم قد أولوا هذه المسألة العناية الكافية، وفي اعتقادي أنها لا ترد على خاطرهم من الأساس.

إن المواطن العادي يا سادة لا يمكن أن يتعاطف مع قضايا البكوات والباشوات. وكما نعلم فكل ضباط الشرطة ورجال القضاء والنيابة يراهم المواطن العادي من البكوات والباشوات. خاصة وهو يراهم يتنادون بهذه الألقاب فيما بينهم بشكل طبيعي كما لو كانت ألقابا حقيقية حازوها بحكم الوظيفة، وكما لو كانت الوظيفة العامة المنوط بها خدمة الناس قد جعلتهم أسيادا على الناس!. وجرب أن تستخدم لقب أستاذ وأنت تتحدث مع شاغل وظيفة قضائية أو أمنية، وأريدك أن تحكي لي عن النتيجة!. لقد تلقيت مؤخرا رسالة على البريد الالكتروني من أحد المستشارين الأفاضل يناقشني في مقال كتبته، فقمت بالرد عليه وشكرته وطلبت توضيح بعض

النقاط في رسالته ، وأدهشني أنه لم يرد ، فلما أعدت قراءة رسالتي عرفت أين الخطأ . . لقد صدرت رسالتي بقولي : سيادة الأخ الكريم . . و لم أقل فلان بك !

إن ما يدفعني لهذا الحديث هو حبي للعدل واعجابي بصلابة الرجال العظام بنادي القضاة ولهذا أتساءل : أليس في استطاعتكم شطب القضاة الذين قاموا بالتزوير وقمتم أنتم بإثبات تزويرهم من عضوية النادي؟ أليس باستطاعتكم اتخاذ اجراء مع القضاة الذين يتقربون إلى الحزب الوطني ويبعثون اليه برسائل الغزل ويقدمون ولائهم واستعدادهم للخدمة فيقومون بمخالفة القانون وإصدار أحكام بالسجن ضد أبرياء لا نرضي عنهم السلطة؟ صحيح أن درجات التقاضي تتكفل بالتصحيح ولكن ماذا عندما يكون الأمر عبارة عن جريمة متعمدة وليست خطئا ناشئا عن قلة الخبرة؟! .

صدقوني . . ما أتحدث عنه ليس ثانويا ولا تافها . إن هذا هو ما يضع حاجزا بين نادي القضاة وبين جماهير شعب مصر ، الأمر الذي يجعلكم انتم تعلنون مطالبكم العادلة تقفون شبه وحيدين أمام السلطة التنفيذية الغاشمة إلا من عشرات الناشطين الشجعان من حركة كفاية وغيرها ، أما الشعب فلا يري في الأمر سوي أنه خلافات بين السادة البهوات ستجد طريقها للحل ، وأن الداخل بينهم هو الخاسر في النهاية .

يا قضاة مصر . . عليكم أن تُشعروا الناس أنكم قضاة فقط ولستم بكوات ولا باشوات . وعليكم أنتم قبل غيركم أن تعلموا أن القاضي بدون أي ألقاب هو أرفع مقاما وأعلي هامة من كل البكوات والباشوات واللوردات ومن كل أصحاب المعالي والفخامة والسمو والرفعة وسائر الألقاب التي يختبئ وراءها الجلادون والمزورون وسارقو البنوك وأصحاب العبّارات الخردة ولصوص الآثار وناهبو المال العام .

ثم ألا يسترعي انتباهكم أن كل المجرمين الذين أذلوا شعب مصر وارتكبوا في حقه أبشع الجرائم ، وأطعموه أكلاً فاسدا ولوّثوا ماءه وهواءه وحطموا كبرياءه . . كلهم تتم مناداتهم ب فلان بك ! . . فهل يليق والأمر هكذا بمن كانوا أمثالكم أن يتنادوا بنفس اللقب المشبوه؟!

أشياء جميلة في صحبة بلال فضل

كانت أجازة العيد بالنسبة لي فرصة ذهبية للقراءة أتاحت لي الاستمتاع ببعض الأعمال التي طال انتظارها معي رغم صدورها منذ فترة، لكنها المشاغل قاتلها الله. بالأمس خلوت إلى نفسي وقضيت أمسية جميلة مع مجموعة بلال فضل القصصية "بني بجم". كنت قد سمعت بها من أصدقاء عديدين أبرزهم ابني أحمد الذي يطارد كتابات بلال وأفلامه أنّي وجدت. وفي الحقيقة أنني لا أقل عنه كلفاً وإعجابا ببلال فضل ولا أستطيع أن أنكر إنحيازي له وترحيبي بما يكتب، وأراه حالة فريدة وجديرة بالاعجاب في هذا الزمان الأجدب. فالرجل يكتب في الصحافة ويكتب للسينما ويكتب القصة وينثر موهبته وروحه المتمردة الجامحة التي تملك حنانا على الضعفاء لا حدود له، في الوقت الذي لا يتردد في إهانة الأقوياء المستقوين بفسادهم من الرجال التي ملأتها الشروخ.. دون أن يفكر أبدا في أن يصالح!.

تشعر مع بلال أنه إبنا صادقا للمدينة المصرية، يعرف مفردات مدينة القاهرة كما يحفظ اسكندرية "صم"، وهي معرفة المحبين الذين نفذوا في نخاعها حتي القاع، وتشعر بقدرته على الرصد والتقاط التفاصيل بصورة لا تدع مجالا للشك في انه يستطيع فك شفرة المكان ويقدر أيضا ليس فقط على مخالطة "السكان الأصليون لمصر" - كما يسميهم والإنصهار مع جراحهم وآلامهم وإنما يستطيع ببساطة من فرط صدقه أن يسجل نفسه في قائمة الضحايا!. أراني قد انتقلت لحدوتة أخري هي حدوتة أم ميمي التي كتبها في صحيفة الدستور وليس ضمن مجموعة بني بجم، وفيها قدّم الحقيقة البشعة لميمي وأم ميمي وأمثالهما في صورتهم الحقيقية وليس كما نراهم في سينما الوهم يجسدون شخصيات أولاد البلد الذين يجعلونك تحب الفقر بدلا من ان تلعنه!

بينما تقرأ لبلال قصته البديعة "جزل" - و هي قصة مشحونة بالمودة وحزينة - تشعر أنك تري الاسكندرية وتشم رائحة بحرها.. رغم أنه لم يصحبنا في جولة سياحية لنشاهد كورنيش المحجوب ومكتبة الاسكندرية، لكنك تشعر باسكندرية التي قدمها محمد خان في فيلم موعد على العشاء.. اسكندريتنا نحن، والبطل الذي ظل يتناول السمك ويثرثر بنجح في ان يقتلنا حزنا رغم ان حياته ليس بها فواجع درامية مفاجئة، وانما بها الأخطر: الرضا بالمقسوم، ذلك القاتل الذي يتسلل لحياة الناس فيميتهم أحياء.

أما في "الموت على ارتفاع منخفض" فقد ارتفع إلى آفاق رحبة وأطل على الحياة من حالق . ورغم انه لم يذكر تاريخ كتابتها إلا ان درجة النضج و"السوي" تشي بأنها حديثة ولا تعود إلى التسعينات مثلها مثل "ليلة اغتصاب مادلين اولبرايت" والتي تخيل فيها الحيزبون مادلين بفخذيها العاريتين تثير حاكما عربيا من فصيلة الأشكيف فيغتصبها في لحظة غدر في حضور مساعده الذي أسماه : نصير ساويرس ! .

وقصة الشيخ عرفة وفضيحة القطط التي نالها بعد أكلة الفسيخ اللعينة تدل على أن الكاتب مفطور على حب الكوميديا ويستطيع أن ينتزع الضحك من أنياب الأيام الداكنة !

أما رسالته المفتوحة إلى جوليا روبرتس فتكشف لنا عن هوسه بالسينما وعشقه المبكر للأفلام . ليس فقط مشاهدتها وإنما كتابتها أيضا ، وتجاربه السينمائية حتي الآن مُرضية إذا تحلينا بالنظرة الواقعية لحال السينما وظروف الانتاج ، غير اني أثق بأن ما لدي بلال يفوق ما شاهدناه بكثير . . و بمناسبة الكتابة للسينما أتمني عليه أن يشاهد فيلم " ٢١ جرام " للمخرج المكسيكي أليخاندرو جونزاليس بطولة شون بن وناعومي واطس ، إن لم يكن قد شاهده بعد ، وهي نصيحة أقدمها لأصدقائي الذين يحبون السينما حتي يحصلوا على ما حظيت به من متعة ، يقول الفيلم ان الانسان حين يموت يفقد ٢١ جراما من وزنه وهذه حقيقة علمية ، فهل هذه الجرامات الواحد والعشرون هي وزن الحب الذي يضيع بالموت؟ كما ان المخرج والسيناريست يقدمان تكنيك في كتابة السيناريو ليس جديدا تماما ولكن تم تنفيذه باقتدار معجز ، عُرض الفيلم في نهاية عام ٢٠٠٣ وكان يستحق الاوسكار ، لكن بطله فاز بالاوسكار عن فيلم آخر هو النهر الغامض .

أما قصة " لا حب تحت المطر " فتحمل شحنة من الرومانسية الكبيرة للبطل الذي ينزل من البيت في المطر للقاء أميرته المتوهمة . . و في الاوتوبيس وسط الزحام الخانق ، والأجساد المتلاصقة ودهس الأقدام لا يردع خياله الجامح عن تذكُر أغنية (راجعين يا هوي راجعين) لكن تردعه رائحة غير عاطفية هبت فجأة فأحرقت خياله ، ويمضي مع فيروز تحت المطر في انتظار حبيبته في العراء مغنيا (حبيتك بالصيف . . حبيتك بالشتا) ولا تأتي الحبيبة ولكن يأتي الصديق الذي يذكره بخيبته وانكساره حين كتب على السبورة في الجامعة(حبيبي سكر مر طعم الهوا) يوم تمت خطبتها . .

أما انا فقد أحسست مثله بفيروز تصاحبني قارنا للقصة وتغني في أذني : بديت القصة تحت الشتا بأول شتا حبوا بعضن ، وخلصت القصة بتاني شتا تحت الشتا تركوا بعضن . . و تغني نسم علينا الهوي ، ورجعت الشتوية ضل افتكر فيا . . و أشياء أخري جميلة في صحبة بلال فضل .

تأملات في الموت

في كل مرة يختطف فيها الموت انسانا ذو قيمة ، أجدني وقد سيطرت على حالة غريبة تغلب فيها التساؤلات العبثية على ما عداها ، حتى لو كان الفقيد انسان لا أعرفه . يكفي أنه كان صاحب قيمة ويكفي ان الحياة من غيره أقل إنسانية وأقل توهجا .

حدث هذا في الأسبوع الماضي بعد وفاة الدكتور أحمد عبد الله رزة الذي لم أتشرف بمعرفته ولكن الكثيرين من أصدقائي حدثوني عنه . كان موته مفاجأة أليمة لكل من عرفوه عن قرب . وقد استفاض أصدقائه طوال الأيام الماضية في الحديث والكتابة عنه باعتباره شخص استثنائي خسرته مصر بعد أن أضاعته ، وأي فتى أضاعت ! . وهذا دأب مصر دائما مع عشاقها ، تقسو عليهم وتضغط بقوة حتى تقتلهم ، بينما تمنح نفسها بسخاء مفرط لسقط المتاع من البشر .

قرأت أن الراحل المضى كتب إهداء صدّر به أطروحته للدكتوراة قال فيه : (إلى الأميين الذين علموني ، وإلى الفقراء الذين أغنوا ضميري) وقارنت بين سخاء نفس هذا الرجل ورحابة روحه وهو يتحدث عن والديه وأهله وناسه الفقراء الأميين الذين أخذ منهم العلم وغنى الضمير ، وبين واقعة "الجزمة" التي حدثت بمجلس الشعب بين أحمد عز وطلعت السادات وقرأنا ان عز قال : انا أجدادي معروف من هم . . شوف انت جدك مين؟ كما قرأنا أن فصيلا من عائلة السادات انتفض غضبا ورفع قضية على عز مذكرا اياه بأن عائلتهم أنجبت رئيس جمهورية ، فمن يكون عز ليعايرهم؟ . قارنت بين الترخص في هذه الحناقة التي يزعم كل أطرافها أن المرحوم جده كان قائد طابية ، وبين العظيم حقا أحمد عبد الله الذي لم يزعم سوى أن أهله الفقراء قد أورثوه الحكمة والشرف !

و قد أعاد إلى حديث الموت ذكريات ليلة وفاة أعز أصدقائي بالكويت عام ٩٧ وكأنها حدثت أمس . . . أنا أقف بجوار سريره مذهولا . وجسده مسجي بعد أن انسحبت منه الروح . وفي غرفة مجاورة أخذ أحد المعارف الذين وفدوا إلى الشقة بعمل بهمة ونشاط في جمع ما خف حمله من مقتنيات الصديق الذي رحل منذ دقائق ، وبعد أن ملأ حقيبتين من التحف والهدايا والسجاد همّ بحملهم والانصراف ، وعندها أفقت من ذهولي وقمت بمنع الجريمة وأنا في حالة ثورة جنونية . وقد

تبهني ما حدث إلى أسوأ ما في الموت . . . الميت لا يستطيع أن يدافع عن بيته ! وربما لهذا السبب ك
أكل مال اليتيم هو جريمة تتسم بالخسة والتوحش معا .

غير أن للموت وجوها أخري جديرة بالتأمل ، أحيانا أتصور أن الموت كثيرا ما يمنح الأموات
ميزة الخلود والمجد وحسن السيرة إذا حدث في توقيت معين ، وربما يفقد الميت هذه المزايا إذا تأخر
الموت أو حدث في توقيت آخر ، كما أتصور أن من يموت مخترما هو من يرضي عنه الله . عندك مثلا
الشهيد العظيم عبد المنعم رياض الذي لقي ربه بينما كان يتفقد أحد المواقع الأمامية على الجبهة يوم
٩ مارس ٦٩ . . لقد حفظ موته المبكر صورته النقية في أعيننا كبطل عظيم ورمز للفداء ، لكن ترى
لو أن العمر قد امتد به أما كان من المحتمل أن يضع يديه في أيدي اليهود ، أما كان من الممكن أن
يصافح شارون . وهل كان واردا أن يتحدث عن السفاح الذي أوغل في دمائنا باعتباره رجل سلام
لا أدري ولكن ما أدريه هو أن الله أحبه ، لهذا فقد اختاره إلى جواره في هذا التوقيت لينال المكانة
التي يحوزها في قلوبنا . . مكانة الشهيد العظيم .

و عندك أيضا عبد الحليم حافظ المطرب الذي غني للثورة وتغني بها وأنشد في كل المناسبات
الوطنية أغنيات عن السد العالي وبستان الاشتراكية وعضوية اللجان الشعبية وتمجيد العمل
الفدائي . . تخيل معي أن عبد الحليم حافظ قد امتد به العمر فشهد زيارة السادات للقدس وتوقيع
معاهدالسلام مع اسرائيل ، ثم شهد التحول إلى اقتصاد السوق ونشوء الرأسمالية المتوحشة وعودة
الاقطاع إلى الريف المصري وبيع المصانع . . ألا تري أن الله كان به رفيقا فلم يجعله يعيش حتي يغني
احتفاء بأولاد العم وترحيبا بالعدوان الامريكي الذي شاركنا فيه ضد العراق وليبيا والسودان
وتمجيدا لتصفية الصناعة وتلاشي مجانية التعليم وتنديدا بالعمل الفدائي الذي صار اسمه عمليات
انتحارية والمقاومة التي صارت إرهابا .

أنا أتصور أن الله قد أنقذه وحفظ ذكراه لأن الموت المبكر قد حال بينه وبين أن يطول به العمر
حتي يصبح مطرب لجنة السياسات !

علي العكس من الكاتب الصحفي الاشتراكي الذي عرفته سجون عبد الناصر والسادات
كمناضل يساري من أجل المسحوقين ، ثم للأسف يمتد به العمر فإذا به يدخل الحظيرة ويتذوق
براسيم الوزير ويشرب ماءه فيتحول إلى مدافع صلب عن الطراوة والرخاوة والمواقف المائعة
والمعادية لأحلامه السابقة والتي دخل السجن دفاعا عنها .

إذن فالعمر الطويل ليس بالضرورة نعمة ، إذ قد يصاحبه تأكل في الارادة وتهاو في القدرة على الاحتمال وانفراط التماسك النفسي واليأس من رحمة الله ، وهي العوارض التي لا ينجو منها الا القلائل من أولي العزم الذين لا يريدون شيئا من أحد فلا يستطيع أن يكسرهم أحد مثل الراحل الكريم الدكتور أحمد عبد الله ومثل عمنا الكبير الشاعر أحمد فؤاد نجم الذي أثبتت لنا الأيام أنه من كبار المغرمين صبابة الذين . . لو خان زمانهم مابيخونوش .

حديث ذو شجون عن الفوز الميمون

تضمنت أحداث عام ٢٠٠٥ فوز الدكتور محمد البرادعي بجائزة نوبل للسلام. ولا أدري لماذا أنا على خلاف كثيرين أشعر بإنقباض وتوجس، ودائما ما تكون فرحتي مشوبة بالحذر والترقب عندما يفوز أحد المصريين بجائزة دولية كبيرة أو منصب دولي رفيع، ربما أبالغ في مخاوفي وربما أن الخبرات السابقة فيمن نالوا هذه الجوائز أو حظوا بتلك المناصب هي التي تدفعني للإنكماش على ذاتي مرددا: يا ساتر استر يا رب!

أو ربما كان السبب هو إدراكي لحجم الهوان الذي انحدرنا اليه، في الوقت الذي إنفردت فيه الولايات المتحدة بحكم البلاد الضعيفة من خلال وكلاء محليين، وانفردت بكل المؤسسات الدولية تسخرها لخدمة المشروع الأمريكي، ومن ضمن أدواتها جائزة نوبل (حتى لو كانت الأكاديمية السويدية هي التي توزع الجوائز) كذلك جوائز السينما والمسرح والعلوم والفنون والمناصب التي تقوم بتوزيعها بما فيها منصب الأمين العام للأمم المتحدة.

راودني سؤال عن أي فوائد تكون مصر قد جنتها في السنوات من ٩٢ إلى ٩٦ أثناء تولي الدكتور بطرس غالي رئاسة المنظمة الدولية، فلم أجد أي شيء. ولا أقول أن غالي مسؤول عن إخفاقاتنا ولكن أقول أن توليه المنصب بدعم من فرنسا واستجابة من أمريكا لم يجعل لمصر أي فضل في الأمر وبالتالي فالرجل لم يكن قادرا على إفادة مصر حتى وإن رغب.

و لا ننسى أننا سمعنا من الدكتور غالي عن الباب السابع بميثاق الأمم المتحدة وعرفنا أن هذا الباب يغل يد الأمين العام ويجعله غير قادر على تطبيق قرارات الأمم المتحدة ضد إسرائيل، ولم يطلعنا أحد على الأبواب الستة التي سبقت هذا الباب المشؤوم وما إذا كان يمكن الولوج من أحدها لإرغام اسرائيل على الانسحاب وإيقاف إستهانتها وتحديها للقانون الدولي، كما أننا فوجئنا بأن هذا الباب الفولاذي الذي أسبغ على اسرائيل الحماية قد إمتلأ بالفتحات الواسعة التي مر منها ١٥٠ ألف جندي امريكي في طريقهم لإحتلال العراق. كذلك الحصار الخانق الذي فرضته الأمم المتحدة على ليبيا عام ٩٣ واستمر ٧ سنوات إنتهت بأستسلام ليبيا لكل الشروط الأمريكية كان في عهد أمينها العام المصري بطرس غالي.

وجائزة نوبل للسلام التي فاز بها الرئيس السادات واستلمها ومصر ممزقة بين من وعوا مبكرا للسيناريو المشؤوم بعد الصلح مع اسرائيل بالشروط الاسرائيلية وبين من راودتهم أوهام السلام والاستعداد لإستقبال الرخاء الذي لم يأت أبداً.

و حتي فرحتي الطاغية بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للاداب عام ٨٨ لم تلبث أن تبددت بعدما عرفت الطبيعة السياسية للجائزة التي لا يمكن أن يفوز بها أديب مهما عظمت موهبته وارتقت أعماله إذا كانت له مواقف سياسية مناهضة لأمريكا وربيبتها اسرائيل . إننا بالطبع نعرف قدر نجيب محفوظ ونعرف أنه أكبر من مائة نوبل وقد عشقنا أدبه من قبل أن يفوز بالجائزة ، ونري أن له كل الحق في إبداء أي أراء أو مواقف سياسية نتفق معها أو نختلف . و لكن كل هذا لا يغير من حقيقة أن الجائزة لا تمنح أبدا لأي مبدع يعادي اسرائيل .

و طبعا الدكتور زويل خارج هذا الحديث لأنه حصل على الجائزة بحسبانه عالما امريكيا ، وهو حين يذكر مصر بالخير فإنما يفعل ذلك من طيب أصله ، لكن الحقيقة المؤكدة أنه لو ظل بكلية العلوم جامعة الاسكندرية لما حصل حتي على جائزة مهرجان الاذاعة والتليفزيون ! .. و رغم كل هذا فالتعاون العلمي بين الرجل وبين تل أبيب ليس خبرا جديدا .

و نأتي للدكتور البرادعي الذي صادف فوزه بالجائزة فتورا رسميا وكأن النظام "مقموص" منه ، ولم يشهد فوزه تطبيلا وتهليلا كسابقيه ، وعلي أي الأحوال فموقف النظام منه ويا للغرابة يتفق مع موقفي من الحدث وإن إختلفت الأسباب ، فأنا غير مقموص من الرجل ولم أكن أطمع في أن أحل محله وأفوز بالجائزة ولكني أري في فوزه بها نذير شؤم ، ذلك أن الملفات المكلف بها الرجل لا تحمل أي إنصاف للعرب والمسلمين ، وخير مثال على ذلك البرنامج السلمي لإيران للحصول على الطاقة النووية وموقف الوكالة برئاسة الدكتور البرادعي منه . البرادعي يعلم قبل غيره أن إيران لم ترتكب أي مخالفة ويعلم أن تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية هو نشاط مشروع . ورغم هذا فإن كل جهده ينصب على إدانة ايران والعمل على حرمانها من حق مكفول لكل الدول ، بالرغم من أن الدور المفترض للوكالة التي يرأسها هو رعاية وتشجيع الاستخدام السلمي للطاقة النووية ، ولكن ماذا نفعل والجهة التي منحته الجائزة تضغط عليه في اتجاه مصالحها . وبالتأكيد تمنعه من التفكير ، مجرد التفكير في الحديث عن قنابل اسرائيل النووية . وحتي زيارته التي قام بها لإسرائيل وضعت اسرائيل شروطا صارمة من أجل إتمامها أهمها عدم الحديث عن أي شئ يتعلق بالبرنامج النووي الاسرائيلي ، والغريب أن الزيارة تمت كما أرادت اسرائيل ولا ندري ماذا

بنّـي لرئيس الوكالة الدولية للطاقة النووية ليتحدث فيه بعد استبعاد كل ما يخص الطاقة النووية من النقاش!

لـيس الـذنب ذنـب الدكـتور البرادعـي الـذي يحـدوه الطموح المهني مثل أي انسان لتقلد أكبر المناصـب بالشروط المتعارف عليها. الذنب والمشكلة تتمثل في أن الشروط المتعارف عليها للحصول علـى الجوائـز وتقلـد المناصـب الدولـية لا نـساهم في وضعها وإنما يضعها الكبار من أجل أنفسهم وبالتالـي فهـي لـيست في صالحنا، ولهذا يظل من الأقل سوءاً أن تكون أدوات قهرنا أجنبية الصنع والمنـشأ ولـيس مـن بيـنها مواطـنون من بني جلدتنا ينفذون فينا الأحكام الجائرة.. بينما نحن نهلل لفوزهم الميمون!

فيصل القاسم يواصل إنتقامه!

لا أدري إلى متى يستمر الدكتور فيصل القاسم مذيع فضائية الجزيرة في انتقامه، كنت أظن أن الوقت كفيل بأن يجعله بعيد النظر ويترفق بشعب مصر الذي لا يستحق منه كل هذا. لكن يبدو أن الدرس الذي تعلمه على يد الذين يديرون العزبة لدينا كان بليغاً.

و أصل الحكاية أن فيصل القاسم كمثقف عروبي كان كثيراً ما يستضيف في برنامجه "الاتجاه المعاكس" شخصيات مصرية محترمة مشهود لها بالفضل والنزاهة والثقافة، ولما كانت شخصيات من هذا النوع لا يمكن أن تكون على هوى الحزب الوطني فإن شهرة البرنامج وذيوعه وكثرة استضافة المعارضين به جعلت الحزب الحاكم يشعر بالحرج البالغ وبأن جهوده في اخفاء صورته الحقيقية عن شعب مصر يفضحها فيصل القاسم دون أن يقصد. و من هنا كان الضغط عليه. و من اقسى وسائله ابعاد شقيقه المطرب مجد القاسم خارج مصر وعدم السماح له بالغناء إنطلاقاً من القاهرة. من بعدها وصل فيصل القاسم إلى صيغة يرضى بها السلطة الغاشمة في الظاهر، وينتقم في الوقت نفسه من الشعب الذي سمح لهذه السلطة أن تركبه، فكان عندما يختار لبرنامجه ضيوفاً مصريين يختارهم دون المستوى، ليس بينهم معارضين. وللأسف أغلبهم من عشاق اسرائيل والمبهورين بالمشروع الاستعماري الغربي الرافضين لعروبة وطنهم وإسلامه وهويته الحضارية، الذين لا يخفون سعادتهم باحتلال العراق وتفتيت السودان وإذلال سوريا.

و شيء من هذا شاهدته في الحلقة الماضية التي كانت تناقش تصريحات الرئيس الايراني أحمدي نجاد التي طالب فيها بمحو اسرائيل كمشروع استيطاني من الوجود. إستضاف البرنامج الاستاذ أنيس النقاش من لبنان، وفي مواجهته شخص لم أسمع به من قبل قدمه باعتباره صحفي مصري ولم يقل لنا بأي صحيفة يعمل. كان شكله غير مألوف بالنسبة لرجل، إذ قام بلمْ شعره من الخلف في ضفيرة طويلة على شكل ذيل حصان مثل البنات. شعرت بالقلق وتساءلت: أين عثرت على هذا الكنز يا عم فيصل!

من البداية كان واضحا ان الضيف اللبناني أتي إلى الاستوديو مُسلحا بثقافته وإلمامه الواسع بالتاريخ وثقته في نفسه ومنطقية الطرح الذي يتبناه. في المقابل تبدت الغوغائية والسطحية والجهل الفاضح في أخينا المصري.

كـان الاسـتاذ انيس الـنقاش يتحدث في لغة عربية فصحى وسليمة مسترسلا بشكل يدل على إتقـاد ذهـن ويعرض رأيه في ثقة وهدوء ، بينما كان الرجل ذو الضفيرة يتحدث بعامّية مصرية بالغة الركاكة تشبه حديث السمكرية وسائقي الميكروباص (مع احترامنا للمهن الشريفة) . . القاف لديه أقـرب إلى الكـاف والطـاء هي تاء صريحة . الضيف العربي يقول إن ما يطرحه الرئيس الايراني هو مايتمـناه كـل عربـي وكل مسلم ، وأن حماية اسرائيل وكفالة أمنها _و إن كانت همّا امريكيا غربيا _ إلا أنهـا ليـست قـضيتنا بل العكس هو قضيتنا ، ولا ينبغي أن ننتفض إشفاقا حين نري رجلا يهدد اسـرائيل ، ولـو كانـت الحجـة أن هـذا الإعـلان تنقـصه الحصافة لأنه قد يكون مبررا لضرب ايران وتـدميرها ، فإن اسرائيل لا تحتاج إلى مبرر للقيام بهذا العدوان إن استطاعت ، وأن الرئيس الايراني يحتاج إلى دعمنا وليس إلى سخريتنا منه .

لكـن في الجهة المقابلة نجد صديق اسرائيل الحنون يسُب ايران ورئيسها ويكيل لها التهم ويشكك في نـواياها و يـستنكر أن يقـوم أحـد بـتهديد اسـرائيل لأنهـا دولة عضو بالأمم المتحدة ويدافع عن المشروع الاستعماري الـذي رشـق اسـرائيل في قلـب العرب مدعيًا في تبجح أن كثيرا من الدول العربية هـي أيـضا نـتاج مؤمرات الغرب (يقصد اتفاقية سايكس بيكو) فلا يجد النقاش سوي ان يبتـسم اشـفاقا علـى صـاحبنا الـذي لا يحسن التمييـز بـين وطـن عربي واحد تم تقسيمه إلى دول ودويـلات مـن أجـل إضـعافه ـ مـع بقاء سكانه كما هم ـ وبين عصابات اجرامية طردت شعبا من ارضه واسكنت غرباء مكانهم .

و كـان فيـصل القاسـم يدير دفة الحوار بمهارة ودهاء ويوجه للضيف المسكين بين الحين والاخر سـؤالا يجعلـه يغـوص أكثـر وأكثـر في وحـل تمجيده للاسرائيليين والإفصاح عن كراهيته للعروبة والاسـلام حـتي أن الـضيف المصري تمـت هلهلته وكان فُرجة بحق أمام المشاهدين . ولا شك أن الجمهـور المصري المشـاهد قد شعر بغُصّة ومرارة من سوء اختيار فيصل القاسم ، فقد كان بإمكانه أن يختـار ضـيفا غـير مـصري يتـبنى نفـس الطرح التعيس وما أكثر حبايب اسرائيل الأن في كل البلاد العـربية ، وكـان بإمكانـه أن يختار ضيفا مصريا من بين الذين يـستنكرون تصريحات الرئيس الايراني ولكـن لديهم منطق ولديهم مصداقية ويعبرون عن آرائهم هم ولا يتكلمون بلـسان الأعداء . ولكن يبـدو أن فيـصل مـا زال يواصل انتقامه من الذين عاقبوه لكثرة استضافته شخصيات مصرية محترمة فـأراد أن يـريهم كـيف تكون الصورة عندما يفعل العكس . ولا نريد أن نضع اللوم كله عليه ، وإن كـنا نناشـده أن يكتفي بما حقق حتي الأن . . في الوقت الذي ندعو الله ألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .

صاحب الجلالة السائح!

أينما وليت وجهك يطالعك في الشارع إعلان عجيب يقول إن كل مليون سائح يوفر ٢٠٠ ألف فرصة عمل للمصريين، وإذا فتحت الراديو أو التليفزيون يصادفك نفس الاعلان مع تفصيلات عن التي شيرت الذي يشتريه السائح، وكيف أنه يفتح بيت الفلاح الذي زرع القطن والسائق الذي نقله وعمال مصنع النسيج والمحل الذي عرضه والشاب الذي باعه.. الخ. وينتهي الإعلان بأن السياحة خير لينا كلنا!.

و على الرغم من سذاجة الطرح لأن الفلاح منذ فجر التاريخ يزرع القطن الذي يتم نقله وتصنيعه لأن هناك بشر مصريون في حاجة للملابس وليس من أجل التي شيرتات السياحية، لكني لن أتوقف عند هذا.. فقط أسأل من هي الفئة أو الطائفة أو الجماعة المستهدف أن تصل اليها الرسالة الإعلانية، وأن تتلقاها على نحو إيجابي فتعدل من سلوكها المعادي للسياحة وتعود إلى حظيرة الوطن السياحية!

هل يرون أن السلوك العام للمواطن المصري لا يرحب بالسياح ولا يشجعهم على العودة مرة أخرى؟ ربما كان الأمر كذلك فعلا، وربما كان المتعاملون مع السائح من المواطنين ينظرون اليه بحسبانه صيدا وقع في الشبكة ولا ينبغي إفلاته قبل اعتصاره. قد يكون كل هذا صحيح، ولكن الأكثر صحة أن المواعظ والكليشيهات المدرسية لا تكفي ولا تصلح لحل المشاكل.. ولدينا آلاف الوعاظ والدعاة والأئمة والخطباء، ومع ذلك لا تزداد الأخلاق والسلوك إلا تدهورا!

و إنما العودة إلى أصل المشكلة وإزالة أسبابها هو الطريق الصحيح للحل. ثم إن أغلب أسباب ضعف السياحة يعود إلى الحكومة المترهلة البليدة التي تخلت عن مسؤوليتها.. و على سبيل المثال انظروا إلى مطار القاهرة واحكموا بأنفسكم..

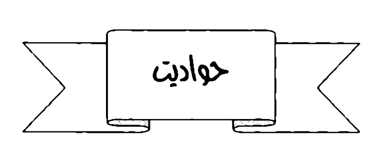
هل المواطن المصري هو المسؤول عن كل هذا الكم الهائل من المتسولين الذين يحيطون بالسائح عندما يخطو أول خطواته على أرض الوطن ومن بينهم أفراد الشرطة الذين يتنطعون على الناس قائلين وأيديهم ممدودة لكل من يقابلهم: حمد الله على السلامة، فهل الإعلان اللذيذ يستطيع أن يردع هؤلاء أم أن الذي يردعهم هو حصولهم على مرتب يحفظ انسانيتهم ويقيهم ذل السؤال..
وهل المواطن المصري مسؤول عن موظفي الجمارك الذين يتعمدون التلكؤ والتركيز على تفتيش شنط السائحات والتقليب في أشيائهن النسائية على نحو بالغ الفجاجة؟ وهل المواطن المصري

مسؤول عن أن وطنه أصبح فاقدا للمصداقية والثقة بعد أن صار معروفا بأنه دولة لا تحترم القضاء ولا تنفذ أحكامه إلا بشكل انتقائي وحسب المزاج، فهل هذا مناخ يشجع أحدا على زيارة بلد ضاع الحق فيها؟! وهل المواطن المصري مسؤول عن أن شوارع المدن بما فيها العاصمة أصبحت ساحات لقضاء الحاجة تفوح منها رائحة البول بعد أن عزّت المراحيض العمومية التي يحتاجها الإنسان مواطنا كان أم سائحا، وكيف لا يعرف المسؤولين أن أي ميدان يحتاج إلى عشرة دورات عمومية "نظيفة" على الأقل وليس دورة مياه يتيمة عفنة تأنف الحيوانات من الاقتراب منها.

ثم نأتي إلى النقطة الأهم التي يغفل عنها من يحلمون لبلادنا بمستقبل سياحي زاهر وهي - ليست هناك دولة متخلفة استطاعت أن تحقق تنمية اقتصادية من خلال الاعتماد على السياحة. ولننظر إلى أكبر بلدان العالم استجلابا للسياح . . أمريكا وفرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا واليونان . . كل هذه البلاد تعتمد اعتمادا اساسيا على الزراعة والصناعة، ثم تأتي السياحة بعد ذلك تتويجا لوضع مستقر اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وأمنيا وليس العكس . أما نحن فقد تخلينا عن الزراعة واستسهلنا استيراد القمح والذرة والفول، وتخلينا عن الصناعة فبعنا المصانع وشردنا العمال ونحلم بأن تعوضنا السياحة عما جنت أيدينا من خراب وأن تستوعب ملايين العاطلين وهذا تصور مضحك لمستقبل دولة تدعي الريادة . .

فمن ناحية لن يأتي السياح أبدا بالقدر الذي نتمناه وذلك للأسباب السالفة، ومن ناحية أخرى ليس من الحصافة أن نجعل أرزاق وأقدار ملايين المواطنين معلقة بوضع أمني هش قد تفجره رصاصة طائشة هنا أو عمل إرهابي هناك، فضلا عن أن الحنفية التي نحلم بتدفق السياح منها موجودة دائما تحت أيدي الأعداء خارج الحدود!

و الأهم من كل هذا أن الأنشطة السياحية من منشآت فندقية ومطاعم وملاهٍ وكازينوهات وبارات تجعل من خيرة شباب مصر وخريجيها بما فيهم الأطباء والمهندسون والجيولوجيون والمحاسبون والكيميائيون . . تجعل منهم مجرد جرسونات يعتمدون على تلقي البقشيش من الزبائن ويقدمون كل التنازلات بما فيها الأخلاقية في سبيل الحصول عليه . وقد بلغ الأمر في هذا الخصوص مبلغا يملأ النفس أسى وحسرة، ولن أحكي عن أشياء مشينة يعرفها الجميع، فقط أحكي عن أن هؤلاء الجرسونات أصبحت أراهم ينحنون للزبائن بشكل يخلو من الكرامة وعزة النفس ويخاطبون الزبون بلفظ : معاليك وجنابك في حالة من الانسحاق شديدة القسوة . فهل يرضينا أن يتحول أمل مصر ورصيدها البشري إلى عبيد عند من صاروا أصحاب معال لمجرد امتلاك بعضهم فقط لثمن كوب شاي في كافيتريا سياحي؟!


حواديت

عن الذين يجهلون قيمة أنفسهم

تعرفت اليه أثناء إقامي بالخارج . . مهندس مصري مهاجر يملك شركة ضخمة للإنشاءات ، التقيت به أول مرة بمنزل موظف إداري بالسفارة المصرية . في البداية ظننته السبّاك لأنه كان يقوم بإصلاح بالوعة مسدودة ، وعندما أنهي عمله تم تقديمه لي بأنه : المهندس فلان ، مرة أخري التقيت به في حفل كبير أقامه المكتب الثقافي في ناد إجتماعي عريق ، شدّني حجم البذخ والإسراف في الحفل . . ثم علمت أن هذا المهندس هو الذي قام بدفع تكاليف الحفل بالكامل .

تعددت المرات التي لقيته فيها بعد ذلك وكلها كانت مناسبات وأحداث خاصة بالسفارة والقنصلية والمكاتب المصرية المختصة بالسياحة والثقافة والتجارة . . إلخ وفي كل هذه المناسبات كان هو المتكفل بدفع جميع مصاريف الأكل والشرب وتأجير القاعات . . ولم يحدث أبدا أن رأيت اسمه مدونا على كارت الدعوة ولو باعتباره الراعي الرسمي أو بأي صفة تكفل له الحصول على حقه الأدبي والمعنوي لقاء ما يدفع . والعجيب أن المناسبات التي كانت تقام ببيت أحدهم كان يتكفل فيها أيضا بنقل أفخم المأكولات من فنادق الخمس نجوم إلى بيت الموظف الرسمي صاحب الدعوة .

الخلاصة أنني وجدت هذا الرجل العجيب يبذل عشرات الألاف من الدولارات بمنتهي البساطة على أمور لا تخصه ولا تعنيه ولا يحصل منها على أي عائد ، وحتي عند حضور شخصية مصرية إلى هذا البلد كان ينوب عن السفارة في عمل إستقبال أسطوري يفوق قيمة الشخصية بكثير وفي النهاية يحصل السفير وأتباعه على "الكريديت" ولا يحظي صاحبنا حتي بكلمة شكر . الحالة العجيبة من العطاء المجاني السفيه لهذا الرجل أثارت فضولي فسعيت لمد الجسور معه لمحاولة فهم الحالة ، وفعلا جمعتني به جلسات كثيرة بالمقهي حكي لي فيها قصة حياته وهجرته للدراسة بالجامعة حتي تخرج مهندسا من إحدي أكبر الجامعات بالغرب ثم صار صاحب مشروعات ضخمة تجلب له أرباحا بالملايين ، وتطرق إلى الجزء الذي أثار دهشتي في شخصيته وقال : والأن بعد أن حققت كل أحلامي المهنية أحاول أن أقوم بدور في الخدمة العامة من خلال رعاية الاحتفالات والمناسبات المصرية هنا خدمة مني لمصر !

كنت أستمع اليه فاغرا فمي من الدهشة ولم أشأ أن أعلق على هذا الكلام الفارغ بما يجرحه وآثرت أن أحتفظ برأيي فيه لنفسي . هذا رجل سفيه يملك المال والفراغ ويتصور أن إنفاق المال على موظفي السفارة والقنصلية خدمة لمصر . وذات يوم كنت أسير معه بالشارع عندما التقينا رجلا سلم عليه بحرارة وقدمه لي : أستاذي البروفيسور تيم روبنسون العميد السابق لكلية الهندسة التي تخرجت منها . . رحبت بالرجل الذي بادرني بالسؤال : هل أنت صديق لهذا الرجل ؟ قلت : نعم ،

قال يجب أن تكون فخورا بصداقة هذا العبقري ، ابتسمت في ارتباك ، فأكمل الرجل العجوز : هل تعلم أن هذا الرجل له سبعة مخترعات مسجلة باسمه ، وأن اختراعاته هذه أحدثت ثورة في عالم الإنشاءات في العالم كله وجلبت لشركته أرباحا بالملايين ، إن صداقة هذا الرجل هي شرف عظيم ، لكن عيبه أنه لا يعرف قيمة نفسه . . هممت بأن أقول له : إن صداقة هذا الرجل ملقاة على الرصيف ومتاحة لكل من هب ودب وإني رأيته بعيني يصلح السباكة في منزل أحد الموظفين . بعد ذلك علمت من مصادر أخري أن صاحبي هذا عبقرية هندسية لا مثيل لها حقا وأن الأوساط العلمية تعرف له مكانته وتحفظ له قدره .

أذهلتني هذه الحقائق عن الرجل . . إن سلوكه وإتضاعه وسعيه الحثيث للقرب من الموظفين الحكوميين المصريين الذين لا يملك أحد منهم علمه أو فضله أو مكانته ، وإنسحاقه أمامهم وبذله المال على مناسباتهم التافهة . . كل هذا لم يجعله موضع إكبار ولم يكفل له المكانه التي يستحقها بينهم . . بالعكس كانوا يأخذون منه على طريقة "حسنة وأنا سيدك" وبدلا من أن يجعلوا منه مصدرا تستفيد من علمه وخبرته ورغبته في القرب والوصال فإنهم يكتفون بالإستفادة من عبطه وسذاجته ويجعلونه يصرف عليهم .

ذكرتني هذه الحالة بقصة ليوسف إدريس كان بها ما يشبه هذا هي قصة "علي ورق سوليفان" عن قصة الزوجة التي لم تعرف أهمية ومكانة زوجها الجرّاح الكبير إلا عندما زارته بالمستشفي أثناء إجراءه جراحة وعرفت أن الرجل الذي تستهين به في المنزل هو السيد المطاع الذي يحبه ويحترمه الجميع هنا . . وهي نفس التيمة التي عزف عليها الروائي محمد المنسي قنديل في أحدث رواياته "قمر على سمرقند" .

كل هذا طاف بخيالي عندما قرأت عن توجه لدي بعض السادة القضاة بالعمل مستشارين لدي بعض الوزراء . . وتعجبت بشدة كيف يرضي القاضي أن يعمل في خدمة وزير ؟ وكيف لا يري هذا القاضي الحقيقة التي نراها جميعا وهي أن مقام القاضي أعلي شأنا وأرفع مكانة وأكثر سموا من مجالس الوزراء بالعالم كله ، حتي بالبلاد التي بها وزراء أتوا عبر انتخابات حرة وليس على أسنة الرماح ، وكيف لا يعرف بعض القضاة أن الناس تنظر إليهم نظرة مليئة بالاحترام الحقيقي والإجلال الحقيقي والعرفان الحقيقي وليس كما ينظرون لرجال السلطة التنفيذية في احترام زائف مرجعه الخوف والطمع . . لا يمكن أن يكون المال وحده هو ما يدفع بعض القضاة إلى الرضا بالإشتغال عند الوزراء ، العامل المادي عامل مهم بالتأكيد لكنه ليس كل شيء ، هناك حالة من تقديس الميري تغلغلت في النفسية المصرية بحكم توحش السلطة ونفوذها وقدرتها على سحق البشر ، وهذه الحالة للأسف لم ينج منها بعض القضاة ، كما لم ينج منها مهاجر عبقري مرتبط نفسيا بمصر ، يحاول أن يتقرب من ممثلي السلطة حتي بدون الحاجة اليهم ، ويتصور أن دفع فاتورة العشاء لسيادة السفير هي خدمة للوطن !

والله يا مصر زمان!

عندما نزل من الطائرة بعد غيبة ثماني سنوات وصافحت بصره لافتة: إدخلوها بسلام آمنين.. اهتز قلبه وارتعش ووجد نفسه يغمغم: والله يا مصر زمان.

عبث رجال الجمرك بحقائبه في جلافة، واستظرف أحدهم سائلاً إياه عن فيلم ثقافي، فلم ينفعل ولم يسمح للغضب أن ينتقص من فرحته.

لملم أشياءه وخرج من المطار. هو يعلم أن مصر قد ساءت أحوالها إلى درجة كبيرة، ولن يدعي التفاجؤ باللصوصية والرشوة والسوقية والقذارة. لقد كانت هذه أسباب سفره واغترابه. كل ما يعنيه الآن هو أجازة لمدة أسبوعين بأقل قدر من المنغصات، ولن يسمح لأحد بأن يفسدها عليه.

توجه بعد أن وضع حقائبه بالبيت إلى مكتب تأجير سيارات حتى لا تضيع أيامه في الشجار مع سائقي التاكسي. كان المكتب فخماً يحتل شقة بالدور الأول في عمارة بالمهندسين، والسيارات تتخذ من الرصيف والشارع معرضاً دائماً!

أدهشه أن المكتب يغص بالفتيات اللاتي يشبهن فتيات هالة سرحان وقناة روتانا يعملن في استقبال الزبائن. سألته الموظفة بدلال عن طلبه فأجاب: أي سيارة بحالة جيدة. أمسكت بيده وسارت به إلى الشرفة وأشارت للسيارات الواقفة بالأسفل: اختر ما شئت فكل ما لدينا جديد. أشار إلى واحدة. قدمت له نموذجا لملء بياناته، لم يجادل في السعر رغم ارتفاعه الواضح، لكن أفزعه الشرط الموضوع في العقد والخاص بألا يسافر خارج القاهرة وألا يتعدي ما يقطعه يوميا مائة كيلو متر، اعترض بشدة لأنه ينوي أن يسافر داخل القطر كما يحلو له. قالت ذات الدلال أن هذا يقتضي سعرا مضاعفا! رضخ صاغراً لكنهم لم يكتفوا وطلبوا مبلغ ٢٠٠٠ جنيه على سبيل التأمين يتم رده عند إعادة السيارة.

بعد أن وقّع الأوراق ودفع المطلوب فاجأته الموظفة عندما سألته التوقيع على إيصال أمانة بمبلغ ١٠٠ ألف جنيه. رفض بشدة وقرر إلغاء الأمر برمته، حيث أن تأجير السيارات في كل مكان بالعالم لا يتضمن هذا الإجراء العجيب. هنا تدخل صاحب المكتب وهو رجل لا تخفي أناقته البادية سحنة القواد غليظ الملامح التي يحملها وقال: يا سعادة الباشا نحن نثق بمعاليك ولكن هذا إجراء شكلي يسري على الجميع.. عندما تعيد الينا السيارة نعيد إليك الإيصال.

حسم تردده ووقّع الإيصال، لكن تفاؤله بالإجازة بدأ يهتز. تسلم المفاتيح ونزل إلى السيارة، فلما اقترب منها فوجئ بها "مخبوطة" في أكثر من موضع، وقال الموظف: سنقوم بعمل بيان بكل

العيوب الموجودة بالسيارة حتى لا نقوم بتحميلك مسؤوليتها عند إعادتها . فقال وهو يقاوم الانفجار : أنا أريد سيارة سليمة وبدون عيوب وقد دفعت مبلغاً يكفي لشراء سيارة في البلد الذي أعيش فيه . فاعتذر الموظف السمج قائلاً : لقد وقّعت سيادتك على العقد ولا نستطيع تغيير السيارة . فصاح غاضباً : إذاً أعيدوا إلي فلوسي ، فهز الموظف كتفيه وانصرف .

عاد صاحبنا إلى المكتب مسرعا وحكى الأمر للفتاة طالباً إلغاء العملية واسترداد ما دفعه . فاعتذرت بأن ما تم دفعه لا يمكن استرداده ، فطلب التحدث مع صاحب المكتب ، فأخبرته انه انصرف ولن يعود قبل يومين !

لم يدر ماذا يفعل مع هؤلاء المخادعين ، وشعر بالدنيا تضيق في وجهه والإجازة توشك ان تتحول إلى كابوس . . لماذا تفعلون هذا؟ ألا تحرصون على سمعة مكتبكم؟ فقالت الموظفة صدقني يا أفندم نحن لسنا نصابين . . كل ما في الأمر أن العائدين من الخارج يتصورون الأمور في مصر تجري مثلما هي في الخارج ، وعندما تعتاد على التعامل معنا ستعرف كم نحن طيبون !

لم تزده كلماتها السخيفة إلا غضباً . المهم . . . فوض أمره إلى الله وعاد لاستلام السيارة كانت مهمة فحص السيارة صعبة للغاية تحتاج لعيني صقر يستطيع رصد العيوب حتى لا يحملوه إياها عند إعادتها . في النهاية دخل سيارته وقبل أن يدير الموتور اكتشف غياب المرآة الأمامية التي لا يمكن القيادة بدونها! أين المراية يا بني؟ ثانية واحدة معاليك . غاب الأفندي قليلا ثم عاد مبتسما وفي يده المرآة ودخل وثبتها في مكانها . أين كانت؟ هل أخفيتموها لتحاسبوني عليها وكأنني أنا الذي أضعتها؟ ابتسم في حياء مصطنع يليق بغانية ولم يرد .

وضع المفتاح وحاول إدارة السيارة فلم يتحرك الموتور ، جرب عدة مرات ، لا فائدة . . صرخ على العاملين : تعال يا بني ، السيارة لا تدور ، الله يخرب بيوتكم . . خف اليه وجه جديد . . .

- ما الموضوع يا معالي الباشا؟

- الموضوع ان السيارة قطعة خردة لا تدور

فرد العامل كأنه تذكر شيئاً : آه عرفت ، السيارة ليس بها بنزين ، غاب لحظات ثم عاد يمسك بكوز حقير وصب مقدار فنجان بنزين داخل السيارة وقال : من الممكن هكذا أن تصل إلى محطة الخدمة عند الناصية القادمة ! !

كاد صاحبنا أن يبكي من القهر . . لقد قام باستئجار سيارات في معظم عواصم العالم ، ومن المتعارف عليه أنك تستلم السيارة مملوءة بالوقود وتعيدها مملوءة . أما أن تستلمها فارغة فهذه بدعة

غير مسبوقة. وصل للمحطة وملأ السيارة بالوقود واندفع على الطريق مستبشراً أن الأجازة قد بدأت. لكن ما كاد يصل إلى الطريق الصحراوي حتي سمع الموتور يزمجر وحشرجته تتزايد، ثم يتعطل وتقف السيارة.

يوماً بأكمله أمضاه صاحبنا على الطريق بصحبة الميكانيكية والكهربائية والعفشجية.. في النهاية تم إصلاح السيارة ودفع صاحبنا مبلغاً جسيماً لإصلاح الكتاوت والكبالن والأنارخ إلى آخر هذه الأسماء العجيبة!

فقد صاحبنا رغبته في الفسحة وانهارت أحلامه في الاجازة، وصار كل همه أن يستعيد إيصال الأمانة... أعاد لهم السيارة مجددة ومملوءة بالوقود، وترك لهم مبلغ الايجار الذي دفعه وسمح لهم أن يصادروا مبلغ التأمين لأن السيارة بها تلفيات!!

لم يجادل ولم يناقش.. استعاد ايصال الأمانة وخرج إلى الشارع يغني: والله يا مصر زمان!

حياة وآلام المثقف الجريح

أي إنسان إذا كانت لديه مشكلة، من الطبيعي أن يشعر ببعض المعاناة وقدر من الضيق يتدرج حسب حدة وطبيعة المشكلة، لكن إحساس المرء بأن لا أحد يشاركه ما يحسه أو يفهم ما يعانيه .. بالتأكيد سيسبب له عذابا أقسى وأمر من عذاب المشكلة ذاتها، فالإحساس بالإغتراب وسط الناس .. قاتل.

عدت لمصر بعد سنوات بالخارج وبدأت أتردد على محل مجاور للمنزل يقوم بتأجير شرائط الفيديو وال دي في دي. ولاحظت منذ البداية أن نوعية الشرائط ومستوي الصوت والصورة في غاية الرداءة مع أن أسعاره مرتفعة، فكنت أعيد له الشريط الذي أصابني بالنكد بدلا من أن يمنحي سهرة طيبة وأنا مستاء وغاضب، وكنت ألقي عليه دروسا عن أهمية احترام العميل والمحافظة عليه من خلال تقديم خدمة حسنة وسلعة ذات جودة، خصوصا وأن عصر الشمولية قد انقضي والتسعيرة الجبرية التي كانت مبررا للرداءة لم تعد موجودة، والسوق أصبح مفتوحا، والمنافسة على أشدها، وقانون العرض والطلب يحتم عليه أن يرتقي بالخدمة وإلا ضاع!

و لكن كان بروده يثيرني، وعدم اكتراثه لما اقول يزيد من حنقي وغضبي .. لهذا فقد انصرفت عنه واتجهت لمحل آخر قريب، فوجدت الأمر لا يختلف واكتشفت أنهم جميعا يقدمون نفس الخدمة الرديئة، واكتشفت كذلك أن مبادئ آدم سميث عن العرض والطلب والمنافسة وقوانين السوق كلها معطلة وخارج نطاق الخدمة! واتضح لي أن أصحاب محلات الفيديو كانوا على حق عندما نيمني بعضهم بالرغبة في الشغب والبحث عن المشاكل، وأنهم كانوا صبورين معي أكثر من اللازم! ذلك أن بقية الزبائن لم تكن تصدر عنهم بادرة تذمر أو استياء، بالعكس كانوا يبدون سعادة والرضا ولم يشتك أحدهم من رداءة الصوت أو الصورة أو قذارة الشريط .. وقد سبق أن رأيت بعيني بعضهم يستأجر عشرة أفلام في المرة الواحدة بعضها هندي وبعضها أمريكي أو عربي. وأشهد أنهم كانوا يتبادلون الضحكات الودودة مع العاملين بما يدل على الرضا التام عن المحل ومنتجاته.

من الضروري أن أذكر أن هذا لم يكن يحدث في حي عشوائي أو لدي محلات رخيصة، الأمر الذي جعلني أتوقف طويلا أمام هذه المعضلة بالتساؤل: ما الذي يجعل أبناء الطبقة الوسطي يقبلون الدنية في حاجاتهم؟ وما الذي يدفعهم إلى الرضا بنوعية الحياة الرديئة عندما لا يكون هناك مبررا لهذا الرضا كالفقر مثلا أو الجهل أو انعدام الحيلة، إن الرضا بالدنية والقبول بنوعية حياة رديئة بدون مبرر قد قام على نحو واضح بتعطيل قوانين العرض والطلب وجعل التاجر يسيء معاملة الزبون ومع هذا لا يخسر! إلى حد أن الفكهاني يبيع بضاعته كلها -و نصفها معطوب- بالسعر الذي يحدده، ولا أستطيع أن أتصدي له بسبب أن الآخرين راضون!

و حتي عندما أذهب إلى السينما وأدفع ٢٥ جنيه في التذكرة أجد أحيانا مقعدي مشغولا بأحد الأنطاع الذي جلس مكاني ويرفض أن يقوم، فإذا أصررت على موقفي أسمع (في الظلام) همهمات الحاضرين من عينة: "ما كل الأماكن زي بعضها يا أخي" أو "ما تعمللكش حكاية واقعد في أي حتة" . . هنا يجتاحني شعور ممعض بالألم والاغتراب والرغبة في الفرار من المكان ومن البلد كلها.

أنا أعلم أنهم لا يقصدون إيلامي ولا يعرفون أنهم بما يفعلون يجعلونني أكره الحياة . . إنني أرثي لهم، وأتمني أن أعيش حتي أراهم يعرفون الاختراع العجيب الذي عرفته الدنيا كلها واسمه الـ "كواليتي" ويجدّون في طلبه . . ويندرج تحته كل الأمور المتعلقة بالذوق في المعاملة والذوق في المنتج، وهو لا يرتبط بالفقر أو الغني . . يرتبط فقط بالإحساس ونظرة الانسان إلى نفسه وشعوره بالجدارة والاستحقاق.

ما أشد شعوري بالحنق عندما أقرأ عن المعتمرين الذين يتم إلتقاؤهم على أرصفة الموانئ والمطارات في انتظار السفن والطائرات التي تنقلهم لأداء العمرة . . . ومرة أخري أنا لا أتحدث عن الفقراء الذين يتم التعامل معهم بالجزمة ٢٤ ساعة في اليوم . . أنا أتحدث عن أناس مقتدرين ولديهم فائض للقيام بالرحلات السياحية، ومع هذا يعتقدون أنه كلما زادت البهدلة على يد الموظفين السفلة كلما زاد ثواب العمرة!!

ما الذي يجعل أبناء الطبقة الوسطي لا يتصورون وجود نوعية للحياة أرقي مما هم فيه . . هم طبعا يحلمون بالصعود الاجتماعي ويرغبون في المال الذي من المفترض أن يحميهم من الذل لكن هذا للأسف لا يحدث، إذ أنهم مع الصعود الطبقي ووفرة المال لا تتحسن نوعية حياتهم ولا يفرون من الذل . . هم فقط يجدون العزاء في إذلال عدد أكبر ممن دونهم!

و مهما حدث لا يرتفع مستوي توقعاتهم من الحياة، ما يرتفع هو نهمهم الاستهلاكي الذي يزيد الجلافة ويغيّب الروح ويسحق الذوق فيجعلهم يستهلكون كل انتاج الدنيا التافه والرديء من السلع، ويجعلهم يملأون جيوب تجار الخردة السينمائية والغنائية، ويحطمون حياة أي باحث عن الهدوء والخصوصية، كما يقتلون كمدا كل من يتوقع منهم المساندة أو المشاركة في الشأن العام وكل من يتمسك بحقه في أن يحصل على معاملة واحترام لائقين بالبشر . . . ومع كل هذه الغلظة تجدهم باللعجب ينكمشون أمام أي موظف، حتي لو كان موظف قطاع خاص هو أصلا يتمني رضاهم وينظرون اليه باعتباره سلطة قادرة على العصف بهم، فيتنازلون طواعية عن أبسط حقوقهم لديه حتي أنهم يستحون من مواجهة الجرسون في المطعم لو كان الطعام سيئا خشية أن يظن أنهم "مش وش أماكن نضيفة".

عذرا لأنني لم أتحدث اليوم عن الفقراء وعذابهم الذي لا ينتهي، وتحدثت عن بعض حيرة وآلام المثقف الجريح!

الرحلة ٩٩٠.. على ضفاف المأساة

على الساحل الشرقي للولايات المتحدة حيث سقطت الطائرة المصرية واستقرت في قاع المحيط، كانت المأساة كاملة. واستمرت توابعها تترى على الساحل نفسه في متوالية حزينة بعد وصول أسر الضحايا إلى ولاية "رود أيلاند" حيث أقرب بقعة من مكان السقوط.

رغم كل شيء، فالمكان بديع، فندق "دويل ترى" مستقر العشاق ومأوى الحالمين بالحب والسكينة، تحوطه المياه من كل جانب، كما تضفي مزارع الورد على المكان سحراً وعبقاً. الإسم الرسمي للجزيرة هو "جزيرة الماعز"، أما سكان مدينة نيو بورت التي يفصلها عن جزيرتنا جسر يعلو المحيط، فيسمونها جزيرة الفردوس.

كان الفندق قد تم إخلاؤه تماماً من النزلاء بتعليمات قاطعة من البيت الأبيض، وتم تسكين أسر الضحايا بمساعدة مندوبي شركة الطيران ومؤسسة مساعدة أسر الضحايا. عقد أول مؤتمر يضم الثكالى والأرامل واليتامى الذين فقدوا ذويهم مع رئيس المجلس الأمريكي لسلامة النقل الجوي في وجود مندوبين عن البحرية الأمريكية. القاعة ضخمة جدا، ومن الواضح أنها أعدت على عجل لاستقبال هذا العدد الكبير من أهالي الضحايا سواء الذين وفدوا من أنحاء الولايات المتحدة، أو الذين حملتهم الطائرة من القاهرة. سماعات الترجمة الفورية متاحة للجميع، الصليب الأحمر موجود لتقديم المساعدة، وكذا العديد من الجمعيات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية. بعض التنافس الخفي لتأكيد الحضور يمكن ملاحظته، الشيوخ والقساوسة يحاولون تهدئة النفوس الملتاعة، المحامون الباحثون عن أفضل استثمار للكارثة يسعون لجمع التوكيلات، صرخة هنا ونحيب هناك، ونشيج مكتوم في كل مكان، حالة إغماء يهرع إليها رجال الإسعاف، صوت جرئ يسأل عن موعد العشاء! المشهد مأساوي بكل معنى الكلمة.

لافتة "ممنوع التدخين" واضحة للجميع شأن أي مكان عام بأمريكا، لكن من ذا الذي يجرؤ على تطبيق القانون بالقاعة الآن؟ كل ما فعلوه أنهم فصلوا أجهزة الإنذار بالحريق ونشروا طفايات السجائر بكل مكان لينقذوا الأرضية من الدمار.

ألمحه وسط الجمع يجلس متململاً على كرسيه، يقف ثم يجلس، ينهض ويسير خطوتين ثم يعاود الجلوس، يرفع رأسه لأعلى فأرى الزيغ في نظراته، أقترب منه حتى أواجهه، عيناه مجهدتان من طول البكاء، أسأله: هل أستطيع أن أساعدك؟ فيجيب: بل تستطع أن تتركني وشأني. قلت: هذا أسهل ما يمكنني القيام به ولكني أود مساعدتك. نظر إلى بعينيه المكدودتين في شك، ثم طلب مني أن أجلس بجانبه وأن أساعده إذا أمكن في الحصول على ملابس لأن جلبابه قد اتسخ،

وأخبرني أنه وصل إلى مطار القاهرة من بلدنه بعد أن علم بالكارثة غير مصدق أن أخاه الوحيد مات . ثم حدث كل شيء بسرعة ، تم تصويره واستخراج جواز سفر وتذكرة وتأشيرة ، ثم وجد نفسه داخل الطائرة مع حشد من أهالي الضحايا . . لأول مرة يركب طائرة في حياته ، نام في مقعده حتى أيقظوه وأخبروه أنه وصل أمريكا .

انقطع الحوار بيننا عند بدء المؤتمر وران على القاعة صمت عميق ، ثم بدأ السيد "جيم" بتقديم العزاء للحاضرين ثم شرع يشرح تفاصيل ما سجله الرادار ، ويشرح الإجراءات المتبعة في مثل هذه الحوادث ، ثم تناول مندوب البحرية الأمريكية الميكروفون وأخذ يعدد الصعوبات التي تعترض وصول سفينة البحث عن الحطام بسبب الأحوال الجوية الصعبة . ثم بدأت الأسئلة تنهال على المنصة من كل جانب عن فرصة وجود ناجين وانتشال الجثث وشهادات الوفاة وتحديد المسؤولية وصرف التعويضات . .

وسط هذا كله وجدت الرجل إلى جانبي يقوم من مقعده ويتجه نحو الميكروفون ثم يطرح سؤاله : لماذا نحن هنا . . هلا أخبرتموني عن سبب وجودي هنا بينكم؟ كانت الترجمة الفورية تتابعه ، ومن ثم جاءه الرد الآلي من المنصة يحمل التعزية والتعاطف والرغبة في تقديم المساعدة فقال : نعم ، نعم أنا أشكركم على كل هذا لكني بعد لم أفهم ماذا أفعل هنا ، أو ما هو المطلوب مني؟ إذا كان أخي قد مات فامنحوني جثمانه وشهادة الوفاة حتى أدفنه في "البلد" . . أنتم تقولون إن الجثث يصعب استخراجها الآن ، وشهادات الوفاة مرتبطة بوجود الجثمان ، وصرف التعويضات مرتبط بالإثنين ، فلماذا أحضرتموني إلى هنا وقد كان يمكنني أن أتفرج عليكم في التليفزيون . ثم تهدج صوته وغلبه البكاء ، فقام اليه بعض الرجال يهدئونه ويعيدونه إلى كرسيه ، ويبدو أن بكاءه قد نكأ المشاعر الملتهبة فانتشرت العدوى ولمعت العيون بالدموع . .

و هنا اندفع رجل أمريكي في منتصف العمر فقد أمه في الحادث كما عرفنا وأمسك بالميكروفون وبيده الأخرى بطحة خمر أخذ يعب منها وتساءل في استنكار غاضب : هل تريدون أن تقنعوني أن الولايات المتحدة بكل معداتها البحرية وامكاناتها التكنولوجية الهائلة تعجز عن انتشال الطائرة الغارقة وجثث الضحايا لمجرد أن أمواج البحر مرتفعة؟! إني أشم رائحة غير طيبة وأشعر أن لديكم ما تودون إخفاءه .

و مرة أخرى يأتي رد المنصة رسمياً ، حكومياً معلباً ، به من المواد الحافظة ما يجعلك تماماً تعجز عن ابتلاعه كما وصفه الرجل ثم واصل : أنا لا أصدقكم ولا أثق بكم ولن أستمع اليكم بعد الآن ، أنا ذاهب ومعي صديقي هذا – وأشار إلى صاحبنا ـ إلى مكان ليس به طبيخ فاسد وأخذ ذراع الرجل الذي قام اليه في سكينة وخرجا من القاعة .

بعد انتهاء المؤتمر الصحفي لمحت الرجل الأمريكي يجلس مع الفلاح المصري داخل البار يتبادلان حديثاً ضاحكاً، فلم أستطع أن أداري دهشتي. اقتربت منهما وسألت المصري: هل تعرف اللغة الإنجليزية؟ فأجابني: ولا حرف واحد، سألت الآخر: هل تعرف العربية؟ فكف عن الضحك وقال بجدية: ما لا تستطيع أن تفهمه تستطيع أن تحسه، ثم رفع كأسه لرفيقه وتبادلا الأنخاب. فتركتهما وانصرفت.

في الصباح التقيت صاحبنا المصري على الإفطار يجلس وحيداً، فجلست أفطر معه وسألته عن أحواله فأجابني: نمت نوماً عميقاً، ولم يبدأ الكابوس إلا حين استيقظت!

شعرت أنه قد أنس إلي فمضينا في جولة داخل ردهات الفندق حتى وصلنا للباب الخارجي، فرأيت مندوبي شبكات التليفزيون يقفون وكاميراتهم مصوبة في وجه كل من يطل برأسه خارج الباب، وتوجه الينا أحدهم محيياً وطلب أن نذلي بحديث، فاعتذرت له وهممت أن أمضي إلا أن صاحبنا أمسك ذراعي بقوة وأوقفني قائلاً: أنت لا تريد أن تتحدث اليه ولكني أريد، فسألته وقد أخذتني الدهشة: ماذا تريد أن تقول له؟ وكيف تراك ستحدثه؟ بالإشارة؟ أم تظنه مثل صديقك الفيلسوف المخمور سيحس بك دون أن تنطق؟ فانفعل بشدة مؤكداً أنه قادر على أن يقدم نفسه للمشاهدين بشكل طيب ويشرح لهم قضيته! فطلبت منه أن يشرح لي قضيته هذه أولاً. فأجابني: وما شأنك أنت يا متطفل.. مطلوب منك فقط أن تقوم بالترجمة.

و هنا انتبهت إلى أن عشرات الكاميرات تسجل ما يحدث بيننا، وقد التقطت حاستهم الصحفية أن هناك من يريد أن يتحدث، فمد أحدهم ميكروفونه وسأله عن اسمه، فأجاب: محمد. من أين أنت يا محمد؟ نقلت له السؤال فأجاب: من ميت أبو الليل، ثم استطرد موجهاً سؤاله للصحفي: وانت.. ما اسمك؟ نظر إلى الصحفي متسائلاً، فقلت له: يسألك عن اسمك. أجاب الصحفي: اسمي توماس أندرسون. من أين أنت يا توماس؟ وهنا لم أتمالك نفسي من الضحك وسألته: يا عم محمد، أنت الذي توجه الأسئلة! فرد بنفاذ صبر: دعني أتعرف اليه على طريقتي وكُف عن تمثيل دور الحكيم. حاضر يا سيدي. انه يسألك يا مستر توماس من أي بلد أنت؟ فابتسم وقال: أنا من مينيسوتا. وبشحنة من الود الصادق رد محمد قائلاً: "أجدع ناس" فكدت أقع على الأرض من الضحك، لكنه قال لي: لا تضحك.. ترجم.. فقلت له ماذا أترجم؟ أنا ماشي، فوجدته يتعلق بذراعي وكأنني صرت كل أمله في الحياة، وفي ضراعة استحلفني: لو كنت تحب النبي لا تتركني. لقد سألتني بالأمس إذا كنت أحتاج إلى مساعدة، فلا تخيب رجائي وترجم له كلامي.

اجتاحتني حزمة من المشاعر المتناقضة ما بين اشفاقي على الرجل من أن يصير أضحوكة وبين

رغبتي حقيقة في مساعدته . . ثم قررت أن أساعده فيما يريد وليكن ما يكون . يا مستر أندرسون انه يخبرك أن أهل ولايتك أناس طيبون! تجاوز الصحفي دهشته بسرعة وسأل ما قصتك يا مستر محمد؟ . أنا الأخ الأكبر لأربع فتيات ورجل واحد ابتلعه هذا البحر الذي أمامك، وابتلع معه أحلام الأسرة كلها . كان قرة عين والديه، متفوقا منذ الطفولة حتي أصبح مهندساً بشركة البترول، على عكسي أنا الذي لم أفلح في التعليم ولا في أي عمل . كان يتولى الإنفاق عليه جميعاً . . زوجته وأبناؤه وأمه حتي شقيقاته المتزوجات كلهم يعتمدون عليه، وأنا الرجل الطويل العريض هو الذي كان يعولني . فماذا أفعل الآن؟ إن أولاده سيقبضون مبلغ التأمين وهذا حقهم . ولكن ماذا عني أنا؟

أشرت اليه بالسكوت حتي ألاحق ترجمة ما قال لكنه لم يعرني التفاتاً واستمر :

لقد كنت بفضل علو شأنه أتجاسر على كل أهل البلدة، والأن سيدوسوني بسنابكهم . ثم أردف في رجاء : لكنكم طبعاً أهل مروءة، وبالتأكيد لن تقبلوا لي الهوان، كل ما أريده منكم أن تنقلوا رسالتي للرئيس كلينتون، أريد كشك سجاير أتعيش منه في بلدكم الطيب هذا، ولن أطلب منكم شيئا بعد ذلك . أنهي جملته هذه ثم لكزني في جنبي وقال لي : هيا . . ترجم .

تحريت الدقة قدر طاقتي في نقل كل ما قاله وأنهيت المهمة بسلام . قدم الصحفي لنا الشكر وشد على يد محمد الذي لم يتردد في معانقته وكأنه صديق قديم، ولم ينس أن يسأله عن موعد إذاعة اللقاء، فأخبره أنه سيذاع بعد ساعة في القناة المحلية وانصرف . استدار إلي وسألني : هل سيراني العالم كله في التليفزيون؟ قلت له : في الغالب نعم، قال : والرئيس كلينتون؟ قلت له : هيا اصعد إلى غرفتك لتشاهد اللقاء على الشاشة، وربما يراك الرئيس كلينتون . تركني وكل قسمات وجهه تنطق بالسعادة .

في الأيام التالية صار إنساناً آخر، كنت أراه مزهواً بنفسه يسير في خيلاء وكأنه أصبح من المشاهير . وكان يجلس معظم الوقت بالمطعم أو بالبار وحوله جمع من الأصدقاء مستمتعا بالطعام والشراب والصحبة، أو واقفاً وسط الكاميرات بالخارج يقص سيرته الذاتية، وقد استغنى عن خدماتي ووجد مترجماً آخر . وكان أحيانا يمر بي فيوصيني : إذا سأل عني أحد من التليفزيون فأنا بالمطعم ولن أتأخر!

ما زلت أسترجع تلك الأيام ومعها السؤال المؤلم : هل كان لا بد لهذا الرجل أن يفقد أخاه الوحيد حتي يحظي بهذه الإقامة الطيبة في أجمل بقعة، ويرتدي الملابس الجديدة، ويخالط أناساً من كل لون، ويحقق أحلامه في الشهرة الزائفة وهو الذي لم يغادر بلدته قط .

و هل كان أخوه كريماً معه حتي النهاية، فاستقر بقاع المحيط بهذه المنطقة ليمنحه أسبوعا مجانيا في جزيرة الورد؟

الوالي والفرنسيس

في أوائل الثمانينات عندما كان الأصدقاء والزملاء من خريجي كلية الإعلام وغيرهم يتجهون شرقا نحو الصحافة الخليجية كأحد أبواب الرزق . . إما مباشرة أو عن طريق مكتب مرسي للصحافة (و مرسي هذا كان أكبر سمسار "موضوعات") .

في ذلك الوقت قمت بحركة مضادة تصورتها فتحاً مبيناً عندما اتجهت بكليتي نحو الغرب والتقيت في تونس برئيس تحرير مجلة تصدر من مدينة "سوسة" فاتفقت معه على أن أصير مراسلهم من القاهرة، وعدت إلى مصر يتملكني نفس الإحساس الذي راود" ماجلان" وهو يشق طريقه إلى العالم الجديد.

شرعت في العمل بكل همة ولم أركن إلى الاستسهال أو الفبركة وإنما قدمت أفضل ما في استطاعتي . بعد عدة شهور كنت خلالها أتلقي الشكر كما أتلقي أعداد المجلة بانتظام، وجدت أنه من المناسب أن أسأل عن الراتب المتفق عليه والذي تركته يتراكم لديهم، فاعتذروا بأن اجراءات التحويل والسياسات النقدية للدولة تجعل المسألة تستغرق بعض الوقت قبل أن ينتظم التحويل !

استمر العمل واستمرت نفس الحجة . . بعدها وجدت أنه لا بد من وقفة مع الصديق . . امتنعت عن إرسال الشغل وطلبت تسوية الحساب أولاً، فأخبرني الأصدقاء في تونس أن الفلوس موجودة وأن بإمكاني أن أرسل من يقوم بتحصيلها أو أنتظر زيارة رئيس التحرير المرتقبة إلى القاهرة.

طال الإنتظار فوجدتني آخذ الطائرة وأهبط في تونس في زيارة مفاجئة لم أخبرهم عنها، ثم أخذت القطار إلى مدينة سوسة . . وصلت في المساء وأوصلني التاكسي إلى بناية عليها إسم المجلة، لكن أدهشني وجود جمع من الناس يجلسون على الرصيف ويدور بينهم حوار لم أفهم منه سوي اسم رئيس التحرير الذي كان يتردد على ألسنتهم مشفوعاً بالسباب! قمت بتحيتهم وقدمت لهم نفسي . . آه أنت إذن مراسلنا القار بالقاهرة؟ أهلاً وسهلاً . . ولكن من أدراك باجتماع الليلة؟ قلت لهم رويداً، هلا أفهمتموني ما الموضوع وأي اجتماع تتحدثون عنه؟ فهمت منهم أنهم لم يتقاضوا رواتبهم منذ عدة شهور وأن صاحب المجلة ورئيس تحريرها في نفس الوقت قد أغلق أبواب المكتب لما علم أنهم قد شكوه إلى الوالي وأنهم في طريقهم إلى لقائه بعد قليل، سألتهم لقاء من؟ قالوا: لقاء الوالي! سألتهم الوالي مين . . خورشيد باشا؟ قالوا: لا نفهم عم تتحدث. قلت: هل للوالي قلعة يتحصن بها في الجبل وأنتم ستصعدون اليه؟ ثم فهمت أن الوالي هو من نسميه في مصر . . المحافظ.

عندما اكتمل العدد توجهنا جميعا إلى مبني الولاية، ورأيت صاحب الجريدة الذي بهت لرؤياي لكنه عانقني وهو يتنحي بي هامساً: مالك أنت وهؤلاء الرعاع؟ إن موضوعك مختلف تماما عنهم.

أرجوك لا تحرجني مع الوالي . . في هذه الأثناء ظهر الوالي ودعانا جميعا للدخول إلى مكتبه ، وتـ حرص الزملاء على تقديمي اليه فحياني وأثنى على مصر وأبدي إعجابه بما يقرأه لي في مجلته فتلقفت الخيط وقلت له إن هذا الشغل الذي أعجبك لم أقبض ثمنه ، ولقد أتيت من مصر خصيصا للحصول على فلوسي بعد أن يئست من التحويل المزعوم الذي لا يجيء أبداً .

رأيت وجه الوالي يكتسي بالغضب وهو يضرب المائدة بقبضة يده ملوحاً للرجل الذي لـ يكتف بفضائحه المحلية ويريد أن تمتد الفضيحة إلى مصر . . قام صاحب المجلة بعمل مكالمة سريعة حضر بعدها رجل يحمل ظرفاً منتفخاً قدمه له فقام بدوره وسلمني الظرف أمام الوالي وقبل رأسي معتذراً عن التأخير ، وسرت همهمة بين المحررين عندما رأوا هذا القادم من مصر وحده يحصل على فلوسه دونهم ، واحتدم النقاش بينهم ، عند هذا الحد قمت فسلمت على الوالي وشكرت وحييت الجميع ، وانطلقت أغادر مبنى الولاية وأنا لا أصدق أنني ظفرت بمالي من فم الثعبان .

أخذت سيارة أجرة عائداً إلى تونس العاصمة وقضيت الليلة بأحد الفنادق . في الصباح قمت بجولة في أحياء المدينة وقد خطر لي أن أسأل عن إمكانية استبدال الدولارات بالنقد التونسي من البنوك ، ففوجئت باستحالة التغيير إلا إذا أتيتهم بما يفيد دخولي البلاد بهذه الدولارات . . أسقط في يدي ولم أدر ماذا أفعل بالدنانير التونسية التي لا تساوي شيئاً خارج تونس - هذا إن استطعت الخروج بها - وعرفت أنه ليس هناك حل سوي التغيير من السوق السوداء وهو أمر محفوف بالمخاطر وعقوبته رادعة .

قررت المغامرة وذهبت إلى السوق الذي ينتشر به تجار العملة فوجدته يشبه الموسكي واكتشفت أنهم لا يعرفون الدولار لكن يتعاملون في الفرنك الفرنسي ويسمونه الفرنسيس . . اقترب مني أحد الشباب وسألني في صوت خفيض : معك فرنسيس ؟ قلت : بل أنا الذي أريد فرنسيس ، نظر حوله ثم قال : تعال معي . تبعته حتي توقف بجوار موتوسيكل وأشار إلى أن أركب وراءه ، ترددت قليلا ثم ركبت وراءه فانطلق يلف ويدور لمدة نصف ساعة حتي استقر في النهاية عند زقاق مسدود ووقف بآلته البخارية ونزل ثم طلب مني الفلوس فلم أملك سوى أن أقدمها له . فقال : انتظرني دقيقة واحدة .

صعد إلى بيت متهالك وبقيت في انتظاره . . الدقيقة الواحدة امتدت وصارت ساعة ، ثم ساعتين ثم انهارت اعصابي فوجدتني أندفع إلى البيت الذي دخله الشاب أطرق الأبواب بعنف وأنا أنادي عليه ، غير أن البيت كان مهجورا ولمحت سلماً آخر يفضي إلى الشارع الخلفي فأدركت أنه اختفي واختفت معه فلوسي التي ظللت أعمل بها سنة بأكملها .

عدت إلى مصر وقد حزمت أمري ألا أعمل ثانية بالصحافة . . تلك المهنة العجيبة التي تضطرني في مصر إلى أن أشتغل عند مرسي ، وتضطرني خارج مصر إلى طرق أبواب الوالي والتعامل مع تجار الفرنسيس !

العلم.. حين يُكيل بالبتنجان!

لم يكن صلاح جاهين وحده الذي حلم بصناعة كبري، ملاعب خضرا، تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا في كل قرية عربيه. أنا أيضا عشت هذه الأحلام، وسرحت مع التصورات والأخيلة التي رأيت فيها مصر مكانا جميلا يرعى العدالة والحرية والمساواة. وعششت في رأسي صورة الوطن الذي يمنح أبناءه الكرامة فيمنحونه الحب والولاء. صحيح أن الأيام تكفلت بإجهاض كل هذه الأحلام عندما اندفع الوطن بعيدا عن سكة الجنة الخضراء ومضى عاقدا العزم على أن يكون في النهاية مكبًا للنفايات!، إلا أنني وطوال زمن تدحرج الوطن من أعلى التل ظللت مقتنعا بأن عشاق هذا الوطن بإمكانهم إبطاء التدحرج ومن ثم إيقافه حتى يأتي الله بقوم خير منا في جيل آخر ثم لا يكونوا أمثالنا!

و كنت أعتقد دائما أن التعليم هو البوابة الرئيسة لصيانة الأمن القومي بمعناه الحقيقي، وأن بإمكانه إن صح أن يهدي للوطن إنسانا عالما ومنتميا في آن. لهذا فقد كنت أنفر من المدارس الأجنبية التي تدرس كل العلوم بالانجليزية والفرنسية وتسلخ التلامذة منذ الصغر عن هويتهم وتلحقهم فكريا ووجدانيا بثقافة أوروبية تمجد الغرب وتراه النموذج والمثل، وتقلل من شأن اللغة العربية والهوية الحضارية للعرب والمسلمين.

و كان ماثلا في ذهني دائما ما فعله تلامذة المدارس الأجنبية في مصر عندما قرر عبد الناصر عقب العدوان الثلاثي أن يضع المدارس الفرنسية والانجليزية تحت إشراف الدولة، فقام التلامذة وأهاليهم والمدرسون بالتهديد بالاعتصام وأمطروا رئاسة الجمهورية برسائل الرفض والاعتراض (كما ورد في كتاب مصر ولع فرنسي) تأليف روبير سوليه، وبما يعني أن حبهم وولاءهم لأوطان أصحاب المدارس أكبر بكثير مما يحملوه لمصر.

و كانت كتابات ومواقف رجال كبار أمثال الدكتور حامد عمار والأستاذ فهمي هويدي تمنحني الثقة في صحة ما أعتقد، إذ ما فتئوا يدقون أجراس الخطر محذرين ومنذرين من أن انتشار مدارس اللغات التي تدرس للأطفال المواد التعليمية باللغات الاجنبية منذ الحضانة يشكل خطرا على الهوية، خاصة بعد أن ازدهر بيزنس التعليم واتجه كثير من أصحاب رأس المال لإنشاء مدارس للغات ثم قاموا باستقدام خواجات من الخارج للتدريس معظمهم لم يُدرّس في بلده أبدا.. المهم أنه خواجا ويعرف القراءة والكتابة حتى لو كان في بلده يعمل إسكافياً!

و لإثبات أنني لست ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وللتدليل على أن الايمان بهذه الأفكار ليس موقفا حنجوريا للتصدير الخارجي في الجلسات مع الأصدقاء أو على صفحات الصحف فقط، فقد فاجأت الأهل والأصدقاء عندما قمت بإلحاق أولادي بمدارس عربي تدرس كل العلوم باللغة العربية ما عدا مادة اللغة الانجليزية، فاتهموني بالسفه والجنون واعتبروني خطرا

علـى أولادي . . لأن الحياة لم تعـد تحـتمل مثل هذا الهراء المسمي بالهوية أو الانتماء ، وأن سوق العمـل لم يعـد يعـترف الا بخريجي مـدارس اللغـات ، وحاولـوا إقناعـي بـأن أبنائـي أنفسهم لن يسامحوني عندما يكبروا على ما فعلته بهم خاصة وأنا لا أشكو العوز أو العجز المادي .

قلـت لهـم : انا تخرجت من مدارس عربي ولم يمنعني هذا من تعلم الانجليزية والفرنسية أفضـل مـن كـل خريجي مدارس اللغات ، وانا أريد لأبنائي أن يتعلموا لغات أجنبية لا أن يتعلموا باللغات الأجنبية والفـرق كـبير . واجهونـي بـأنني فعلـت هذا في غفلة من الزمن ، وأن الزمن لم يعد غافلا الأن ! كانـت المعارضـة حـادة وجارفـة حـتي أنـني بـدأت أتـساءل بيني وبين نفسي عن صحة ما أعـتقده ، ولم يؤيدني فيما ذهبت اليه سوي صديقي الأديب الدكتور محمد المخزنجي الذي أخبرني أنـه فعـل الـشئ نفـسه وألحق ولديه بالتعليم العربي لأنه يؤمن أن مدارس اللغات لا تقدم للتلاميذ سـوي الرطانة واللكنة الأجنبية لكنها لم تمنحنا أبدا مترجما عظيما يفهم أسرار اللغة ويسبر أغوارها ويـصلنا بالإبـداع الفكـري للغـرب . ولقـد استرحت كثيرا إلى هذا الرأي وكنت أحتاج لأن أشعر بأنني لست وحيداً .

ولكن تمضي الأيام لتكشف لي أن أولادي يذهبون إلى المدرسة ويعودون دون أن يتعلموا شيئا . وأن مـستواهم في اللغـة العربية متواضع للغاية رغم أنهم يدرسون كل المواد بها ، وأنهم لا يفقهون شيئا في اللغـة الانجليـزية رغـم أنهـم يدرسونها ، وبدأت أعي أن المشكلة ليست في تعليم عربي أو تعلـيم أفرنجـي . . المـشكلة أن الدولـة غـير موجـودة ، وأن مسألة المفاضلة بين تعليم وتعليم أو بين أسلوب وأسلوب يمكن أن تنشأ فقط عندما تكون هناك دولة وهناك مسؤولين وهناك مدرس مؤهل لديه ما يقدمه للتلاميذ ، أما عندما يكون مدرس اللغة العربية ضعيفا في اللغة العربية فما الفائدة من الذهاب للمدرسة غير تنشيط الجهل والعودة به للبيت !ب

وقد حمدت الله كثيرا أن أنقذ أولادي من جنون أبيهم الحالم عندما انتقلنا للحياة في كندا وعشنا هـناك لمـدة خمـس سـنوات كانت كفيلة بفتح صفحة جديدة ونظيفة مع الحياة ومع التعليم ، فتعلموا اللغة الانجليزية وأتقنوها ، وعندما رجعنا إلى مصر ألحقتهم بالمدارس الانجليزية التي بالرغم من كل مساوئها المستمدة من كونها تعمل في مصر ! إلا أنها تمنحهم شهادات يعترف بها العالم .

أمـا مـسألة الهوية والإنتماء فمن الواضح أنني فكرت فيهما وفي ذهني أساتذتي الذين علموني في مدرسـة غمـرة الاعداديـة ومدرسـة الأهرام الثانوية ، ولم أنتبه إلى أنهم قد رحلوا من زمان ، وأن مدرسـي هـذه الأيام هم النسخة المدرسية من سعد الصغير وبعرور وشعبان عبد الرحيم ، ولم أنتبه كـذلك إلى أن الـنموذج الـذي حلمـت بـه يقتـضي شـروطا موضوعية غير جاهزة ، وأنني سأكون ضـحية مـؤكدة في حالـة اصـراري علـى أن أكـون أبـاً محترمـا لأبناء وطنيين في وطن " موكوس ! " وليـسامحني الدكتـور حامـد عمـار والأسـتاذ فهمـي هـويدي وكـل المفكرين الوطنيين الذين منهم تعلمت حب الوطن وتعلمت لبس الطربوش . . . بعد أن تم إلغاؤه !

العمل تحت قاسة شمهورش!

منذ حوالي عشرين سنة كنت أقوم بعمل موضوع صحفي مع سيدة مشهورة كانت تزعم اتصالها بالجن وقدرتها على الإتيان بالخوارق بمساعدة أصدقائها . . شمهورش وأعوانه .

في منزلها الفخم كان اللقاء ، بدت شديدة الأناقة والثقة بالنفس ، ومن أول لحظة سعت إلى محاولة ابهاري وإدخال الروع في نفسي حتي يسهل عليها إحكام السيطرة على الحوار وقيادته في الاتجاه الذي ترغب ، وبالتالي تحصل على دعاية مجانية بعد أن يتحول الصحفي المنبهر إلى واحد من المريدين المستعدين للقسم على أنها صاحبة خوارق وكرامات . لم يكن هناك بيننا سابق معرفة ومع هذا فقد فاجأتني بقولها : حسناً فعلت أنك قمت بتغيير " سير الكاتينة " لسيارتك اليوم . . كانت المعلومة حقيقية ولا يعرفها سواي والميكانيكي ، ومع هذا فقد تلقيت عبارتها في برود ولم يبدُ على أي اندهاش . ومرة أخري قدمت لي زجاجة مياه غازية قائلة : لقد أحضرتها لك من الصندوق لعلمي أنك لا تشربها ساقعة . . وعلي الرغم من استغرابي الداخلي فإنني حرمتها من السعادة والزهو ولم أسألها : كيف عرفت؟ ومن أخبرك؟ واكتفيت بأن شكرتها في حياد .

بدأت تسرد لي رحلتها مع الخوارق وبداية اكتشافها قدرات غير عادية في نفسها منذ الطفولة ، وكيف كان يستعين بها الجيران في العثور على القطة الضائعة أو فردة الحلق المسروقة أو معرفة حرامي الغسيل ، ثم واصلت الحكي حتي وصلت إلى قصة التقائها المتأخر بشمهورش ملك الجن . . وهنا لم استطع كتم الضحك وأنا أقول لها ان التقاءها بشمهورش بعد كل هذه السنين هو بمثابة لقاء السحاب مثلما اجتمعت السيدة أم كلثوم بالموسيقار عبد الوهاب في أغنية انت عمري! . وقد كانت ملحوظتي هذه كافية لرفع درجة الحنق عندها فتوقفت عن الاسترسال وقالت : من الواضح أنك تستخف بكلامي ولا يبدو أنك تصدق أو تتجاوب مع ما أقول . فبادرت معتذرا : أنا لا أستخف على الاطلاق لكن اعذريني فأحياناً القافية تحكم . . ومع هذا فتأكدي أنني سأنقل عنك للقراء بمنتهي الأمانة .

قالت : لن تستطيع أن تنقل عني إذا لم تكن مؤمناً بكلامي ومصدقاً له ثم أردفت : ولعلمك فإن سخريتك هذه من الممكن أن تكلفك الكثير لأن من تتهكم عليهم قادرون على إيذائك . قلت لها : لا أرجوك . . حوشي عني شمهورش أنا مش قده . قالت : ما زلت تسخر؟ قلت جادا : أنا لا أسخر أنا فقط في دهشة من أمرك أنت والأخ شمهورش وأمثالكما . . أليست لديكم القدرة على اقناع الناس بقدراتكم إلا من خلال تخويفهم وإلحاق الأذي بهم؟ . قالت : ماذا تقصد؟ قلت : أليس بإمكانك أن تحمليني على التصديق من خلال أن تحققي لي أحلامي مثلاً أو من خلال حل

مشاكل الوطن؟ لماذا لا تقومون بإطعام الفقراء وحل مشاكلهم في الاسكان والمياه والصرف الصحي؟ لماذا لا يتدخل شمهورش في إعادة حق الفلسطينيين في أرضهم المحتلة وحمل اسرائيل على الانسحاب . . ثم انطلقت مضيفاً : أنا لا أنكر وجود بعض الناس ممن حباهم الله قدرات تعلو على غيرهم في رؤية أشياء أو كشف غوامض أو الإتيان بغير المألوف . لكن هذا في النهاية لا يعني شيئا بالنسبة لي حتي وإن صح ، وأصدقاؤك من الجن الأحمر أو أيا كان لونه ما الذي نستفيده لو أنهم جعلوك تستطيعين المشي فوق الماء مثلاً؟ لماذا لا تجعلوننا نعترف بسلطانكم ونقر بصلاحياتكم من خلال أشياء نافعة بدلاً من الهراء والأذى؟

رغم انقضاء سنين طويلة على هذا الحوار فقد ظل ماثلا في ذهني دائما ، خاصة وأنا أرى الحافز السلبي هو السبيل لحمل الناس على الانصياع والخضوع ، وأشاهد السادة في مواقع الإدارة والمسؤولية لا يملكون من وسائل الإقناع بحيثيتهم وقدرتهم وهيبتهم غير الحاق الأذي بالعاملين أو التهديد بهذا الأذي . ويبدو أن الجهاز الحكومي أصبح لا يضم سوي رؤساء صوريين منزوعي الصلاحية لا يملكون من مظاهر السيادة سوي القدرة على البطش والتنكيل ، أما القدرة على المكافأة والتحفيز الايجابي فخارج صلاحياتهم!

و من الواضح أن الفساد الطافح في الجهاز الإداري للدولة قد جعل الكثيرين يدركون أن الاجتهاد في العمل يحمل مخاطر التهميش وضياع المستقبل . لذلك تجد المسؤولين يفزعون من وجود صلاحيات في أيديهم ويبادرون إلى التنازل عنها طواعية لرؤسائهم الأعلي ويكتفون بالحصول على مزايا الوظيفة دون أعبائها ، وهؤلاء بدورهم يقومون بالشيء نفسه وهكذا . . حتي تجد أتفه الأشياء تصل إلى الوزير وتحتاج لتوقيعه ، والمأساة أن هذا بدوره لا يقل عنهم ذعراً ويكتفي بلهط الشنطة فقط والقيام بدور السكرتير المطيع!

و من الطبيعي والأمر هكذا أن تفقد احترامك لهم وأن تستخف بهم . . ولكن هنا بالضبط يأتي دور شمهورش القابع داخل كل منهم . . يبرز اليك شمهورش ليعيدك إلى حظيرة الطاعة ويذكرك بأنه وإن كان عاجزاً عن مكافأتك وتقديم نفسه لك كمثل أعلي ، فإنه قادر على ايذائك وتكدير حياتك وجعلك تمشي تكلم نفسك!

كاوتشا والأنتيخ

مـن المعـروف لكـل مـن قـضي فـترة مـن حياته خارج مصر أن الامتحانات التي تُعقد للطلاب المصريين تحت اسم "ابناؤنا في الخارج" هي في الأغلب الأعم امتحانات مزورة . . مثل الانتخابات الـتي يعقـدها أبنـاؤنا في الـداخل لمجلس الشعب والشوري وخلافه . و لا تنشأ عادة أي مشكلات نتيجة تزوير الامتحانات وجلوس أولياء الأمور مع ابنائهم وقيامهم بالكتابة بأنفسهم وحل الامتحان بأكمله ، كمـا لا تنشأ أي مشاكل عندما يجلب الأب أصدقاءه المتميزين ليساعدونه في المـواد الـتي يعجز عن حلها بمفرده حتي لا تكون الدرجات النهائية في كل المواد محل شك . أيضا لا تكون هناك اية مشكلة في أن يكون توزيع أوراق الاسئلة والاجابة حسب الطلب وطبقا لرغبة الأب الممتحن ، ولا أن يمتد زمن الامتحان حتي ينتهي الجميع مهما طال الأمد .

و رغم كل هذا فقد حدثت المشكلة . .

حـدثت لأن الاسـتاذ الدكـتور رئـيس المكـتب الثقافي والتعليمي المسؤول عن الامتحانات التي تعقد بمقر مكتبه لم يكن على ما يرام ، كان مزاجه متعكرا لمروره بظروف صعبة ، فخلافه الاخير مع سـيادة الـسفير كان مدويا ، وصلت تفاصيله لأعضاء الجالية ، وكان أكثر ما ضايقه معرفته بأن طلبة الدراسات العليا المصريون يطلقون عليه إسم : الأنتيخ . وان الذي نقل اليه هذه المعلومة هو السفير نفسه أثناء قـيامه بالتحقيق معـه ، وأثـار حنقه عدم قدرته على ان يخبر السفير بأن الجالية المصرية تسميه هو الاخر : السفير كاوتشا .

أمـا سـبب الخـلاف بيـنهما فبـسيط . . الـسكرتيرة العربية الحسناء التي تعمل لدي الأنتيخ _ وله فـيها مـآرب أخرى _ كان الأخ كاوتشا يطمع في أن يتم تداولها بينهما من باب الأخوية والجدعنة ، غـير أن الأنتـيخ أكل وحده حتي بشم ، مما أحنق عليه سيادة السفير وجعله يدبر مع أصدقائه خطة تم بمقتضاها شـراء ذمـة الـسكرتيرة أو مـا تبقـي منها ، فقامت بتسجيل مكالمات الغرام بينها وبين رئيـسها ثـم رفعـت دعـوي تحرش ضد الأنتيخ العاشق وأرسلت صورة من الدعوي لسيادة السفير حتي يري شأنا في مرؤوسه الذي وعدها بالزواج ولم يف بالوعد .

أقـام الـسفير الدنيا وأقعـدها أسفا على الأخلاق المهدرة وكرامة الوظيفة التي انتُهكت وسمعة مـصر الـتي تمـرغت في التراب . وصل الموضوع لمصر وتم تكليف السفير باجراء تحقيق . ولم يتردد كاوتـشا في أن يذيـع الموضـوع بتفاصـيله علـى الجالـية المـصرية حرصـا مـنه علـى البيروسـترويكا والجلاسنوسـت ، وتوقـع الجمـيع أن يعـود الأنتيخ إلى مصر بفضيحة ولا يكمل مدته ، إلا أن مصر التي دائما ما ترتفع فوق الجراح وتسمو على ألمها الشخصي لم تفعل مع الرجل أي شئ . ليس لأنه واصـل لفـوق ولكـن لأنهـا أمـنا الـتي تحمـي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، وأحيانا . . تستلف ولا تسدد .

لم ينس الأنتـيخ الإهانـة ، وواتـته الفرصـة للإنـتقام عندما أقبلت الامتحانات التي تعقد تحت

اشرافه، وهي كما ذكرنا امتحانات صورية يجلس فيها الأب والأم والأبناء يفترشون الأرض ومعهم السندونشات والبوسفندي وترموس الشاي كأنهم في القناطر يوم العيد. السيد السفير لا ولدين يدخلان الامتحان هذا العام، لذا فقد قرر الدكتور أنتيخ أن يعيد البراءة والنزاهة إلى الامتحانات ويمنع كل اشكال الغش، ويحظر دخول أولياء الأمور إلى اللجنة وأن تكون امتحانات حقيقية مثل التي كانت تعقد في مصر زمان أيام داحس والغبراء، فلما ثار الناس عليه قال لهم أن شيخ الجامع أخبره أن الغش في الامتحانات حرام وهو لن يرتكب هذه المعصية. إستدعاه السفير إلى مكتبه يستوضح منه الأمر فأصر على موقفه، فلما عنفه السفير وحاول تهديده أطلق صيحة مدوية في جنبات السفارة: أتحاربون رجلا يقول ربي الله؟ ثم انصرف غاضبا.

عقد كاوتشا مجلسا ضم موظفي السفارة وأعضاء الجالية الذين ينوي الدكتور انتيخ التنكيل بأبنائهم الذين يجهل معظمهم الكتابة باللغة العربية. جلسوا ليتدارسوا الموقف، اتفقوا على أن يذهب وفد منهم إلى الرجل لمحاولة إثناءه عن موقفه. قابلوه وتحدثوا اليه لكنه لم يتزحزح. أخبروه بأنهم يعرفون برغبته في تأديب كاوتشا لكنهم وابناءهم ليس لهم ذنب في هذا الصراع وبأن معنى إجراء امتحانات نزيهة هو أن يرسب أبناءهم جميعا، فنصحهم بأن يستغفروا الله ولا يربوا اولادهم على الغش والتزوير.

وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود والامتحان يبدأ غدا، تم الانتقال إلى الخطة البديلة. . في الصباح تجمهر الاباء والابناء في مدخل البناية وعندما نزل اليهم الدكتور استقبلوه بوابل من الشتائم وخلعت إمرأة حانقة شبشبها وطاردته، ففر هاربا. . إنتحى أحد المتمردين جانبا وقام بإتصال تليفوني: كله تمام يا افندم. حضر السفير بسرعة لانقاذ الموقف المتدهور وقام بإلغاء الامتحان الذي كان قد بدأ بالفعل بوجود عدد قليل من التلاميذ.

دارت اتصالات محمومة بمصر. . السفير يشرح للمسؤولين أن الأنتيخ يريد أن ينفرد بالتلاميذ دون أولياء أمورهم وهو رجل له تاريخ في التحرش. لذلك فقد كان عليه أن يوقف المهزلة. والدكتور يشرح للمسؤولين أن كاوتشا له أبناء يريد انجاحهم بالغش لذلك يرفض الامتحانات النزيهة. قامت مصر بإيفاد مبعوثة رفيعة المستوى قامت بنقل الامتحانات من المكتب التعليمي لتعقد بمقر السفارة وفي حضن السفير كاوتشا.

أوضحت سيادتها بأن الوضع في مصر لا يحتمل هذا العبث وعليهم ان يرتفعوا لمستوى الموقف، وقامت بنفسها بتوزيع البونبون والشوكولاتة على ابنائها التلاميذ، وجلست بجانبهم على الأرض وساعدت أولياء الأمور في نقل الكتب الخارجية بين بعضهم البعض حتى يسهل استخراج الاجابات النموذجية، ثم عادت إلى مصر بعد أن اطمأنت على ابنائها وبناتها زهور الوطن وأمل المستقبل.

ملحوظة: بعد أنتهاء مدته بالخارج وعودته إلى الوطن تقلد كاوتشا منصبا كبيرا، كذلك الأنتيخ تمت مكافأته بمنصب محترم، ذلك لأن مصر أبداً لا تنسى أبناءها. . . السفلة!

الرجل الفاشنكاح

منذ عدة سنوات دُعيت وصديق لي للقاء مسؤول خليجي يشغل منصبا كبيرا، ولما كنا لم نلتق به من قبل ولا نعرف شكله عن قرب، فقد هالتنا الصورة المفزعة التي رأيناه عليها. عندما ولجنا من باب الحجرة بالقصر الكبير في صحبة السيد الوكيل رأينا رجلا ضخم الجثة مترامي الأطراف بجلس مضطجعا على أريكة تحوطها الوسائد، ولهول حجمه وثقل حركته لم يستطع أن ينهض، فصافحنا تقريبا من الوضع نائما. إنطلق سيادته يتحدث بعفوية في موضوعات شتي، ولم يكن جهله وتواضع مداركه مما يمكن إخفاءه، وإن كنت لا أنكر انه رغم بداوته كان خفيف الدم. وفجأة حدث ما أذهلنا وجعلنا نجمد في مقاعدنا من الخوف. إذ سقطت رأس الرجل وتدلت فوق صدره فتصورنا أنه مات، لكن علو شخيره منحنا طمأنينة بأنه في غفوة ليس إلا. أشار إلينا الوكيل بيده ألا نقلق ولا نحدث صوتا. وكما غفا فجأة عاد الرجل ورفع رأسه بدون مقدمات واستمر في الحديث من حيث إنقطع الإرسال. تكررت نوبات النوم الفجائي خمس مرات خلال ٤٠ دقيقة قضيناها بصحبة هذا الرجل الذي علمنا انه بالكاد يفك الخط وعلمنا أيضا أن كسله وبلادته مضرب الأمثال في بلاده، ومن ثم وعلي سبيل الهزار فقد أطلقنا عليه إسم " الرجل الفاشنكاح "، ومن الغريب أن هذا الإسم الهزلي قد شاع في المدينة لدرجة أصابتنا بالقلق!

ما الذي ذكرني بكل هذا الآن؟ ذكرني به أنني طالعت صورة هذا الرجل على شاشة قناة خليجية هذا الأسبوع في إحدي نوبات يقظته القليلة. رأيت الرجل الفاشنكاح يحمل على عمرو موسي بضراوة ويسبه سبا عنيفا على نحو غير معتاد في الأعراف الدبلوماسية، والمناسبة هي أن الأمين العام لجامعة الدول العربية قد بعث برسالة إلى السادة أعضاء مجلس التعاون الخليجي لفت نظرهم فيها إلى أن الخطر الكبير الذي يتهدد العرب هو البرنامج النووي الإسرائيلي وليس البرنامج النووي الإيراني الذي يركزون جهدهم لإدانته.

ما كادت رسالته تصل حتي تلقي الرجل الرد على الرسالة في أعنف صورة. علق بعض المسؤولين الخليجيين بأن عمرو موسي " كمواطن مصري " يمكن فهم تخاوفه من أسلحة اسرائيل النووية، لكننا في الخليج نخشي الخطر الايراني ولا تشغلنا اسرائيل!. وعلق البعض الأخر بأن رسالة موسي تتسم بالوقاحة ودعا إلى تلقينه درسا في الأدب، أما الرجل الفاشنكاح فقد عبر كل الحواجز وتجاوز كل الحدود ووجه لعمرو موسي إهانات شديدة السفالة.

لا أستطيع القول بأن إهانة عمرو موسي قد أزعجتني، فهذا الأمر لا يعنيني، وعمرو موسي نفسه لم ينزعج أبدا من إهانة المصريين في كل الدول العربية عندما كان وزيرا الخارجية مصر، لكن

ما أثار دهشتي هو هذا المنحى الجديد في علاقة المسؤولين العرب بنظرائهم المصريين . لقد كنت أظن دائما أن السادة العرب حكاما ومحكومين يستطيعون توجيه كل أنواع الإهانات لأفراد الشعب المصري داخل مصر وخارجها ويستطيعون التعدي على حقوق المصريين واستغلالهم وسرقة عرقهم بل وحتي قتلهم في الشوارع بالسيارات المنفلتة وهم بمأمن من أي عقاب، وكنت أظن أن هذا يحدث تنفيذا لبنود عقد غير مكتوب بين المسؤولين المصريين ونظرائهم العرب يتم بمقتضاه استباحة شعب مصر وانتهاكه مع عدم المساس أبدا بالمسؤولين المصريين باعتبارهم المصريون الوحيدون الذين لديهم كرامة يتعين حفظها.

لهذا فقد أدهشني الحملة البذيئة ضد عمرو موسي . . وكان مما قالوه انه مجرد موظف عندهم. يتقاضي مرتبه من أموالهم وبالتالي لا يحق له أن ينطق إلا بما يقررونه هم.

و الأمر الملحوظ أن حملة البذاءة تناولت الرجل بحسبانه مواطنا مصريا . . فهل يعني هذا بداية مرحلة جديدة لم يعد "الإخوة" العرب فيها يعبأون حتي بتنفيذ بنود العقد الجائر بإمكانية إهانة المصريين البسطاء فقط، وانتقلوا لإجتياح كل ما هو مصري مستفيدين من خفة موازين مصر الحالية وإنعدام تأثيرها وعدم قدرتها على أي رد فعل بعد أن أصبح وزنها وقيمتها بين الدول صفرا؟!

عادت بي الذاكرة إلى مجموعة حوادث وقعت ضد المصريين وعصرت قلب مصر من الحسرة. تذكرت الطبيب المصري الذي تم اغتصاب ابنه في السعودية ولم ينصفه أحد بل وتم إيداعه السجن لأنه جأر بالشكوي. . حينها بدت الخارجية المصرية عاجزة عن فعل أي شيء، وتذكرت أحداث خيطان في الكويت عندما تم التنكيل بالصعايدة المصريين ولم نستطع إعادتهم إلى الوطن أو صيانة حقوقهم في الغربة . . وأعطتهم الخارجية المصرية ظهرها، وتذكرت النعوش التي كانت تعود من العراق يوميا تحمل جثث المصريين أيام شهر العسل مع نظام صدّام، وحينها اكتفت الخارجية المصرية باستخراج شهادات الوفاة!

و تذكرت لاعب الكرة الجزائري الذي فقأ عين مواطن مصري في القاهرة وعاد إلى بلده في اليوم التالي، وغيرها عشرات الحوادث التي تم فيها دهس كرامة المصريين وأغلبها للدهشة حدثت عندما كان عمرو موسي وزيرا للخارجية، ثم تدور الأيام ويتلقي عمرو موسي شتائم من بعض "الأشقاء" الذين يتم تحريكهم بالزمبلك وعلي رأسهم صديقي الرجل الفاشنكاح . . فاللهم لا شماتة.

الحب والوقت..من يقتل من؟

يقولوا الحب بيقتل الوقت، بيقولوا الوقت بيقتل الحب، يا حبيبي تعا تا نروح.. قبل الوقت وقبل الحب. هكذا حدثتنا فيروز وأخبرتنا بالحدوتة.

كتب في مذكراته:

عزيزتي ندى.. المرات التي التقينا فيها قليلة، وتاريخي معك قصير. وعلاقتنا كلها عبارة عن أربعة لقاءات فقط..

في المرة الأولى جمع بيننا حوار عابر في مكتبة الديوان ثم استكملناه في المحل المجاور. هل تذكرين؟ جلسنا نشرب القهوة وأدهشني أنك فتحت قلبك وتحدثت إلى بصدق نادر. كنت أخشى أن تفضحني عيناي حيث احببتك في صمت منذ استمعت اليك تعزفين في تلك الليلة الشتوية في بيت صديقنا المشترك.. الفنان التشكيلي.. لم أشأ أن أطلعك على ما اعتراني وفضلت أن أحتفظ به لنفسي على أمل أن تتكفل الأيام بتذويبه كما تفعل دائما!

و لكن ها أنت تجلسين أمامي تروين لي فصولاً من حياتك، وإذا بالأمور تندفع في إتجاه لم أحسب له. حدثتيني عن ندي الإنسانة.. التي لا يعرفها أحد. تعود من العمل إلى وحدتها القاتلة داخل الشقة المتوقعة الإختيارية. عرفت منك ان طاقتك الشعورية قد تحولت نحو العمل لأن الحب الحقيقي لا يأتي.. طفرت من عينيك الدموع بينما تحكين عن ملابس الأطفال التي تغزلينها وينقصها فقط.. وجود الأطفال.

قلت لي: هل تعرف أن كل نجاح أصيبه يشعرني بالأسى بدلا من أن يفرحني، وحتى عندما أنظر للمستقبل لا أري نفسي فيه إلا وحيدة. ما زلت أتذكر أسئلتك الحيري: ما فائدة الجمال، وما جدوي الذكاء؟ ما قيمة شخصيتي التي تجذب الناس إلى مع أنها لم تمثل لي سوى لعنة دائمة، الرجال يقتربون وعندما يكتشفون أنني مستقلة ماديا ولا أدعي السذاجة والأهم.. لا أكذب، لا يستطيع أحدهم أن يصمد في خطوبة تفضي للزواج.

أدهشني أنك لم تخجلي من الاعتراف بزيارتك للطبيب النفسي في محاولة لإعادة التوازن إلى نفس مبعثرة. هل تعرفي أنك عصفت بي عندما قلت أنك تحدقين في المراة عندما تشتد بك الوحدة حتى تتعرفي على شكل العذاب! قلت أنك مستعدة أن تتركي الدنيا كلها وتنضوي تحت جناح رجل حقيقي يحترم ضعفك ويحنو عليه ولا يضيف منه إلى رصيد عظمته الزائفة.

عندما ألقيت بأحمالك على أعتابي سمعت نفسي أقول لك: أحبك وأتمنى أن أقضي العمر معك.. أحب الأطفال مثلك وأريد أن أصير أباً، أحلم برفقة إنسانة ذكية ومتفوقة وحنونة. ما زلت أتذكر دهشتك وارتباكك والتماع عينيك ببريق الفرحة.

في اليوم التالي التقيتك في مطعم "برستيج" ، كنت في غاية الروعة ، ورغم الحيرة البادية كان وجهك رائقا ينطق بالسعادة . كنا لا نزال تحت تأثير مفاجأة الأمس ، ورأيتك تنهضين لفتح بابك بعد أن سمعت طرقاتي عليه ، وارتفعت توقعاتي من الدنيا لتصل عنان السماء حين فاجأتني بقولك : هل تعرف أن ما قربني منك هو أن لك موسيقى داخلية هامسة مضبوطة على موجتي؟ ومع ذلك فقد أخافني سؤالك : أيدوم لنا بستان الزهر؟

في اللقاء الثالث على النيل كان الأمر مختلفاً . ظلال الفرحة التي رأيتها قبل أيام رحلت . . بقيت الحيرة وأضيف اليها القلق والتوتر ، وبدا لي أن رغبة في المقاومة قد حلت محل الرغبة في المضي نحو السعادة . كنت تصمتين كثيراً وتشردين بعيداً ، ولم يفلح إجتهادك ادعاء المرح في أن يخفي حقيقة أنك تتألمين .

في اللقاء الرابع كان التدهور قد بلغ مداه . ذهبت اليك في الأقصر حيث كنت تعزفين في حفلة رجال الأعمال التي أقامها لأصدقائه بين الآثار . عندما طلبت حضوري أحسست أنك تستنجدين بي . يومها لم تكن ملاحظتي بشأن رجل الأعمال الذي يأتون له بالفيليه المشوي والأرز بالخلطة والموسيقيين الموهوبين في صحن واحد . . لم تكن هي ما أغضبك . . كنت غاضبة من الحياة ذاتها .

كان حديثنا في تلك الليلة بطعم جهنم ، وأعترف بأني لم أعرف التعاسة كما عرفتها حين رأيتك تفتحين حقيبة يدك وتفرغين محتوياتها على المائدة قائلة : ماذا تريد مني؟ هذا هو ما ستجده عندي . . توفرانيل وبروزاك ومضادات للتعاسة و . . . قيء أغالبه طول الوقت .

وقتها شعرت أن نصف ندي يحارب نصفها الآخر ، وتمنيت أن أعرف أيهما النصف الحقيقي ، لشد ما وددت أن يكون هو النصف الذي أحببته ، إذا لحاربت الدنيا من أجل أن أحميه وأصونه . حاولت أن أخفف عنك وقلت صادقاً : إن لديك الكثير الذي لا تدركينه ، لديك ذلك العطر الإنساني الفريد الذي تسلل عبيره إلى نفسي وأخذني إليك ، لديك كل ما يحتاجه إنسان ليكون إنساناً .

من أغرب الأشياء أن أحد الأشخاص من معارفك مر بنا في تلك اللحظات . . هل تذكرين؟ وجدت ابتسامتك تظهر وكأنك تستحيل مرحاً وكأنك ترفعين "الأفيش" المبهر في وجه الدنيا!

عارفة يا ندى؟ أحيانا أحس أنك مستاءة مني بسبب أنك أطلعتني على دخيلة نفسك وفتحت لي نافذة على روحك فلم يعد بوسعك أن تنعمي برؤيتي مبهوراً بالفنانة الجميلة المرحة ذات الحضور والشخصية .

ندي . . مر وقت طويل ولا أدري ماذا أفعل . أنا لا أشعر بالوحدة ، بل أشعر بما هو أقسى وأمر . . أشعر بالوحشة . الوحدة يكفي علاجاً لها العثور على رفيق . أما الوحشة فتحتاج لتغيير العالم!

أخر الكلام

* قال الشاعر أبو القاسم الشابي :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ، فلا بد أن يستجيب القدر

و قال الريس بيرة : سلامتها أم حسن . . .

و انا أميل للرأي الثاني .

* قال الشاعر الراحل نجيب سرور في وصف مصر المحروسة :

يا بلاد الهوى يا بلاد . . . . . يا بلاد النجوى فؤاد

* سألت المذيعة المسؤول المتحخر : هل لدينا ورق نستطيع أن نستخدمه في ممارسة الضغط على اسرائيل ؟ فأجاب بثقة : نعم لدينا ورق .

المذيعة المسكينة لم تفهم أن سيادته يقصد أن عندهم في البيت ورق . . . عنب !

* بلغ بند الانترنت "المجاني" في فاتورة تليفوني ٥٠٠ جنيه . . أتساءل صارخاً : هل كانوا يقطعون رطلا من لحمي – ثمنا للخدمة – لو كان الانترنت بفلوس؟ !

* يبدو أن عدوان كلاب سمو الأمير على الأطفال المصريين لن يتوقف ، الأمر الذي يدفع للظن أن سموه قد قام بضبط مصر متلبسة بالفعل الفاضح ، أو قام بتصويرها عريانة ، مما كسر عينها وجعلها ذليلة في مواجهة أسرته وكلابه !

* قرأت للشاعر نزار قباني قوله :

أحبك جدا وأعرف أني تورطت جداً

و أحرقت خلفي جميع المراكب . . .

تذكرت ممدوح سماعين في غربته وناجيته بصوت مهموس كما الفنانة ماجدة : ممدوح . . نزار حرق مراكب وغرّقها وما حصلش حاجة . . إرجع يا ممدوح . . ماما مسامحاك . . وبابا حيجيب لك مراكب جديدة تحرقها . . ممدوح . . .

* كتب الأستاذ مجدي الجلاد تحت عنوان : "أنا نادم ومهزوم وأكاد أنضم لحزب الفساد" . . . كتب يسأل السيد الرئيس : "هل ترضي لي ولأبنائك الصحفيين الهزيمة في مواجهة الفساد؟"

و سؤالي أنا للصديق رئيس تحرير المصري اليوم: مجدي . . إنت بتتكلم جد؟!

* كتب الأستاذ شارل فؤاد المصري مدافعاً عن المعتقد المسيحي بنقل جبل المقطم من موضعه في عهد الخليفة المعز لدين الله . . شارل يؤكد أن المعجزة التي قام بها القديس سمعان الخراز حقيقية وأن الجبل انتقل فعلاً. أنا لا أشكك في معتقدات أحد، لكن الأمر الذي يخصني باعتباري من سكان المقطم هو: ألا يوجد أحد مسلماً كان أو مسيحياً لديه خردل من إيمان يشغلت لنا شارع ٩ ويوصل لنا الميه؟

* لطاف ولاد الإيه . . الحكومة تعلن عن إنشاء عاصمة جديدة، يتلو هذا توبيخ الرئيس للحكومة وإعلان انحيازه لمشاريع الفقراء بدلا من العاصمة المقترحة، يتلو هذا هتاف الصحف للسيد الرئيس نصير الضعفاء . . والحقيقة المضحكة أنه ليس هناك لا مشاريع عواصم ولا مشاريع للفقراء . . لطاف ولاد الإيه!

* قال الشاعر فؤاد قاعود:

غابت مفاتيح الأمان . .

و ما اسعفتش الكهانة

ما عدت عارف حاطط راسي ع المخدة . .

ولا مريحها على دانة . .

الكارثة مش باينة ملامحها . .

لكنها جيّانا جيّانا

* قال الزعيم الشاب مصطفى كامل: "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا"

بينما قال زعيم الأمة سعد زغلول: "مافيش فايدة . . غطيني وصوّتي يا صفية"

أرأيتم الفرق بين الحماس الرومانسي للشاب الثائر والحكمة المقطرة للشيخ العجوز؟

فهرس المحتويات

شركة مطابع الدهنة ش. م
ت : ٥٢١٨١٦١ - ٥٢١٨١٦٢

